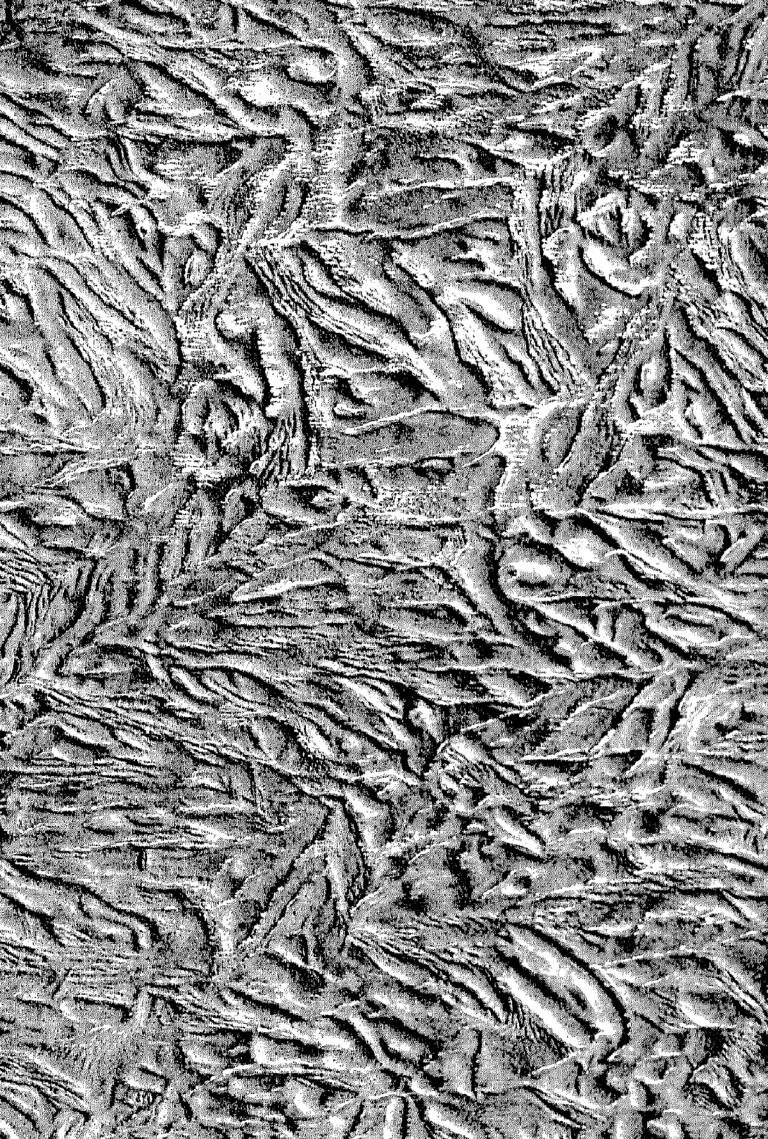
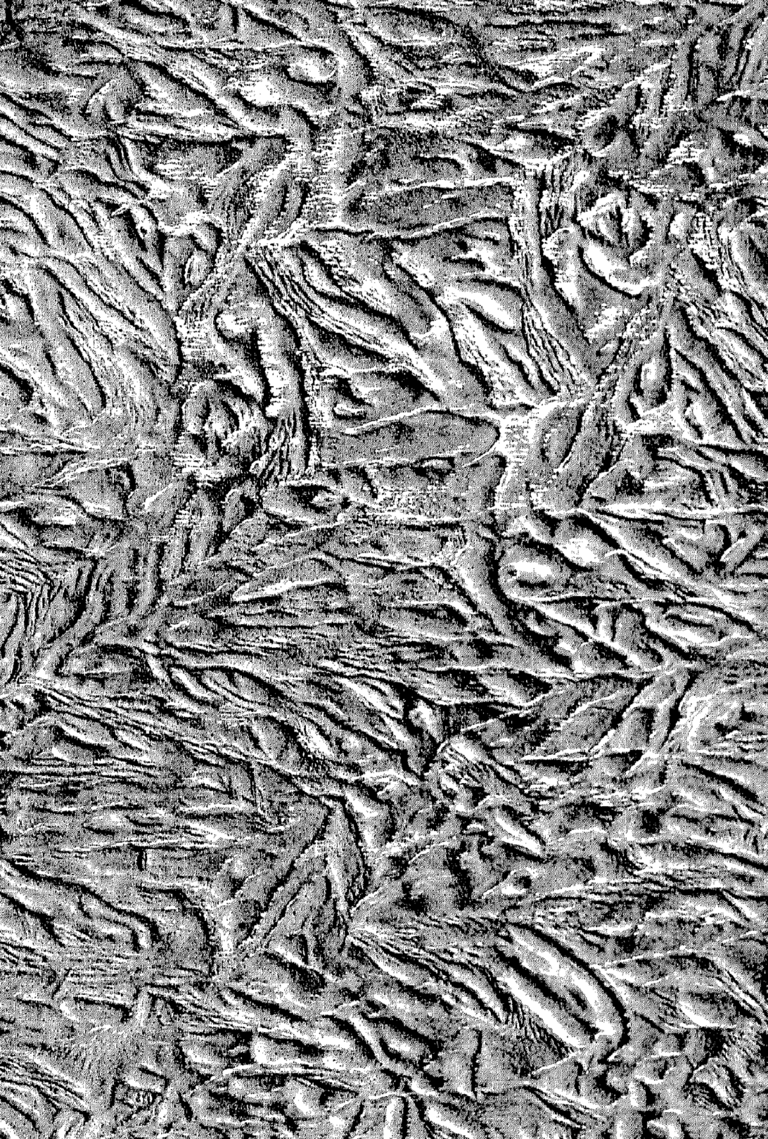
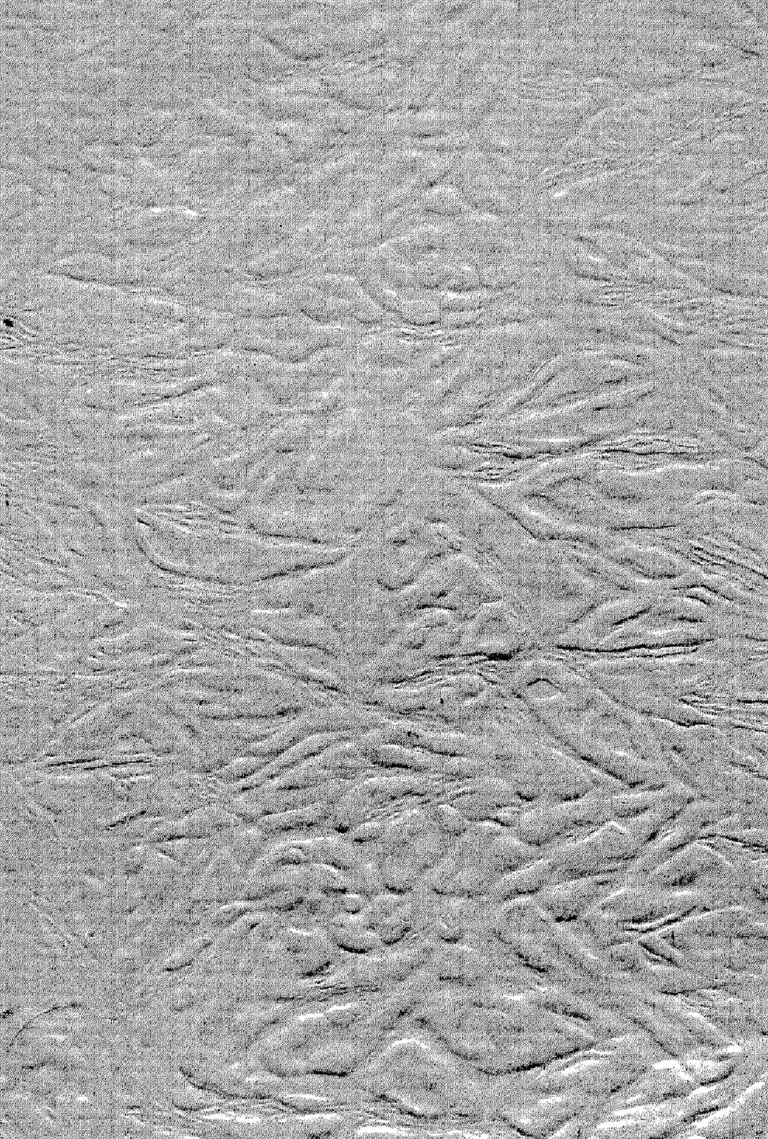
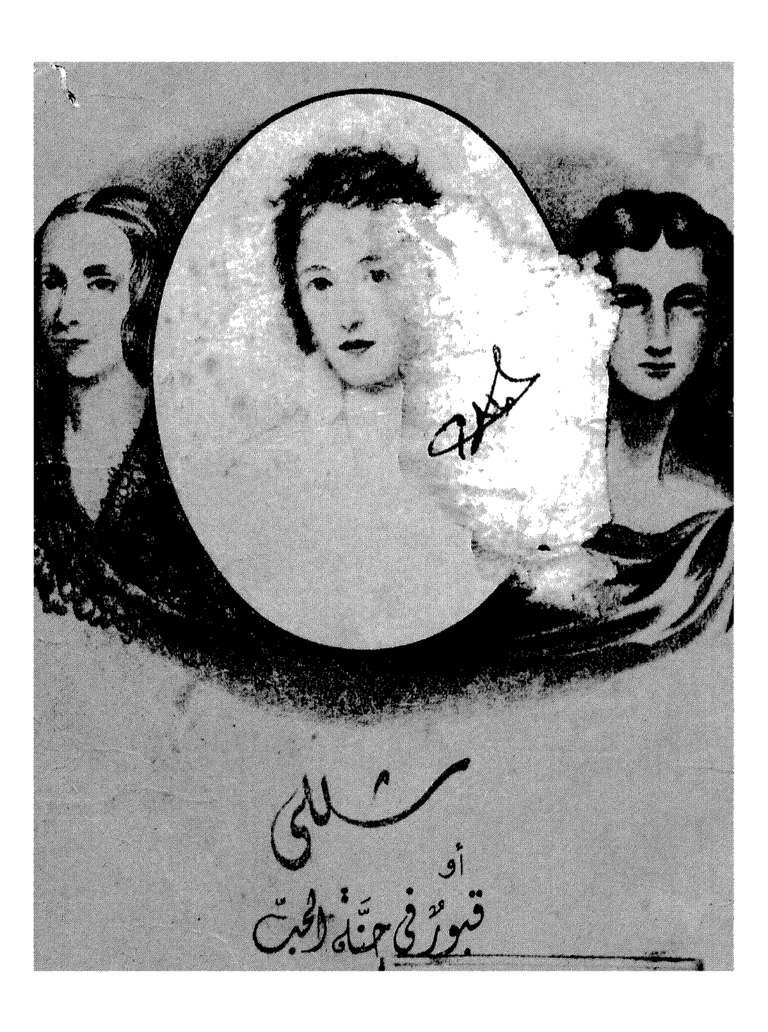







شللي
أو
قبورٌ في جنّة الحبّ

مدرسة النبوغ

●

لقد كنتم جميعاً مخطئين فى حكمكم على «شللى» ، خطأً غليظاً فاحشاً . . . فقد كان خير من عرفت من الرجال ، وأقلهم أنانية ، بلا استثناء . . . وما عرفت فى حياتى رجلا واحداً ، إلاّ كان حيواناً ضارياً ، إذا ما قيس بشللى . . .

بيرون .

شللى

أو

قبور فى جنات الحب

للمؤلف

مدرسة النبوغ

حيـــاة شلى ... ... (قبور فى جنة الحب) ... ... } شركة فن الطباعة

حيـــاة بلزاك ... ... (القصصى الأعظم) ... ... } شركة فن الطباعة

التلميذة الخالدة ... ... (حياة مدام كورى) ... ... مطبعة المعارف

مدرسة العواطف

رجال ونساء (١) .. .. }

« « (٢) .. .. }

حياة قلب ... ... } شركة فن الطباعة

الموجة العـذراء ... ... }

المرأة لعبتها الرجل .... }

شباب الفولجا ... ... }

جرائم شرقية وغربية ... ... } مطبعة المعارف

العاصـية ... ... }

غانيات .. .. }

وثائق الحرب العالمية الثانية

مأساة فرنسا ... ... }

أسرار انهيار أوربا ... ... } شركة فن الطباعة

الرقص على البارود .. .. }

الوحش الأصفر ... ... }

الطـابور الأول ... ... مطبعة المعارف

باريس .. .. } مطبعة

ما قل ودل (فى جزءين) ... ... } دار الكتب المصرية

تاييس ... ... }

الزنبقة الحمراء ... ... } نفدت

أفروديت ... ... }

فى الحياة والحب ... ... }

طرطـوف } بتكليف من وزارة المعارف العموميـة

عدو المجتمع }

عيد الذهب .. أخرجتها الفرقة القوميـــة

بالفرنســـية

الصحافة المصرية منذ نشـــأتها الى اليوم ... ... (باريس ١٩٢٨)

الاصلاح فى مصر منــذ ثورة ١٩١٩ ... ... (« ١٩٢٩)

الناشر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

أندري موروا

●

أحمد الصاوي محمد



شلي

أو

قبور في جنة الحب



ملتزم النشر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

الإهـــداء

إلى تلك النفس العزيزة النبيلة

التى تعيش فى الوحدة والحرمان

المثـال الحىّ الحزين للمرأة الشرقية

« التى تنتظر . . . »

صابرةً ، كريمةً ، على الأسى

حتى يشـــاء الله . . .

وتظفر بالروح الجميـــل

أهدى قصة شاعر هائم فى بيداء الجمال

أو

قبور ملك ، فى جنة الحب ،

محل الزهور . .

صوفى

تضمين أمين

عن الكاتب العظيم : « أندرى موروا »

للتوسع فى المراجع :

كتاب تريلاونى Trelawny عن « شلى وبيرون والمؤلف »

كتاب داودن Dowden (فى مجلدين)

كتاب أندرى شفريون : « دراسات إنجليزية »

رسائل إنجبن R. Ingpen

..

الغلاف بريشة الفنان المجرى الشهير

إريك دى مانيش

١ — عصا المعلم من الجنة !..

فى عام ١٨٠٩ ، أمر جورج الثالث ، ملك انجلترا ، بتعيين « الدكتور كيت » ناظراً لكلية « أيتون » الأرستقراطية الشهيرة . وكان رجلا قصير القامة ، شديد المراس ، يرى أن التأديب « بالفلقة » هو محطة لاغنى عنها فى طريق الكمال . وكان يختم مواعظه بقوله : « كونوا من أهل الخير ، يا أولاد ، وإلا ضربتكم حتى تصيحوا ! . . »

وكان الأعيان ، والوجهاء ، والتجار الأثرياء ، الذين يشرف الدكتور كيت على تربية أولادهم ، ينظرون بلا استياء إلى مثل هذه القسوة التقية ، ويقدرون بعين الاعتبار رجلا معروفاً بأنه جلد أغلب وزراء البلاد ، وأساقفتها ، وقوادها !

وفى تلك الأيام ، كان الخاصة من الناس يقرون ضروب التأديب الرادع . فقد برهنت الثورة الفرنسية يومئذ على أخطار الاندفاع فى الحريات ، أو الانزلاق فى الاستهتار ، إذا ما أصابت هذه الآفات الطبقات الحاكمة . ورأت انجلترا ، المحافظة ، أنها ، بمحاربتها نابليون ، إنما تحارب الإباحة ، وتخمدها فى مهدها . فأصرّت على أن تخرج لها مدارسها العامة جيلا ، عاقلا ، مصانعاً ، يعطيك من طرف اللسان حلاوة . .

ولكى تكبح جماح أية نزعة جمهورية محتملة فى شباب « أيتون » الأرستقراطيين ، اتخذت الحيطة والحذر فى تنظيم دراساتهم وألعابهم . ففى ختام خمس سنوات فى الكلية ، يكون الطالب قد قرأ ، مرتين ، « هوميروس » أمير الشعر اليونانى ، و « ڤرجيل » أمير الشعر اللاتينى ، واستقصى الشاعر المتزن الرقيق

« هوراس » . . واستطاع أن ينشىء باللاتينية نقداً مقبولا عن القائد العظيم « ولنجتون » ، الذى هزم نابليون براً ، فى معركة « ووترلو » ، أو أمير البحر « نلسون » ، الذى هزمه بحراً . . .

وكان شباب هذه الطبقة يتذوق الاقتباس من اللاتينية ، حتى إنه لما بدأ « بت Pitt » ، ذات مرة ، خلال خطاب برلمانى ، فى مجلس العموم ، يردد شطر بيت من قصيدة وطنية مشهورة للشاعر فرجيل ، وقف المجلس كله ، بحزبيه ، كرجل واحد ، وأتم القصيد ! . . مثل جميل للثقافة المتجانسة .

وكانت العلوم غير إلزامية . ولذلك بالطبع أهملت . وكان الرقص إجبارياً ! . . أما الدين ، فكان الدكتور كيت يرى الشك جريمة ، فمن العبث النقاش فيه . وإن كان يسمح بالضحك فى الكنيسة ، ولا يصر على التزام الراحة يوم الأحد . ولكى يدرك القارىء الروح المكياڤيلية ، التى كانت تلابس هذا المربى الفاضل ، من حيث يدرى ولا يدرى ، نذكر أنه لم يكن يكره من طلابه أن يكذبوا عليه أحياناً ، ولو قليلا . . إذ يعد ذلك منهم : « علامة احترام » ! . .

وكانت تسود علاقات الطلاب بعضهم ببعض عادات تكاد تكون وحشية . فإن الصغار منهم كانوا للكبار عبيداً ! . . فكل « عبد » يرتب سرير « سيده » ! . ويحمل له من « الطلمبة » مايلزمه من الماء كل صباح ، وينظف بالفرشاة ملابسه ، ويمسح حذاءه ! . . وكان كل عصيان يعاقب بلون من التعذيب يناسبه . .

وقد كتب تلميذ صغير إلى والديه ، لا ليشكو . وإنما ليصف نهاره :

[إن رولز ، الذى أنا عبده ، قد لبس مهمازيه ، وأرادنى على قفز حفرة واسعة ، فوق طاقتى . وكان ، كلما عجزت ، أو تقاعست ، ينخسنى بمهمازيه ، حتى أدمى بالطبع فخذى ، ومزق كتاب « شعراء الاغريق » فى جيبى ، وهلهل بذلتى الجديدة ! . .]

وكان للملاكمة الصدر الأول ، لمكانتها من الدفاع عن النفس . وقد حدث

يوماً أن خلف شوط عنيف منها صبياً ملقى صريعاً ميتاً على الأرض . فجاء الدكتور كيت ، فشاهد الجثة ، وقال : « هذا يؤسف له ، بالطبع ، ولكنى حريص قبل كل شيء على أن يكيل تلميذ « أيتون » ، لمن يهاجمه ، الصاع صاعين » ! . .

وكان الهدف الحقيقى الخفى لهذه الطريقة ، هو تكوين أخلاق متينة مكينة ، مصبوبة فى قالب واحد . . وكان استقلال العمل واسعاً . ولكن ما كانت لتغتفر أصالة الفكر ، أو الزى ، أو اللغة . فالمطبوع منها ، أو المستقل ، جرم لا يغتفر . والاندفاع فى الدرس ، أو التحمس للفكر ، يعد تظاهراً لا يحتمل ، يعاقب بالعنف ! . .

وما كانت الحياة على هذه الشاكلة إلا لتروق السواد الأعظم من شباب الإنجليز . وكان الزهو والكبر اللذان يخالجانهم لمشاركتهم فى التمسك بتقاليد مدرسة مثل أيتون ، أسسها ملك . . وظل يحميها ، ويرعاها ، ويجاورها ، بقصورهم ، من خلفه من الملوك ، يعوضانهم عن كثير مما كانوا يلقونه فيها من عذاب . .

غير أن بعض النفوس الحساسة ، وقليلا ما كانت ، قد اشتد عذابها ، وطال ألمها . . ومن هذه النفوس ، مثلا ، نفس الفتى « پرسى بيسه شلى » Percy Bysshe Shelly ، نجل أحد كبار الأغنياء الملاك فى مقاطعة سوسكس Sussex ، وحفيد البارون السير بسيش شللى . فلم يكن يلوح فى هذا الجو اندماجه أو انسجامه .

وكان هذا الفتى جميلا ، أروع ما يكون جمالا ، أزرق العينين ، أشقر الشعر ثائره ، ناعم البشرة كالطفل ، فأظهر قلقاً معنوياً يعد غير مألوف مطلقاً فيمن كان من طبقته ، كما أبدى نزعة لا تصدق فى تطبيق « قواعد اللعب » .

فعندما جاء الفتى شللى إلى المدرسة لأول مرة ، رأى فيه قباطنة السنة السادسة : جسما نحيلا ، ووجهاً ملائكياً ، وهيئة أقرب ما تكون إلى الفتيات ، فتصوروه حيياً ، لا يحتاج إلى أن يفرضوا عليه إرادتهم قسراً . . بيد أنهم لم

يلبثوا أن اكتشفوا فيه مقاومة جامحة لأقل تهديد أو وعيد . إرادة لاترضخ ، فى جسم غير مستجمع للقوى الحيوية اللازمة لتدعيمها ، وتنفيذ أحكامها ، مما أدى إلى التمرد . . وكانت عيناه النجلاوان ، الحالمتان فى ساعات الصفاء ، تبرقان تحت تأثير الحماسة أو السخط ببريق وحشى . ويصبح صوته ، الرزين الرخيم عادة ، جهورياً متحشرجاً . .

وكان حبه للكتب ، واحتقاره للعب ، وشعره المرسل فى الهواء ، وقميصه المفتوح على نحر أنثوى ، كان كل ما فيه يصدم أولئك الرقباء ، الذين آلوا على أنفسهم أن يحافظوا فى مجتمع « أيتون » الصغير على الخشونة التى يباهى بها . .

وقد حكم شللى ، من أول يوم فى أيتون ، بأن الطغيان الذى يفرض على الصغار « العبيد » ! هو مخالف للكرامة الإنسانية ، فرفض بخشونة أن يخدم « سيده » ، أو يطيعه ، مما جعله خارجاً على القانون ! . .

فأطلق عليه « *شللى المجنون* » ، وتضافر أقوى الزبانية على إنقاذ روحه بالتعذيب . ولكنهم تجنبوا التحرش به ومهاجمته فرداً لفرد ، حين وجدوه لا يتحرج من شىء ، يضاربهم بالأكف ، كالفتيات ، ويخبش ، ويخدش ، ويخمش !

ونظمت منهم جماعة « *مطاردة شللى* » ، وأصبحت من ضروب اللعب والترفيه البارزة فى كلية أيتون ! . . فإذا ما اكتشف طلائعهم المخلوق الفذ يطالع ديوان شاعر على ضفة النهر ، صوتوا من فورهم صوتاً معيناً . . وعندئذ نرى شللى ، وشعره يتطاير فى الهواء ، يجرى خلال المراعى ، وشوارع المدينة ، وأروقة الكلية ، هارباً . . وأخيراً يضربون من حوله نطاقاً ، ويحاصرونه كما يحاصر الصيادون الأيل الوحشى ، وظهره إلى جدار ، فيصرخ صراخاً متواصلا يصم الآذان ، بينما يرجمه الطلبة بكرات مبللة بالوحل ، كأنهم يسمرونه فى الحائط ! . ويصيح صوت : « شللى ! » . فيرد عليه صوت آخر صادعاً : « شللى ! شللى ! » . فتتجاوب بهذا الصدى الجدران القائمة العتيقة ، وتردد : « شللى ! . . » . .

ويتزاحم عليه « السادة » و « العبيد » . . ويتكأكأون للنيل منه ، فترى « عبداً » من صغار التلاميذ يجذب ملابسه ، وآخر يقرصه ، وثالثاً يخطف الكتاب الذى يضغطه تحت إبطه ، ويلقيه فى الوحل . . وعندئذ تتجه كل الأصابع المرفوعة مشيرة إليه ، ويتجدد صياحهم المتواصل : « شللى ! . . شللى ! . . شللى ! . . » ، مما يجهز على مابقى له من أعصاب . .

وتبلغ الأزمة مداها الذى يتوقعه الطلبة الزبانية ، فتتفجر منه سورة حنق جنونى ، تلمع منه عيناه ، وتشحب وجنتاه ، وينتفض بدنه كله ، ويهتز اهتزازاً .

أما بعد ، فقد سئمت الكلية هذا المشهد المتكرر ، فعادت إلى ألعابها . . والتقط شللى كتبه الملوثة بالطين ، وانفرد بنفسه ، مستغرقاً فى التفكير . . واتجه متثاقلا نحو المراعى الجميلة النضرة على ضفاف التاميز . . وجلس فى الشمس ، على العشب ، ينظر إلى مجرى النهر . والماء الجارى ، له ما للموسيقى الشجية من قوة تحويل الشقاء إلى اكتئاب . . كلاهما ، بموجاته المتتابعة ، يُدخل على النفوس فى رفق : الحنان والنسيان . . وكانت أبراج قصر وندسور وكلية أيتون الشامخة ، حول الصبى الثائر ، تمثل له عالماً خصيبا لايتغير . . غير أن صورة أشجار الصفصاف المرتعشة ، المنعكسة فى الماء ، قد لطفت برقتها وهزتها بعض مابه . .

فعاد إلى كتبه : مؤلفات : ديدروه ، وڤولتير ، والفيلسوف المادى الملحد دولباك . . فقد كان عنده الإعجاب بهؤلاء الفرنسيين ، الذين يمقتهم أساتذته ، خليقاً بشجاعته . وكانت آراؤهم ملخصة فى مجلد جودوين Godwin : « العدل السياسى » ، وهو كتابه المختار . وكان مؤلف جودوين يبسّط الأمور . ولو أن كل الناس قرأوه لعاشت الدنيا فى هناء . . لو أنهم أصغوا إلى صوت العقل ، أى صوت جودوين ، لكان عمل ساعتين فى اليوم يكفى لغذائهم . . ولحلّ الحب الحر محل عقود الزواج الحمقاء . . لكن وا أسفا ! . . إن « الأحكام المبتسرة » تغلق العقول ، وتغلظ القلوب ! . .

وطوى شللى كتابه ، وتمدد فى الشمس ، على العشب الأخضر ، بين الزهور ، يفكر فى شقاء البشر . .

وكانت مبانى الكلية الدانية ، من طراز القرون الوسطى ، يتصاعد منها لغط أصوات الغباء ، نحو هذه البرية الفيحاء ، المزدهرة بالغابات والغدران . . ولم يكن حوله ، فى هذا الخلاء الهادىء ، وجوه ناظرة ، ضاحكة ساخرة . . فانهمرت من عينى الصبى الدموع . . فضم يديه ، وأقسم ، بصوت مرتفع ، هذا القسم الغريب : « أقسم أن أكون عاقلا ، وعادلا ، وحراً ، ما استطعت إلى ذلك كله سبيلا . أقسم ألا أتواطأ أبداً ، ولا بمجرد الصمت ، مع أهل الأنانية والجبروت . أقسم أن أكرس حياتى لعبادة الجمال . . . »

ولو أن الدكتور كيت ، عميد أيتون ، شهد هذا الاندفاع الحار ، الذى يرثى له ، فى مثل مدرسته المحافظة ، لعاقب حتما صاحبه ، بطريقته المختارة ! . .

٢ — البيت

فى خلال العطلة المدرسية ، يصبح العبد الآبق ولياً للعهد . وكان أبوه ، المستر تيموثى شللى ، يملك قصر « فيلد پلاس » فى سوسكس ، وهو دار بيضاء ، متينة البناء ، تحيط بها حديقة وغابات شاسعة . . هناك ، وجد شللى أخواته الأربع ، وكلهن فاتنة ، وأخاً صغيراً عمره ثلاث سنوات ، علمه كيف يصيح : « الشيطان ! . . » ، نكاية بالأتقياء ! . . كما وجد بنت عمه « هارييت » الحسناء ، التى كانت ، كما يقولون ، تشبهه . . .

أما عميد الأسرة ، السير بسيش شللى ، فكان يسكن القرية . وهو « چنتلمان » من المدرسة الإنجليزية القديمة ، يباهى بالغنى ، كما لو كان دوقاً ، ويعيش كسارق الصيد . وكان طوله ستة أقدام ، وجيه المظهر ، جميل المحيّا ،

لامع الذهن ، ساخر الفكر . . وكان قد أنفق ثمانين ألفاً من الجنيهات على تشييد قصر فخم ، لم يسكنه ، لما تتكلفه سكناه من حاشية ! . . وعاش فى كوخ مع خادم واحد ، يلبس كفلاح ، ويقضى يومه فى حان القرية ، متحدثاً فى السياسة مع المسافرين . وكان قد عاد من أمريكا على نوع من الدعابة الغليظة التى يرتاع منها أولئك الإنجليز الوادعون . وشقيت بالعيش معه كريمتاه ، إلى حد أنهما هربتا ، فجاء ذلك عنده مبرراً طيباً لحرمانهما من « الدوطة » ! . . وكانت هوايته الوحيدة أن يضخم ثروة كانت مع ذلك هائلة ، وأن ينقلها ، غير ممسوسة ، إلى آل شللى ، على الأحقاب ، يتوارثونها خلفاً عن سلف . . وعلى ذلك وقف الجانب الأكبر منها على حفيده « پرسى » ، مع حرمان بقية إخوته وأخواته حرماناً تاماً . . وكان يعد حفيده ممثلا لأمنيته هذه ، ويشعر نحوه بالمحبة ، فى حين كان يحتقر ولده « تيموثى » لصناعته اللفظية .

وكان تيموثى شللى ، عضو البرلمان ، مثل والده ، طويل القامة ، قوى العضل ، أشقر الشعر ، جميلا ، وجيهاً . قلبه خير من قلب السير بسيش ، وإن كان دونه مضاء عزيمة . يتمسك باحترام الدين السائد يومئذ ، وإن تظاهر بحرية الرأى السياسى والدينى . . أما زوجته ، مسز شللى ، أجمل فتاة فى أقليم « سوسكس » ، فكانت تحب من الرجل أن يكون فارساً مناضلا ، ولذلك نظرت بعين السخرية إلى ولدها الكبير (بطل هذه القصة) وهو يقصد الغاب ، حاملا تحت إبطه ، بدل البندقية ، كتاباً ! . .

بيد أن شللى كان ، فى أعين أخواته ، رجلا أعلى (سوپرمان) ، فلا يكاد يصل من أيتون ، حتى يزدحم البيت بالضيوف الغريبى الشكل ، وتغص الحديقة بالأشباح ، ويتصاعد من جوانبها الهمس ، كما فى قصة شكسبير : « حلم ليلة صيف » . . ويتخذ شللى ، من بين أخواته الصغيرات العزيزات ، أقربهن إليه سناً وفكراً : « إليزابيث » ، فهى ، وبنت عمه الفاتنة « هارييت جروف » ، أعز

مريداته . . فقد كان هؤلاء الأحداث الثلاثة يربطهم الشغف بالبحث عن الحقيقة . وكان شللى يسوق تلميذتيه الجميلتين نحو المقبرة ، حيث يرى لأرواح الموتى الهائمة حولهم تأثيراً شعرياً ! . . ويطوق بذراعيه خصريهما النحيلين اللدنين ، ويعلق بفصاحة ، للعيون الظامئة النجلاء ، على ما يتراءى له من شؤون الأرض والسماء ! . .

وكانت الصورة التى يرسمها للعالم بسيطة . فمن جانب الرذيلة : الحكام الطغاة ، والقساوسة المراءون ، والأغنياء الشرهون . ومن جانب الفضيلة : الفلاسفة الحكماء ، والمساكين ، والأشقياء . . وكان قاموسه فى هذا كتاب جودوين : « العدل السياسى » . . غير أنه كثيراً ما كان يتحدث إلى فتاتيه فى الحب :

ـــ إن شرائع البشر تزعم فرض سننها على عواطفنا الطبيعية . فياللسخف ! فعند ما تلحظ العيون مخلوقاً جذاباً مشتعل الفؤاد ، فكيف يكون فى مقدوره أن يتجنب الحب ؟ ! . . إن الحب يذبل فى جو الضغط والإكراه . وجوهره هو الحرية . وهو ما لا يتفق والطاعة ، أو الغيرة ، أو الخوف . فلا مندوحة له عن الثقة ، والاستسلام التام . وليس الزواج إلا سجناً . . .

والإسراف فى التشكك فى الزواج دعابة لا تتذوقها العذارى ، وقلما تطيب لهن . وعلى ذلك ترد هارييت :

ـــ القيود ؟ . . إنها بلا شك قيود . . ولكن ما الضرر منها إذا كانت خفيفة . . لذيذة ؟ ! . .

ـــ إذا كانت خفيفة فلا فائدة منها . . أتوضع القيود والأصفاد فى يدى سجين متطوع ؟ . .

ـــ ولكن الدين ؟ . .

وعندئذ يجدف شللى . ويستنجد بأنصار الإلحاد ، مثل : هولباخ ، وجودوين . ويتساءل :

— ما ذنب خلائق خلقها الله ضعيفة ، ثم يعاقبها ؟ . . وكيف ينقم على العاثرين المساكين الذين يتركهم يتخبطون فى ضعفهم ؟ !

وكأنها قصة يؤلفها هؤلاء الثلاثة . . فتؤيد إليزابيث أخاها . . وأنّى لهاريت ، مهما عارضت ، أن تقاوم « نصف الإله » هذا ، ذى العينين البراقتين ، والقميص المفتوح على نحر شفاف ، والشعر المتطاير فى الهواء كما لو كان خيوطاً حريرية ذهبية ؟ ! . فتتنهد . . وتحاول تغيير الموضوع . .

ولا يلبث الليل أن يرخى سدوله . . فتغادر الأخت المتواطئة « إليزابيث » الحبيبين الصادقين وحدهما فى الظلام . . ويعود شللى وهارييت ، متشابكى الذراعين ، إلى البيت ، خلال الضباب الأبيض المتصاعد من المروج . . . والنسيم يهز أوراق الأشجار العليا تحت أشعة القمر . وشقائق النعمان تفرغ كؤوسها الشاحبة ، وتحنى رؤوسها المتعبة ، فوق أغصانها النحيلة . .

فتذكر كآبة الخلاء ، فى ساعة المساء ، شللى بعودته القريبة إلى أروقة أيتون المظلمة . . ويحس تحت يده بجسد بنت عمه الجميلة الدافىء ، وهو يخفق ويرتجف ، فيشعر بنفسه ممتلئاً شجاعة ، ليواجه حياة كفاح ونضال ، كالأبطال ، يؤدى فيها رسالة . . .

٣ — النَّجىّ

فى أكتوبر ١٨١٠ ، أخذ المستر تيموثى شللى ولده إلى جامعة أكسفورد ، وهو مبتهج بهذه الرحلة التى تذكره بشبابه ، وقصد إلى مكتبة « سلاتر » ، الذى كان له صلة به ، وفتح للطالب الجديد اعتماداً غير محدود ، لشراء ما يلزمه من كتب وورق . . وأشار بارتياح إلى الفتى ذى الشعر المجنون ، والعينين المضيئتين ، قائلا : « إن ولدى هذا ، يامستر سلاتر ، من أهل الأدب . وقد سبق له أن وضع قصة . فإذا أراد حتى النشر ، فدعه يرضى هوايته . . . »

واغتبط شللى بالحياة الجامعية : أن تكون له حجرة خاصة به ، وأن يكون حراً فى حضور الدروس أو عدم حضورها ، وأن يختار ما يروقه من الدراسات ، وأن يقرأ ويكتب ، أو يذهب ليتنزه كما يطيب له . . أليس ذلك بمثابة مزج حياة الرهبنة والزهد بحرية فكر الفيلسوف ؟ إن هذا هو المنوال الذى كان يحلم بنسج حياته كلها عليه ! . .

وفى المساء ، ألفى نفسه جالساً إلى جانب طالب جديد مثله ، قدّم إليه نفسه باسم « چفرسون هُجْ Hogg » ، ثم انطوى متحرزاً كما تقضى بذلك تقاليد أكسفورد . ومع ذلك فإن الشابين ، فى منتصف وجبة العشاء ، لم يستطيعا ملازمة الصمت أطول مما لزماه ، فبدآ يتحدثان عن مطالعاتهما . . فقال شللى :

ـــ إن أفضل أدب شعرىّ فى وقتنا هذا هو الأدب الألمانى . .

فاعترض هج ، مبتسما ، بأن الألمان ينقصهم الطبع . . فهم مسرفون فى الخيال . . ولذلك فهو يؤثر الأدب الإيطالى . . فاندفع شللى محتداً فى نقاش لا نهاية له ، حتى اضطر الخدم إلى رفع المائدة قبل أن يتنبه الفتيان إلى بقائهما وحدهما . . ودعا هج صاحبه للصعود إلى غرفته لإتمام المناقشة . . فقبل شللى الدعوة متحمساً . . ولكنه أضاع فى السلّم حبل أفكاره ! . . وبينما كان هج يشعل الشموع ، قال ضيفه بهدوء إنه لا يفهم سبباً فى استمرار هذا الحوار ، ما دام هو يجهل الأدبين الإيطالى والألمانى على السواء . . وإنه لم يتكلم إلا لمجرد رغبته فى الكلام ! . . . فأجابه هج بابتسامة بأن عدم اكترائه بالموضوع وجهله به لا يقلان عن ذلك ! . ثم بسط على الخوان زجاجة ، وقدحين ، وبعض البسكويت .

وخلصا من الأدب إلى الكيمياء ، وبدأ شللى خطاباً فى مستحدث مكتشفات الطبيعة والكيمياء . . وطفق هج ، الذى لا تعنيه هذه المواضيع ، يتأمل صاحبه الجديد ، فرآه وجيه البزّة ، كامل الأناقة ، ملابسه من آخر طراز ، وإن كانت مهملة . . وكان نحيفاً ، نحيلا ، طويلا ، فبدا محنى الظهر قليلا إذ يندفع

برأسه إلى الأمام فى حميّا حماسته . . وكانت حركاته رشيقة عنيفة فى وقت واحد . .
وكان لون بشرته أبيض ورديا ، كوجه البنت . . وكان شعره ذهبياً ، قاتماً ،
مرسلا . . وكانت تقاطيعه تنفث حرارة ، بل ناراً . . وتعبر عن ذكاء خارق
للعادة . ولم يكن التعبير الروحىّ دون التعبير الفكرىّ جمالا ، فقد كانت السماحة
والرقة ، وطيبة القلب ، ماثلة فيه . . كما تتجلى فى محيّاه تلك الحماسة الدينية العميقة
التى تذكر المرء بصور القديسين التى خلدها أساطين الفن الفلورنسى . .

وكان شللى ما زال يتكلم عندما دقت الساعة ، فصدرت منه صرخة الجزع
على مذاكرة درسه فى علم المعادن . . وطار إلى غرفته ! . .

* * *

ووعده هج بالزيارة فى الصباح التالى . وجاء فوجده فى جدال عنيف مع
خادم الكلية الذى أراد تنظيف غرفته وتنظيمها . كانت : الكتب ، والأحذية ،
والأوراق ، والطبنجات ، والملابس ، والخرطوش ، والقنانى ، والقوارير ،
والمخبارات ، منتثرة على الأرض ، وعلى كل منضدة ومقعد . . وبين هذه وتلك :
آلة كهربائية ، ومضخة هوائيـة ، ومجهر شمسى (ميكروسكوب) . . وأدار
شللى يد الآلة ، فتطاير الشرر اللامع من كل جانب . . واعتلى كرسياً واطئاً ،
قوائمه من البلور ، فوقف شعره الأشقر الطويل ، كما لو كان ذلك من الخوف ! .
وكان هج يتبع حركاته بعين التسلى والقلق ، ويحافظ على الأطباق والكؤوس
والفناجين . . وفى اللحظة التى أخذ فيها مضيفه يصب الشاى ، التقط فجأة من
فنجانه صلدياً تآكل من حمض الكلوريدريك الذى كان منقوعاً فيه ! . .

وغدا الشابان لا يفترقان . فكانا يتنزهان كل صباح على الأقدام ، وشللى
يعبث ويلعب كالطفل . يتسلق الربى ، ويقفز الحفر . . فإذا ما وجدا جدول
ماء ، أو غديراً ، أجرى شللى فيه مراكب من ورق ، وتبعها ، حتى تجنح
وتغرق . . فى حين يظل هج ينتظره واقفاً ، وقد ضاق صدره . . وبعد النزهة

يصعدان إلى غرفة شللى الذى يكون قد أنهكه ما بذله من الجهد ، فيتراخى ، ويستلقى على السجادة أمام المصطلى ، منطوياً على نفسه كالقط ، وينام هكذا ، من الساعة السادسة إلى العاشرة . ثم ينهض فجأة ، ويدعك عينيه بعنف شديد ، ويخلل شعره الطويل بأصابعه ، ويبدأ من فوره يجادل فى موضوع مما وراء الطبيعة ، أو يروى شعراً . . وفى الساعة الحادية عشرة يتعشى عشاء بسيطاً . . وكان بقدر ما يكره اللحم يحب الخبز ، يحشو به عادة جيوبه ، ويقضمه وهو يتمشى ، ويمضغه وهو يقرأ ، بحيث يترك خلفه خطاً طويلا من فتات الخبز ! . وكان يحب بعد الخبز الزبيب ، والقراصيا المجففة التى تشترى من البقالين . أما الأكلة المنظمة ، إلى المائدة ، فكانت عنده عبئاً لا يطاق ، وقلما يستطيع البقاء إلى نهايتها !

وبعد العشاء يصفو منه الذهن ، ويطيب الحديث . فيتحدث إلى هج عن بنت عمه هاربيت ، التى يكتب إليها رسائل طويلة تمتزج فيها نزعات الحب بفلسفة الإلحاد . . كما يصف لصاحبه أخته إليزابيث ، العدوة اللدود للأحكام المبتسرة ، والتقاليد العتيقة ، أو يقرأ بصوت مرتفع خطاب أبيه الأخير ، ضاحكاً مقهقهاً . ثم يتناول أحد كتبه الأثيرة من مؤلفات الفلاسفة : لوك ، أو هيوم ، أو ڤولتير ، ويعلق عليه بحرارة . ثم تدق ساعة الكلية دقتين . فينهض هج ، ويذهب ، رغم احتجاجات صديقه ، للنوم . وهو يفكر ، فى خلال الدهاليز الصامتة التى يعبرها إلى حجرته : « ياله من مخلوق عجيب ! . . له رقة الفتاة ، وعفة العذراء التى لم تغادر قط بيت أمها . . ومع ذلك ، فهو قوة لا تقهر . . له روح راهب متبتل ، وأفكار ثورىّ متطرف ! . . »

حقاً لقد كان مزيجاً مدهشاً يستحق التأمل . . بيد أن الأستاذ چفرسون هج لم يكن يحب التأملات التى تتعب الدماغ . . وكان صديقه شللى يبعث فيه دائماً الرغبة فى الرقاد . . .

٤ — شجرة الصنوبر المجاورة

وجد المستر تيموثى شللى ، قبل عيد الميلاد بأيام ، فى بريده ، خطاباً من ناشر كتب فى لندن ، يدعى مستر ستوكديل ، يصف له فيه الإنتاج الخارق للعادة ، الذى يريد الشاب برسى شللى أن يطبعه . وقال الناشر إن من بين المخطوطات العديدة قصة St. Irvyne ، ملأى بأشد الأفكار الهدامة . . والناشر الفاضل ينظر بعين القلق إلى نجل رجل بمثل هذه المكانة المحترمة ، يسلك طريقاً ملتوية خطرة . ومن واجبه أن ينذر رب العائلة ، وأن يلفت نظره بخاصة إلى رفيق السوء الذى يلازم مستر شللى الشاب ، المدعو « جفرسون هج » ، وهو من أسرة كريمة فى شمال انجلترا ، ولكن روحه زائف ، غث ، بارد ، خطر . . . فكتب المستر تيموثى ، فى الحال ، إلى الناشر يخبره بأنه لن يدفع بنساً من تكاليف الطبع ، ثم أعد لولده ، وكان سيصل فى ذلك الأسبوع نفسه لقضاء عطلة عيد الميلاد ، اللقاء الذى يستحقه . وكان لقاء مؤلماً حقاً . فبعد ما حاول الفتى شللى أن « ينير » والده فى شؤون الدين ، وراح يبرر « عدم الاعتقاد » ، فرض عليه أبوه الصمت بتلك الحجة الأبدية : « إنى أؤمن لأننى أؤمن » .

وحذرت أمه بناتها من مخالطة شقيقهن ، لئلا يفسد عليهن إيمانهن . وساد البيت حزن شديد لهذا الحادث ، بعد ما كان يفيض عادة فى مثل هذه الإجازة بالبهجة . . واستمروا بحكم العادة فى إعداد المعدات للاحتفال بعيد الميلاد ، وإن لم يعد يتحمس له أحد منهم . . وحلت الفرقة محل الوحدة التى كانت تجمّل هذه الأسرة .

وظلت إليزابيث وحدها مخلصة سراً لشللى ، ورأت لسوء الحظ أن إعجابها به لم تعد تشاركها فيه بنت عمها « هارييت » ، وأحست بها تزداد كل يوم فتوراً وتباعداً . ذلك أن الرسائل التى تلقتها هارييت من أكسفورد قد

ضايقتها وأقلقتها . وبرمت بما اقتبسه شللى من كتاب جودوين فى الإلحاد ، إلى أقصى حد ، ولم تزدد إلا نفوراً . . فمن النادر أن تتذوق النساء الجميلات الأفكار المتطرفة . إن الجمال ، وهو الشكل الطبيعى للنظام ، فى جوهره محافظ . وهو يدعم الدين المقرر . وإذا كفرت المرأة بالله فكأنها أشد كفراً : بالبيت ، والحياة ، والحب ، وكأنها تنكر مملكتها ، وتنفض يدها من وظيفتها وسلطانها ..

وقد أظهرت هارييت الجميلة أمها على رسائل ابن عمها المتشككة ، فنصحتها بعرضها على أبيها ، ففعلت ، فوجدها مبادىء مرذولة ، وساءت مرتقباً . وحكم أهلها من حولها بما ينتظر الفتى شللى من مستقبل مظلم . فهل كان يسعها أن تتزوج من مهووس ينفر من هوسه الناس جميعاً ؟ . . إن هارييت كانت تحب الأناقة ، والحفلات الراقصة ، والظهور .. فكيف تكون حياتها مع هذا المخلوق الشاذ ، الذى ليست حتى للزواج عنده حرمة ؟ ! فما بالك بحرمة الدين ؟ . .

وقبل وصول پرسى ، وقعت بين الفتاتين مشاحنات عنيفة ، فدافعت إليزابيث عن أخيها :

ــ كيف تضحين ، يا هارييت ، ترضية الكرامة المزعومة فى كفة ، وهناء العيش مدى الحياة مع خير الرجال فى أخرى ؟ ! . .

ــ إنك تجعلين من أخيك مخلوقاً فائقاً ، ولكن ما يدرينى ، أنا ، إذا ما كان كذلك حقاً ؟ لقد عشنا فى الريف دائماً ، فلا نعرف من الحياة كثيراً ولا قليلا . وآباؤنا ، وأبوك نفسه ، وهو عضو برلمان له تجاريبه ، يلوم پرسى على آرائه . فلنسلم جدلا بأنه عبقرىّ . فأى حق لى إذن فى أن أبدأ معه حياة تنتهى بخيبة الأمل ، عند ما يكتشف مبلغ قصورى عنه ، وبعدى عن المخلوقة العليا التى كوّنها فى مخيلته عنى ؟ ! إننى لست إلا فتاة عادية متواضعة ، أشبه ما أكون بسواى من الفتيات . . ولسوف يدهش ويقنط عند ما لا يجد فىّ المثل الأعلى الذى رسمه لى . .

ومثل هذا التواضع الكثير من هاريبت يحمل على التفكير . ولو أنها كانت تحب ، لما تلمست هذه المعاذير . فالحب أقل من هذا فطنة ، وأضعف حجة !

ولما وصل شللى ، بسطت له إليزابيث الموقف ، فهرول إلى هاريبت . فوجدها ، كما وصفتها إليزابيث : جافية ، نائية . فلم تسأل شللى تبريراً لموقفه . وإنما سألته أن يتركها لحالها . وعتبت عليه تشككه فى كل شىء . فقال شللى :

ـــ أفلا أستطيع البوح بما أعتقد . . ولمَ تنزلنى آرائى الدينية عن مكانتى عندك كأخ ، أو صديق ، أو حبيب ؟

ـــ لك أن تظن ما تشاء ، فلا شأن لى بظنونك . ولكن لا تسألنى أن أربط مصيرى بمصيرك ! . .

وكانت هذه أول مرة اصطدم فيها شللى بعدم الاكتراث من امرأة ، فسقط عليه فجأة كما يسقط الليل فى قلب أفريقيا . . فخرج مجنوناً حزناً . واجتاز الغابات المثلجة الجرداء ، فى عودته متثاقلا إلى البيت ، غير شاعر بما يهب عليه من جليد ، وقضى هزيعاً من الليل فى مقبرة البلد ، التى كانت مسرحاً لأحلام الحب الأولى . . ودخل الدار فى نحو الساعة الثانية من الصباح ، وآوى إلى فراشه بعد ما وضع إلى جانبه طبنجة عامرة ، ومختلف أنواع السموم . . غير أن تذكره ما يصيب شقيقته إليزابيث من الحزن ، عند ما ترى جثته ، قد حال بينه وبين الانتحار .

وفى اليوم التالى كتب إلى هج ، غير حاقد على هاريبت ، ولا حتى على أبيها ، أو أبيه ، فقد كان المسئول الوحيد عن هذه الفاجعة هو التعصب :

[ياصديق ، أقسم هنا ـــ على أن ألقى حتفى إذا حنثت بقسمى ـــ أقسم ألا أعفو قط عن التعصب . . وستكون كل دقيقة غالية عندى مكرسة لهذه الرسالة . فالتعصب يهدم المجتمع ، ويدعم الأحكام المبتسرة التى تقطع أعز الصلات وأحناها . . وآه لو كان بيدى أنا الانتقام من إبليس ! . . إذن لأعدته إلى وطنه جهنم ، وبئس المصير . . وبذلك يسود التسامح فى الأرض . .

وأرجو أن أصف هذا الشعور بالشعر . وسوف ترى وتسمع ما أصابنى منها ..
انها لم تعد لى . . وهى تمقتنى لتشككى . . كما كانت هى نفسها متشككة
من قبل ! . . .
عفواً ياصديق ، فما أشد ما فى عاطفة الحب من أنانية ! . . وإنى أريد
الخلاص منها ، فأعيش بعد اليوم للخير . . أيكون الانتحار جرماً ؟ . . لقد نمت
ليلة أمس وبقربى غدارتى المحشوة ، ولولا أختى ، ولولاك ، لودعتكما الوداع الأخير .]

وقضى الخمسة عشر يوماً الباقية من إجازته فى جحيم ، بين أب وأم ساخطين ، وأخوات خائفات . . ورفضت هارييت أن تلبى دعوة إليزابيث ، وتجىء إلى « فيلد پلاس » وهو فيه . . وقال بعض العارفين إن خطبتها عقدت لأحد الناس .

وحاول شللى أن يهدىء من ألمه برؤية هناء غيره ، ففكر فى مشروع خطبة أخته إليزابيث لصديقه هج . . فأرسل إليه أشعاراً نظمتها تلميذته هذه فى هجو التعصب :

[« الكل إخوان . حتى الأفريقى المحنى الظهر تحت ضربات عصا الانجليزى
القاسى الفؤاد . . . . »]

وما إلى ذلك . . وأعطاها شللى ما تلقاه من أشعار هج ، التى وصف فيها ما أصاب شللى نفسه فى محنته ، فشبهه بشجرة البلوط الفتية ، كما شبه « هارييت جروف » بالسوسة التى تنخر الشجرة بعد ما تتسلقها . .

ورد عليه شللى :

[« أو لم تعرف أن السوسة ، بعد ما دمرت شجرة البلوط ، أرادت
أن تسخر مما سببته ، فالتفت حول شجرة الصنوبر المجاورة . . . »]

وكان المقصود بشجرة الصنوبر المجاورة : المستر هيلار ، من أصحاب الضياع الأثرياء المجاورين ، ومن ذوى المبادىء السليمة ، قد خلقه الله سمحاً ليقود زوجته إلى الحفلات الراقصة ! . .

[« إنها ضاعت منى إلى الأبد ! إنها قد تزوجت ! . . تزوجت بأطيان من الأرض ! . . ستصبح هى أيضاً كالأرض جوداً وخموداً ! . . فلنضرب ، ياصديق ، عن ذكرها صفحاً . . . »]

وكان بوده لو تمكن من دعوة هج إلى قصر « فيلد پلاس » ، حتى تستطيع إليزابيث أن تراه ، وتحكم بنفسها على صفاته الباهرة . . بيد أن الوالد المحترم ، مستر « تيمونى » ، كان ما زال يذكر تحذيرات الناشر بصدد أحد رفقاء السوء . . فحال دون الدعوة . . .

٥ — ما كان ينبغى عرضه

بعد نحو شهر من هذه العطلة الحزينة ، بينا كان « سلاتر ومونداى » ، صاحبا مكتبة أكسفورد اللذان أوصاهما المستر تيمونى شللى بنزعات ولده الأدبية خيراً ، يتحادثان ، إذ رأيا الفتى شللى يندفع إلى داخل حانوتهما ، بشعره المتطاير فى الهواء ، وقميصه المفتوح ، وهو يحمل تحت إبطه حزمة ضخمة من كتيب صغير . ورجاهما عرضها فى الواجهة البلورية ، وبيع النسخة منها بستة بنسات . وتولى بنفسه تنظيمها بحيث تلفت أنظار المارة . . ونظر صاحبا المكتبة إلى هذا الاهتمام منه بعين العطف ، الذى يظهره عادة تجار المدن الجامعية للطلاب الممتلئة جيوبهم بالنقود . ولو أنهما قد حققا النظر لروعا بما عرض فى واجهة مكتبتهما من مواد مفرقعة ! . . فقد كان زبونهما الأرستقراطى الشاب قد عرض فى مكتبتهما الشريفة ما لا ينبغى عرضه : رسالة شنيعة فاضحة فى مدينة جامعية محافظة متدينة : « ضرورة الإلحاد » ! . . وكانت معزوّة إلى اسم مستعار : « چرمياه ستكلى » ! . . ولم تمض عشرون دقيقة على ذلك ، حتى مر بالمكتبة الأب المحترم «چون ووكر» ، المعيد بإحدى الكليات ،

وهو رجل منحوس ، مهووس بالتحريات ، فوقف عند واجهتها مندهشاً :
« ضرورة الإلحاد » ! . . وظل يكرر اسم هذه الرسالة باستغراب واستنكار ،
ثم دخل المكتبة ، وقال بصوت جهوري ، بلهجة السيادة :

ـــ مستر موندى ! . . مستر سلاتر ! . . ما معنى هذا ؟

ـــ حقا ، يا سيدى ، إنا لا ندرى شيئاً عن ذلك . . ولم نفحص هذا الكتيب بأنفسنا . . .

ـــ ولكن : « ضرورة الإلحاد » ! . . والكتاب يعرف من عنوانه ! . .

ـــ حقاً ياسيدى . . صدقت . . . والآن وقد لفت نظرنا إليه . . .

ـــ الآن وقد لفت نظركما إليه ، يا مستر موندى ويا مستر سلاتر ، فتفضلا بإخفائه حالا من واجهة مكتبتكما ، ارفعا كل النسخ التى فيها ، وكل النسخ الأخرى التى لديكما منه ، واحملاها إلى مطبخكما ، واحرقاها فى النار ! . .

ولم يكن للأب ووكر أية سلطة شرعية لإصدار مثل هذه الأوامر . بيد أن صاحبى المكتبة كانا يعلمان أنه تكفى شكواه منهما لتحرّم الجامعة على الطلاب دخول مكتبتهما . فانحنيا بابتسامة غاية فى الإكرام والاحترام ، وأرسلا مستخدماً من المكتبة ليرجو المستر شللى الشاب أن يحضر لأمر يهمه :

ـــ إننا آسفان يا مستر شللى لما حدث ، ولكن الأستاذ ووكر قد أصر على ذلك أشد الإصرار ، ومن مصلحتك أيضاً . . .

ولكن هذه المصلحة ما كانت لتشغل بال الفتى شللى . فأكد لصاحبى المكتبة المضطربين حقه فى التفكير وإبداء الرأى . . ثم قال :

ـــ وفضلا عن ذلك ، فقد فعلت ما هو أفضل من بسط شباكى أمام طيور أكسفورد المتوفقة الريش ، العمياء . . وبعثت بنسخة من « ضرورة الإلحاد » إلى كل الأساقفة الإنجليز ، ومدير الجامعة ، وأساتذة الكليات ، مع تحيات « جرمياه ستكلى » ، بخط يدى ، لا يد أحد سواى ! . .

* * *

وبعد ذلك ببضعة أيام ، جاء ساع يبحث عن شللى فى غرفة هج ، فأبلغه تحيات العميد ، ورجاءه الذهاب إليه من فوره . فذهب إلى قاعة مجلس الجامعة ، حيث رأى المجلس مجتمعاً بكامل هيئته . وكان مؤلفاً من فريق صغير من الأساتذة المحافظين الشديدى التمسك بالدين والتقاليد . وكانوا كلهم تقريباً يمقتون ، من زمن طويل ، الفتى شللى ، بسبب شعره الطائر الطويل ، وخروجه فى الزى ، وميله الوضيع حقاً للعلوم التجريبية ! . . . فأشار العميد إلى نسخة من « ضرورة الإلحاد » . . وسأله عما إذا كان هو المؤلف . ولما كان يتكلم بصوت خشن ، وجفاء وازدراء ، فإن شللى لم يرد عليه .

ــ هل أنت مؤلف هذه النشرة ؟ . . « نعم » أم « لا » ؟

ــ إذا أمكنكم التدليل على أنى كاتبها ، فهاتوا برهانكم . وليس عدلا ، ولا شرعاً ، أن تسألونى بهذه الطريقة . ومثل هذه التصرفات أولى بمحاكم التفتيش منها برجال أحرار فى بلاد حرة .

ــ أتنكر أن هذا من وضعك ؟

ــ أرفض الإجابة .

ــ إذن فأنت مطرود ، وأريد أن تغادر هذه الكلية غداً صباحاً على أكثر تقدير . . .

وسلم إليه أحد الأعضاء مظروفاً مختوماً بخاتم الكلية ، وفيه قرار الطرد . . فهرع شللى إلى غرفة هج . وارتمى على الديوان ، وهو يرتجف من الغيظ ، ويكرر : « مطرود ! . . مطرود ! . . » وأسنانه تصطك . . . وكان العقاب فظيعاً ، وكان معناه : قطع دراساته ، واستحالة التحاقه بأية جامعة أخرى ، وحرمانه من الحياة الطيبة الوادعة التى يحبها ويستمتع بها ، وإنزال غضب أبيه وسخطه عليه . فاستنكر هج هذا التصرف من أولياء الأمر . واندفع ، بنزعة الشهامة فى الشباب ، فكتب من فوره مذكرة لمجلس الجامعة ، يعبر فيها عن

حزنه ودهشته لمثل هذا العقاب الصارم ، ينزل بمثل هذا « الجنتلمان » . .
وعبر عن رجائه فى ألا يكون الحكم نهائياً . . وكلف خادماً بحمل هذه الرسالة
إلى المحكمة ، التى كانت ما تزال مجتمعة . فعاد على الأثر يبلغ هج تحيات العميد ،
وأمره له بالمثول .

ولم تكن الجلسة طويلة . . سأله العميد :

ــ هل كتبت هذه ؟ . .

وأشار إلى الخطاب . فاعترف به . . . فسأله :

ــ وهذه ؟ . .

وأشار إلى نشرة الإلحاد . فراح هج يدلل ببراعة المحامى على تفاهة الأمر ،
وما فى الحكم على شللى من ظلم ، لأنه لم يرد على مسألة هى فى حدود حقوق كل
إنسان . . . فقال العميد ثائراً :

ــ كفى ! . . فأنت مطرود أيضاً ! . .

وكان يلوح على العميد فى ذلك اليوم استعداده لطرد الكلية بأسرها ! . . .
وتسلم هج بدوره مظروفاً مختوماً . .

وبعد الظهر ، أُلصق على أبواب الردهة إعلان رسمى فيه اسما المذنبين ،
وأنهما طردا علناً ، لرفضهما الإجابة على ما وجه إليهما من أسئلة .

٦ ــ بين الوالد والولد

حملت عربة أكسفورد المبعدين وحقائبهما . واقترض شللى عشرين جنيها
من صاحبي المكتبة المشهورة ، ليعيش بها فى لندن ، ريثما يجيئه نبأ من أبيه . .
وبدت له الغرف المفروشة ، التى زارها مع هج ، شنيعة لاتسكن ، فإما أن يكون
الشارع كثير الضوضاء ، أو يكون الحى شديد القذارة ، أو تكون الخادمة
موفورة الدمامة ! . . وأخيراً ، راقه « پولاند ستريت » (شارع پولندا) ، لما

أثاره فى ذهنه من مشاعر العطف : « فارصوفيا . . پولندا . . الحرية » ! . . فقد كان ، هو أيضاً ، يرى نفسه من ضحايا الحرية . وكانت الغرفة التى استقرا بهـا مغطاة الجدران بورق مزخرف بعناقيد عنب خضراء وزرقاء . . بدت لهما أجمل ما فى العالم ! . . فقال شللى :

ــ هذا مقرنا ومستودعنا ، نلقى فيه عصانا ، وتستقر بنا النوى . . ونستأنف فيه ما بدأناه فى أكسفورد من مطالعات ، إلى جانب المصطلى . ونستأنف أيضاً نزهاتنا الخلوية ، وتجاريبنا العلمية . . هنا سنقيم مدى الحياة ! . .

وهو برنامج شائق ، لولا أنه تنقصه موافقة والد شللى ، وقبول والد هج .

* * *

حدّث ، ولا حرج ، عما أصاب المستر تيموثى شللى من سورة الغضب ، لما علم بمـا حدث فى أكسفورد ، فقد كان ذلك بالنسبة له شيئاً مهيناً ، هو ، السرى الأمثل ، والنائب المحترم ، وقاضى الصلح فى مديريته . . .

كانت تهمة الزندقة شنيعة ، وكان العقاب رادعاً . فكتب إلى والد هج يشكو من هذه : [. . . المحنة التى وقعت فى أكسفورد لولدى وولدك] . . ويرجوه أن يستدعى « فتاه » لساعته . وأضاف :

[أما أنا فسوف أوصى ابنى بقراءة كتاب پالى Paley ، فى علم اللاهوت الطبيعى ، الذى يناسب حالته ، ويشفيه من فتنته . . بل سأقرأه ، أنا شخصياً ، معه !]

ثم دبج لـ « فتاه » خطاباً قوياً قاسياً :

[على الرغم من أننى قد تألمت ، كوالد ، للمحنة التى نزلت بك بسبب آرائك الاجرامية ، فان على واجبات مشددة نحو ذات سمعتى ، ونحو إخوتك وأخواتك الأصغر منك سناً ، ونحو مشاعرى الدينية كرجل مسيحى . فاذا أردت أن تتلقى منى مساعدة ، أو عوناً ، أو أية رعاية ، فينبغى لك : (١) أن تعود حالا إلى بيتنا « فيلد بلاس » ، وتمتنع ، لوقت طويل ، عن كل اتصال بالمستر هج . . (٢) أن تضع نفسك تحت تصرف السادة الذين سأختارهم لك ، وأن تطيعهم . . .]

أما إذا لم تُقبل هذه الشروط ، فإن الوالد سينبذ ولده ، ويتخلى عنه للشقاء الذى يحيق عدلا بمن تسوّل له نفسه مثل هذه الآراء الشريرة الشيطانية . .

وجاء رد الولد قصيراً :

[أبى العزيز — أما وأنت تشرفنى بسؤالى عن نياتى ، لتكون قاعدة لتصرفك معى مستقبلا ، فانى أرى من واجبى (وإن كان يؤلمنى أن يجرح إحساسك نحو ذات سمعتك ، نحو أسرتك ، ونحو مشاعرك كمسيحى) أن أرفض رفضاً باتاً قبول المقترحين اللذين تضمنهما كتابك ، وأن أؤكد لك أن مثل هذا الرفض سيكون دائماً نصيب مثل هذه المقترحات . . ومع شكرى الوافر لعطفك ، أظل ولدك المحب المطيع . . پرسى بسيش شللى]

* * *

كانت العقبة الكبرى ، فى العلاقات الدبلوماسية بين الوالد والولد ، هى أن أحد المتفاوضين (وهو الأب) كان يريد بكلّ قواه أن يتجنب القطيعة ، التى تجعل وسائل التأديب عسيرة . أما وقد رفضت « شروطه » فقد سُقط فى يده !

ولم يكن فى صميمه رجلا رديئاً ، وكان يعتقد بقوة تأثير زجاجة من النبيذ الإسبانى « البورتو » العتيق . فقرر الذهاب إلى لندن ، ودعوة الشابين المتمردين إلى فندق ميلر المشهور بجودة الخمر . وقال لنفسه ، فى انتظار المخلوقين العجيبين : « الحق أنه لا بد من معاملة الأولاد باللين والبشر ، ولو أدى الأمر إلى النقاش معهم . . مهما كان النقاش يدعو إلى السخرية . . . والعقل الناضج المستنير كفيل بالفوز دون عناء على فيلسوف فى الثامنة عشرة من عمره ، وبذلك يمكن تجنب الكثير من الويلات . . وبعد ؟ أليس شللى هو وارث الضيعة ، وإليه يعود اسم شللى .. فلا مندوحة عن رده إلى جادة الصواب » . وأعد الرجل الطيب حججه المستقاة من كتاب « پالى » الدينى لتسفيه الزندقة ، وفرك يديه بارتياح . .

وفى تلك الأثناء كان الفتيان قادمين على الأقدام من « پولاند ستريت » ،

يطالعان بصوت عال ، فى الشارع ، وهما يتضاحكان : « القاموس الفلسفى » لڤولتير . . وكان شللى يتلذذ بسخرية الفيلسوف الفرنسى من الشعب اليهودى وقسوة «يهوه» إله بنى إسرائيل . . . ولما وصلا إلى الفندق ، وجدا المستر تيموثى شللى فى انتظارهما مع رجل يدعى « مستر جراهام » ، هو وكيله فى لندن وصديقه . وأحسن المستر تيموثى وفادة هج ، ووجه إلى ولده خطاباً طويلا حامياً غير مفهوم ، مصحوباً بالإشارات والحركات التمثيلية ، التى بدت للشابين سخيفة . فانحنى شللى على صديقه هج وسأله : « والآن . . ما رأيك فى أبى ؟ . . » . . فقال له هج همساً : « هذا ليس بأبيك . . هذا هو « يهوه » إله بنى إسرائيل نفسه ! » . فانفجر شللى ضاحكاً مقهقهاً حتى استلقى . فاستغرب أبوه ، وسأله مستنكفاً :

ــ ماذا أصابك ياپرسى ؟ هل أنت مريض ؟ هل جننت ؟ لماذا تضحك ؟

ومن حسن الطالع أعلن إعداد العشاء . وكان عشاء فاخراً . فطاب به الحديث . وفى ختامه بعث المستر تيموثى شللى بولده ليوصى بإعداد عربة السفر ، وراح يؤثر فى هج ، ويتخذ منه نصيراً :

ــ إنك يا سيدى تختلف تماماً عما كنت أتوقع . . فأنت سيد ظريف ، متواضع ، معقول . . فقل لى ، بماذا تشير علىّ نحو ولدى المسكين ؟ فهو مهووس . . أليس كذلك ؟

ــ أجل . . نوعاً ما . .

ــ إذن فماذا يسعنى معه ؟

ــ لو أنه كان قد تزوج بنت عمه لأصبح شخصاً آخر . فهو بحاجة إلى شخص يعنى به . بحاجة إلى زوجة كريمة . فلماذا لاتزوجه ؟ . .

ــ ولكن كيف ؟ هذا مستحيل ! . . إننى لو قلت لپرسى أن يتزوج فتاة لرفض حتماً . . فأنا أعرفه . . .

ــ إنه يرفض فى حالة ما إذا أصدرت إليه أمراً بالزواج . وأنا لا ألومه

على ذلك . ولكن إذا ربطت حباله بفتاة تعتقد أنها تكون قرينة طيبة له ، دون ذكر شيء عن الزواج ، فلعله يتعلق بها ، وإذا لم توفق الأولى ، فيمكن تجربة سواها ! . . .

فتدخل المستر جراهام ، وكيل الأعمال ، فى الحديث ، وأطرى هذه الخطة.. وتهامس الرجلان على حدة مستعرضين أسماء الفتيات . . وعاد شللى . فأمر أبوه بزجاجة أخرى من أعتق نبيذ إسبانى ، وبدأ يثنى على ذات نفسه ، وينوه بأنه أعز ما يكون مكانة فى مجلس العموم ، يوقره الأعضاء جميعاً ، ويخصه الرئيس باحترامه ، فيقول له : « يا مستر شللى ! . . لا أدرى ماذا كنا نفعل من دونك ! » .. وهو كذلك محبوب جداً فى مقاطعة «سوسكس» ، وقاضى صلح ممتاز . . . ثم حكم المستر تيموثى بأن النبيذ قد فعل فعله فى مدعويه ، فدخل فى الموضوع الأساسى لرحلته ، وجادل ولده فى الدين . . ولم ينكر أحد من الحاضرين وجود الله . . غير أن العشاء انتهى ، ولم يتم الصلح .. فقد رفض شللى أن يتبع أباه ، ورفض أبوه أن يعطيه بنساً واحداً . وعلى هذا افترقوا ، وقد فاز هج وحده بإعجاب والد شللى ، فقد وجده إنساناً أرق من ولده ، وليس مثله كبرياء وعناداً ، وأنه يفهم الحياة . ورأى فكرته عن زواج شللى معقولة . وكذلك رأى هج ، من جانبه ، أن النائب المحترم ، والد صديقه ، وإن كان غامض الخطاب شيئاً ما ، فهو سليم الطوية ، وكريم الضيافة .

وبعد بضعة أيام ، أثبت هج فعلا أنه يفهم الحياة بالوفاق مع أبيه هو نفسه ، وكان أبوه عميد أسرة قديمة ، محافظة ، معروفة بتقواها . . لم يعلن على رؤوس الأشهاد استنكاره أعمال « فتاه » ، كما عمل والد شللى . . . فنصح ولده هج أن يتابع ممارسة القانون ، ووجد له محلا فى مكتب محام بمدينة يورك . . فاضطر هج إلى هجر صديقه شللى فى غرفة « پولاند ستريت » ، كما لو كان ثعلباً حائراً بين عناقيد العنب الخضراء والزرقاء . . .

٧ – مجمع الشابات

أما وقد بقى شللى وحيداً فى لندن ، بلا صديق ، ولا عمل ، ولا مال ، فقد سقط فى مهاوى اليأس والقنوط . وكان يقضى أيامه فى غرفته ، ينظم الأشعار الحزينة ، ويكتب الرسائل إلى هج . فإذا جاء المساء ، لم يدر مايفعل ، فينام فى الساعة الثامنة . وكان النوم وحده هو الذى يحول بينه وبين أن يعيد لنفسه رواية شقائه ، أو يكرر استعراض بلواه . ولا يكاد ينصرف إلى التأمل ، حتى تتمثل فى ذهنه صورة بنت عمه الجميلة ، اللاهية ، فيتعذب ، ويحاول جهده أن يخلص قلبه من هذه الرؤى الأليمة ، مردداً « أنه لم يكن يحب جسد تلك المخلوقة ، بل روحها ، التى تغيرت فلم تعد هى ، وعلى ذلك لم يعد لها وجود . . »

غير أنه لم يجد فى هذا التدليل المنطقى عزاء . وزادت مسألة النقود تحرجاً . فلم يبد أبوه : حساً ، ولا خبراً . وقد حدث أن قابله ذات يوم ، بطريق الصدفة ، فى شوارع لندن ، فسأله بأدب عن صحته . . فكان كل ما تلقاه من الرد نظرة سوداء ، كالغيوم ذات الرعود ، ثم النطق السامى : « خادمك المطيع ، ياسيدى ! . »

ولحسن الحظ لم تنسه شقيقاته ، فكن يرسلن إليه مصروف أيديهن ، وكان ذلك كل مايعيش عليه ، فقد كانت إليزابيث ، الكبرى ، فى قصر فيلد پلاس ، تحت الحراسة ، أما شقيقتاه الصغيرتان فكانتا فى معهد داخلى اسمه « مجمع الشابات » ، تديره مسز « فننج » ، فى « كلافام » . . ولم تلبث طالبات مسز فننج أن تعرفن بالعينين الساحرتين ، والقميص المفتوح ، والشعر الثائر الطائر المجنون : تلك المميزات التى خص الله بها أخا هيلين شللى !

وكان يجىء ، وجيوبه محشوة بالبسكويت والزبيب ، ويبدأ يتحدث فى الأبديات ، أمام حلقة من الصبايا المفتونات . . . وقد عنى خاصة بأن « ينير » أجملهن ! . . وكان أشد ما يكون إعجاباً بزميلة أختيه وأعز صديقة لها ، « هارييت

(هاربيت أيضاً ! !) وستبروك » ، وكانت فى السادسة عشرة ، ذات شعر أشقر أحمر ، وذات بشرة كأنها من ورد ولبن ، صغيرة القد ، نحيلة الغصن ، رائعة الحسن ، تفيض مرحاً ذكياً ، ونضارة شائقة ! . وقد زاد نفعها عندما أصرت مسز فننج النـاظرة (بناء على أوامر تلقتها من المستر تيموثى) على الحد من زيارات شللى لمجمع الشابات . فكانت هاربيت ، وأهلها يسكنون لندن ، تخرج كل يوم ، صباحاً ومساء ، ذاهبة من البيت إلى المعهد ، ومن المعهد إلى البيت . فعُهد إليها هى بحمل : النقود ، والفطائر ، والحلوى . . وبالطبع أصبح ناسك صومعة « پولاند ستريت » خير صديق لها ! .

وكان والد هاربيت وستبروك فيما مضى خمّاراً ، فأراد أن تتربى بنته تربية بنات الأشراف . ولمـا ماتت أمها تولت أمرها أختها الـكبرى إليزا ، العذراء الناضجة ، ولم يكن غريباً أن تهتم أسرة وستبروك بهذا الفتى النبيل ، الوريث لثروة طائلة ، الجميل كالآلهة ، الذى يعيش فى غرفة صغيرة ، على : الخبز ، والتين المجفف ، تحمل إليه الآنسة وستبروك الصغيرة «مصروف» شقيقتيه ليحول دون موته جوعاً . . .

وأصرت إليزا على رؤية البطل . . فجـاءت به هاربيت على أثر إحدى جولاتهما . فراع شللى ، شيئاً ما ، منظر بنت الخمّار الـكبرى . . فقد كانت ناشفة ، بادية العظام ، وجهها الأبيض الكالح مخدّد بآثار جروح وندوب ، وعيناها منطفئتان ، تنظران ، ولا تنطقان عن ذكاء ، وشعرها كتلة سوداء كالربوة تشرف على هذا كله ! . . وكانت الآنسة إليزا وستبروك تُزهى خاصة بشعرها . وكانت ، بما فيها من تصنع وتـكلف ، تتناقض تناقضاً جلياً مع أختها الصغرى ، التى تدل ضحكتها على بساطتها . على أن شللى لم يلبث أن نسى نفوره البادىء من قبح هذه العانس ، عندما رآها تبدى له ودها . فهى لم تعارض ، كما كان يخشى ، فى زيارات أختها لغرفة « پولاند ستريت » ، بل شملتهما برعايتها ، ودعت شللى

مرات عديدة للعشاء معهما فى غياب المستر وستبروك . واكتسبت تماماً قلب الفيلسوف الشاب ، حين سألته بدورها : أن تستنير ، وتتثقف ، مع هاريت ، بمطالعة « القاموس الفلسفى » تحت إشرافه ! . .

وسرعان مالوحظت فى « مجمع الشابات » نزهات هاريت مع شللى . فنصحتها إحدى المعلمات بالحذر من أن تكون أخلاقه من نوع أفكاره الكافرة . وضبطت معها رسالة منه ممتلئة بأخطر الحجج والآراء . فهددت بالفصل لمكاتبتها « زنديقاً » ! . . ولوت بنات الأشراف أكتافهن لبنت الخمار ، وصددن عنها ، حتى صار عيشها فى المعهد مراً . . .

وبينا كان شللى ، ذات مساء ، وحيداً ، يقرأ إلى جانب المدفأة ، جاءه نبأ من إليزا بأن هاريت مريضة ، وترجوه أن يجىء ليؤنسها . فذهب ، فوجدها فى فراشها ، شديدة الشحوب ، ولكنها أجمل منها فى أى وقت مضى ، بغدائر شعرها الكستنائى الذهبي ، المرسلة من حولها . . وصعد المستر وستبروك ليقول لشللى : « تشرفنا : How-d'ye do » ! . . فشعر شللى بالحرج حين رآه داخلا ، لأنه مهما كان كارهاً للأحكام العتيقة المبتسرة ، فقد بدت له غير لائقة هذه الزيارة الليلية فى خدر فتاة . . بيد أن المستر وستبروك كان ظريفاً ، وظريفاً جداً ، حيث قال : « آسف لعدم استطاعتى البقاء معك . لأن عندى أصدقاء فى الطابق الأرضى . فتفضل إذا شئت بالانضمام إلينا فيما بعد » . . فشكره شللى . . وتمنع ، خوفاً من أصحاب المستر وستبروك ! . .

وجلس إلى جانب فراش هاريت ، وإليزا بقربهما . . وكانت فى تلك الليلة ذلقة فصيحة ، فتحدثت طويلا عن الحب . وما لبثت هاريت أن اشتكت من صداع شديد ، لاتحتمل معه دوىّ الكلام . . فاستأذنتهما إليزا ، وذهبت عنهما ، ونزلت إلى حجرتها . . وتركت الشيئين الصغيرين وحدهما . . وبقى

شللى إلى ما بعد منتصف الليل . . وكانت تتصاعد إليهما ضحكات أصحاب المستر وستبروك ، وهم يشربون . .

وفى اليوم التالى كانت هارييت أحسن حالا !

* * *

لقد صار منفى شللى أخف وطأة ، منذ أصبح يستقبل فيه الفتيات ، و «ينير» عقولهن . ومع ذلك كان يشكو بعده عن أخته إليزابيث . وهى لم تعد ترد حتى على رسائله . . أتكون تحت الحراسة ؟ . . وقرر الذهاب ، ولو خلسة ، إلى « فيلد پلاس » ليراها ، مهما كلفه ذلك . ثم ماذا يحدث لو أنه وصل ذات مساء ، دون إعلان ، ونزل ، وقابل بالصمت لعنات أبيه ؟ . . وجاء الفرج بمجىء خاله « الكابتن بيلفولد » ، فى الوقت المناسب ، يقترح عليه الذهاب معه . وكان هذا الكابتن البحرى شيخاً شهماً ، تولى بارجة تحت قيادة نلسون فى ترافلغار . . وكان يؤثر ألف مرة هوس ابن أخته ، الفيلسوف الشاعر ، على زوج أخته المستر تيموثى المتصلب . . وليس يعنيه من پرسى شللى تشككه أو إيمانه . . فدعاه إلى ضيعته فى «ككفيلد» ، على عشرة أميال من «فيلد پلاس» ، وأكرم مثواه . وتطوع شللى ، عرفاناً بالجميل ، لـ « ينير » مضيفه ، فأظهر الكابتن أنه تلميذ نجيب ، بحيث أدهش ، بعد أيام ثمانية ، قسيس القرية وطبيبها ، بحججه المنطقية النارية ! . .

وتعرف شللى بمعلمة الناحية « مس هتشنر » ، وهى فتاة جميلة ، ذات وجه رومانى ، فى نحو الثلاثين . وكانت ذات نزعة جمهورية . كما كانت مشهورة فى القرية بأنها خيالية ، ومتغطرسة . وكانت تشكو من أن أحداً لا يفهمها . وبعد ما أعجب شللى ، طبعاً ، بنبالة وجهها ، امتعض إذ رآها تعتقد بالله وحده ، مع إنكار الوحى والنظم الدينية ! . . فاقترح عليها أن يجادلها « بالمراسلة » ، متعهداً بشفائها من ضلالها ! . . فقبلت .

وفى خلال ذلك كان الكابتن بيلفولد قد حمل حملة صادقة على زوج أخته المستر تيموثى شللى، واستعان عليه بدوق نورفولك ، زعيم حزب الأحرار السياسى . . وانتصر الغرور على الطغيان الأبوى ، فعاد شالى إلى فيلد پلاس مظفّراً فى الحرب . . وقد مُنح مئتى جنيه سنوياً ، بلا شرط ولا قيد !

* * *

ها هو ذا آخر الأمر قد لقى أخته إليزابيث . غير أنه صعق لما أصابها من تغير ، فقد صارت أشد مرحاً ، وأوفر حيوية ، من ذى قبل ، بل صارت طائشة عابثة إلى حد لا يصدق . لقد عرفها ، من قبل ، متحمسة ، ولكن فى وقار وكرامة . أما الآن ، فقد انصرفت عن الفكر والرأى والجدل ، واندفعت فى تيار الملاهى الخطرة ، والحفلات الراقصة ، والأحاديث التافهة . . لم تعد تحيا إلا حياة « اجتماعية » . فحاول أن يتلو عليها ، كما كان يفعل من قبل ، رسائل هج . . فصاحت :

ـــ أُفٍّ لك ولصديقك السخيف ! . . فكل الناس الذين أعرفهم يحكمون عليكما ، كليكما ، بالجنون . . .

ثم عرجت على حديث الزواج . لم تعد تفكر إلا فيه . وما كان ثمة شىء يملأ شللى رعباً كالزواج . فهل تراها نسيت ما طالعاه ، و مبادئ « جودوين » السليمة ؟ ! . . قال :

ـــ الزواج شىء بشع كريه . وإن قلبي لينقبض إذ أفكر فى هذه السلسلة الشنيعة ، أثقل ما صنعه البشر من الأصفاد الحديدية والأغلال لتقييد النفوس الكريمة . . والتشكك والحب الطليق مرتبطان معاً ارتباط الدين بالزواج . والناس الشرفاء ليسوا بحاجة إلى الشرائع . . . فبالله عليك ، يا إليزابيث ، هل ترين رجلا شريفاً يرضى بإخضاع مخلوق حبيب إليه ، عزيز عليه ، وإنزاله إلى هذه الدركة ؟!

ـ ولكنك مع ذلك كنت تريدنى على أن أتزوج صاحبك هج ؟ !

ـ أجل ، ولكن لا على يد قسيس ، أو طبقاً لشرائع الخلق . . زواجاً حراً ، والحب كاهنه ! . .

فقالت إليزابيث باحتقار :

ـ أهذه إذن هى النصائح التى تسديها إلى أختك يا پرسى ؟ ! . .

لقد ضاعت إليزابيث فى نظره . فقدها . فلم تعد تنطق عنده إلا عن الهوى . . وهى تريده أخاً لها ، على أن يسلك غمار المجتمع ، ليكون صياداً مطارداً فى حملة اقتناص الزوج ! . . كلا ! . . وألف مرة كلا ! . . إنه لم يجىء إلى هذه الدار إلا ليراها . فلم يعد أمامه الآن إلا الرحيل . ولم تكن تنقصه الدعوات . خاله يريده فى ككفيلد . وأسرة وستبروك ستقضى العطلة فى الجبل ، والفتاتان تضرعان إليه أن يلحق بهما . . وهج يسأله قضاء شهر معه فى يورك . وهى الدعوة التى كان يؤثر تلبيتها ، لولا خشية أن يعود فيعكر صفو العلائق بأبيه الذى كان يحرص ، ولا شك ، على التفرقة بين مجرمى أكسفورد . . وكان كل تقرب بينهما يثير غضبه . ولما كانت الدفعة الأولى من معاشه الموعود مستحقة الدفع فى أول سبتمبر ، فإن الصبر به أولى . . .

وبينا كان متردداً ، جاءته دعوة من ابن عم لأمه فى مقاطعة ويلز . فوجدها سبيلا للاقتصاد فى انتظار المعاش ، فلبّاها . وفى مروره بلندن تمنى لو رأى مس هتشنر ، المعلمة ، ذات الوجه الرومانى ، وتغدى معها . غير أنها خشيت مغبة هذا اللقاء على سمعتها . . فضلا عن التباين المحسوس بين مركزها الصغير ومكانته الاجتماعية ! . . فاستنكر هذه الفكرة ، وكتب إليها خطاباً جميلا فى المساواة بين الطبقات ، ودعاها فيه : « شقيقة روحه » . . فبدأت تفكر فى أن اسم : « اللادى شللى » هو اسم بديع . . وراحت تنظر إلى نفسها ، فى كل مرآة . . .

٨ — هذه السلسلة الشنيعة . . .

شللى الآن على صخور بلاد الغال ، يصغى إلى هدير السيول ، ويقرأ رسائل أصحابه . فهو ، من عزلته الموحشة هذه ، ما زال يوجّه عدة نفوس : مس هتشنر المعلمة ، هج الوفى ، الكابتن بيلفولد ، خاله الذى صار ويلا على المتقين ، إليزا وهارييت وستبروك . . وغيرهم .

وكانت أسرة وستبروك قد عادت إلى لندن ، فتلقى شللى من هارييت رسالة أحزنته وأقلقته . فقد أراد أبوها أن يرغمها على العودة إلى « مجمع الشابات » — مدرسة مسز فننج — حيث شقيت ، لأن الطالبات لايخاطبنها ، ولا يجبن على أسئلتها ، والمعلمات يعدونها فتاة ساقطة . فهى تؤثر أن تقتل نفسها على البقاء فى هذا السجن :

[فيم العيش ؟ إنّ أحداً لا يحبنى ، وليس لى من أحبه . أيكون الانتحار جريمة من إنسان لا فائدة منه لغيره ، وهو لا يطيق نفسه ؟ ! . . وما دام ليس هناك ناموس إلهى ، فهل لناموس البشر أن يحول دون عمل طبيعى كهذا ؟]

وجزع شللى . فقد بدا له منطق تلميذته لا غبار عليه ، وهى دروسه التى كوّنت هذه التلميذة . ولكن ، أيسعه أن يجيبها بجفاء ، ويتخلى عنها للموت ؟ فقبل أن تقنط ، تستطيع أن تقاوم ، وتأبى العودة إلى المدرسة . وكتب بنفسه إلى أبيها خطاب عتاب . فاستنكر الخمّار خطابه : فيم يحشر نفسه ، ويتدخّل ، هذا الفتى الأرستقراطى ، الذى يحوم منذ ستة أشهر حول بنتيه ؟ . . وزعمت إليزا أنه سيتزوج من هارييت ، ولكن هل سمع الناس يوماً بزواج بارون من بنت صاحب حان ؟ إن هذا السيد شللى ينشد ولا شك شيئاً آخر ، يختلف كل الاختلاف عن الزواج . زد على هذا أن المستر وستبروك قد حكم عليه ، منذ ذلك المساء الذى وجده فيه بحجرة بنته ، ودعاه لتناول كأس مع

أصحابه ، فأبى واستكبر . كيف يمكن لحفيد السير بسيش شللى ، صاحب الملايين ، أن يكون صديقاً للشعب ؟ أو نصيراً للمساواة ؟ ها ! . . بالله فضّوا هذه السيرة . . فهؤلاء الناس جميعاً سواء !

وتلقت هاربيت منه أمراً بالاستعداد للسفر إلى المعهد . فكتبت خطاباً أخيراً إلى شللى ، تقترح فيه خطة دون الانتحار كرباً . فهى أشد ماتكون شقاء ، وهى مضطهدة إلى أقصى حد . . على أنها مستعدة للهرب معه إذا قبل . فأخذ لساعته عربة المسافرين إلى لندن ، فى حالة يرثى لها من التوجس وبلبلة الفكر . . فما من شك فى أن عليه التزامات نحو هذه البنيّة . فهو الذى كوّنها . ونفخ فيها من روحه ، لتكون روحها باسلة ، تأبى احتمال المظالم . وكانت رسالة منه هى السبب الأول فيما جرى عليها من الخزى . ولكن . . إذا هرب معها فكيف يعيشان ؟ وأين ؟ .. وممّ ؟.. إنه لم تكن له حرفة ، وليس أمامه مستقبل . ثم ، هل هو يحبها ؟ . . وهل فى مقدوره أن يحب ، بعد اليأس الذى أردته فيه هاربيت الأخرى . . بنت عمه ؟ . . بيد أن هاربيت هذه ، والحق يقال ، ذات حسن خلاب . . فأسكرته فكرة الرحيل بصحبة هذه الإنسانة الساحرة ، التى أثارته إذ رآها ، ذات ليلة ، مريضة ، فى فراشها ، مجللة بغدائر شعرها المتألق كالنار . . لقد كان يعز عليه ، ويصعب أن يبعد هذه الصورة اللذيذة عن خياله .

وأخيراً ، رآها ، فألفاها قد شحبت ، ونحفت ، واكتأبت :

— إذن ، فقد عذبوك كثيراً ؟

— كلا . . يا صديقى . . كلا . .

وترددت فى أن تقول . . « إنما تعذبت لأننى أحبك » . . . غير أن ذبولها ، وعينيها المتعلقتين بعينيه ، واضطرابها ، هذه كلها قد فضحتها عنده ، وباحت له . فقد كانت مجنونة به ، مشغوفة حباً . وقد حوّلها وبدّلها خلقاً آخر ، بعد ما كانت تعجب برجال السيف ، وترسم للغرام فى خيالها بطلا من ضباط الجيش ، ذوى

البذلات الحمراء ، فإذا حلمت بالزواج ، فنعت يبطل قسيس فى مسوح سوداء ! .
وجاء شللى ، فقلب هذا كله رأساً على عقب . ولما سمعته لأول مرة يعرض آراءه المتطرفة فى الدين والسياسة ، ارتاعت ، وعاهدت النفس على رده إلى الطريق المستقيم . غير أن منطق شللى قد جرفها أمامه ، بحيث تقبّلت هزيمتها ، راضية هانئة . . وها هى ذى الآن تعبد الرجل ، وتتبع المبدأ ! . .

ولما رأت هاربيت أنه لم يلحق بها خلال العطلة الصيفية ، خشيت أن تضيعه ، وكتبت إليه تغالى فى متاعبها ونوائبها ، لكى يهرع إليها . . ولم يكن شللى من المعجبين بدور « المملوك » الفارس الشارد . وخيل إليه أنه من الويل تكريس الحياة لامرأة ، إذا كانت هذه الحياة ستكرس لخدمة الإنسانية . بيد أنه ، إزاء هذا الوجه الفتان ، الذى تكفى كلمة واحدة منه لتبديد سحب الحزن المنعقدة على جبينه ، ضعف ، وقرأ على مبادئه السلام . . وأخذ بيد هاربيت قائلا إنه لها ، روحاً وقلباً ! . . وبقيت له بقية من حذر ، وإن لم يغن حذر من قدر ، فاستبعد فكرة الهرب حالا ، فلا حاجة إلى تعجل الحوادث . . ولكن لتطمئن هاربيت ، فإذا حاولوا معها تعسفاً ، أو عنفاً ، فما عليها إلا أن تدعوه ، فيلبيها ، ولو كان فى أقصى الأرض ، ويأخذها عنهم . . وعندئذ ، وعندئذ فقط ، استرد محياها طابع البِشر ولون الورد ، وعادت مرة أخرى الفتاة ذات الستة عشر ربيعاً ، وذات الحبيب . . .

* * *

وما إن غادرها ، حتى تنهد من سويداء القلب ، واستغرق فى تأملات حزينة . وكتب إلى هج يصف الموقف ، فرد عليه هذا بخطاب شديد ، يرجو فيه صديقه ألا يهرب مع هاربيت قبل الاقتران بها . وكان يعلم كراهية شللى للزواج ، فجابهه بحجج قوية :

[إذا كنت لاتتزوجها ، فمن ذا الذى يخاطر ويعانى ؟ أنت أم هى ؟ . .

هى ، عن يقين . إنما هى التى سيحتقرها الناس . إنها هى التى ستضحى بسمعتها وأمانها ، فهل من حقك أن تسألها هذا ، أو تفرضه عليها ؟]

وكان النداء مصيباً . ولم يكن شللى يشمئز من شيء اشمئزازه من الأنانية . ولكنه أحس أنه بزواجه يرتكب أمراً مشيناً ! . كانت فصول كتاب الفيلسوف جودوين « العدل السياسى » عن « السلاسل الزوجية » ، تقلقه وتعذب ضميره . فقال له يومئذ بعضهم : إن جودوين نفسه قد تزوج مرتين . . فاطمأن واستراح . وإن لم يكن متعجلا تطبيق الفكرة الجديدة . ودعاه عمه الكابتن بيلفولد إلى بلدته كسكفيلد . . فلبى الدعوة ، فرحاً بأنه هناك سيلقى المعلمة الجميلة ، ذات الوجه الرومانى « شقيقة روحه » ، التى كان يريد أن يتم « تنويرها » وتلقينها تعاليمه ! . . فوعد هارييت ثانية ، وهو مسافر ، بأن يعود إلى لندن عند أول نداء منها . .

وكان لابد للمرء من أن يكون فى سن التاسعة عشرة حتى يخالجه أقل شك فيما سوف يقع . إن فتاة متيّمة تعرف أنها مسلحة بمثل هذا الوعد ، لايمكن أن تقاوم طويلا نزعات فؤادها ، وهتافات قلبها . . فقبل أن ينقضى أسبوع واحد ، جاءت رسالة مستعجلة تدعو شللى إلى لندن ، فإن الطغاة يريدون من جديد تسليم الملك الكريم إلى الشيطان المدرسى الرجيم ! . . فرأى شللى أن الداء لا دواء له ، فعرض عليها : الفرار ، ثم القران . .

وفى اليوم التالى ، حملت عربة المسافرين إلى إدنبره ، عاصمة أسكتلنده ، هذين الطفلين ، اللذين لا يتجاوز مجموع عمرهما معاً خمسة وثلاثين عاماً . . .

وكان « المملوك » الفارس يبرر لنفسه عمله بأنه « وليد الإرادة لا الهيام » . . وأنه جاء « اختياراً ، لا اضطراراً » . . بينما تهتز المركبة ، صاعدة هابطة ، وهو جالس إزاء ذلك المحيّا الجميل ، محيا حبيبته ، وخطيبته ، التى خلقها الله فسواها ، ثم ماشاء صورها ، فى أحسن تقويم .

٩ ـ زوجان طفلان

زوجان عاشقان حدثان ، جميلان ومضطهدان ، يؤثران فى النفوس ، ويستميلان القلوب ، إلى حد لا يكاد يقاوم . فلم يسع أهل إدنبره ، المعروفين بأنهم ليسوا من أهل العواطف فيما يمس جيوبهم أو يلمس نقودهم ، إلا الترحيب ، بسماحة فكهة ، بهذين الزوجين الصبيين ، اللذين وصلا إلى أبواب مدينتهم فى بؤس مشرق ! . . وكان شللى قد اقترض ، قبيل مغادرة لندن ، بضعة جنيهات من صديق ، لم يبق منها عند الوصول إلى إدنبره بنس واحد . وكان عبثاً أن يرجو مساعدة ، كائنة ما كانت ، من أبيه المستر تيموثى ، الذى جعله خبر فرار ولده فى حالة جنون مستعر .

ومع ذلك فقد وجد مالكا ظريفاً روى له قصته ، فكانت حكاية هذه المغامرة ، مع آية جمال هارييت ، مع الوعد بالدفع السريع ، مما حمله على تأجير دور أرضى بديع . . بل إنه فعل ما هو خير من ذلك ، فأقرضهما المبلغ الضرورى للطعام خلال بضعة أيام ، وللاحتفال بعقد قرانهما طبقاً للطقوس الكنسية الأسكتلندية البسيطة . وكان شرطه الوحيد : أن يقبل شللى وزوجته ، فى ليلة زفافهما ، دعوته إياهما للعشاء معه وأصحابه .

وعلى ذلك ، احتفل حفيد السير بسيش شللى بليلة عرسه ، فى وسط تجار إدنبره . . وعملت نشوة الخمور ، ومحاسن هذين الزوجين الشابين ، فى رؤوس الضيوف ، أولئك الأتقياء الشرفاء ، بحيث صار عبثهم ومجونهم مما لا يطيقه ذوق شللى . . وتطورت الدعابات إلى سفاهات . وزاد احمرار وجه هارييت الحسناء ، المتواضعة . . فأعلن شللى رغبته فى الانصراف مع زوجته . فجاء الرد منهم قهقهة عالية . .

وبعد فترة قصيرة ، قرعوا باب غرفتهما . ففتح شللى . ورأى ، مضيفهما ،

صاحب البيت ، ووراءه أصحابه جميعاً . . وقال صاحب البيت مترنحا :
ــ إن العادة عندنا جرت بأن يصعد المدعوون ليلة الزفاف ، فى منتصف الليل ، ويحمّوا العروس بالويسكى . . .

فصاح شللى مسدداً بيديه مسدسيه :

ــ إنى ألهب بالرصاص دماغ أول من يتجاسر على دخول هذه الحجرة !

وكان صوته يرتجف ، وعيناه تبرقان كما كانتا تبرقان فى كلية أيتون . فرأى تجار إدنبره أن هذا الفتى ، الذى له رأس فتاة ، أشد خطراً مما يبدو ، وأقوى مراساً مما كانوا يزعمون . . فانحنوا له ، وتمنوا ليلة طيبة ، وتسابقوا فى النزول . .

* * *

وهكذا رأى شللى وهارييت نفسيهما : متزوجين ، حرّين ، وحيدين ، فى مدينة كبيرة مجهولة . . فتبادلا نظرات الانعطاف ، وقد استخفّهما الفرح . .

إن بضعة أيام قد كفت هذا الزوج الشاب ، الذى كان يفكر ، فى عربة المسافرين ، مهموماً ، بأن عمله « وليد الإرادة لا الهيام » . . كفته ليذوب جوى وصبابة ! . . وكانت هارييت فعلا آية الناظرين : دائمة الحسن ، دائمة النضارة ، والحيوية ، شعرها دائمـاً منسق ، ممشط ، منظم ، بغير خصلة واحدة مجنونة طائرة.. فهى بهذا كله أشبه ما تكون بزهرة بيضاء وردية ، مستوية على غصنها ، أو ملكة مستوية على عرشها . . وكانت ثيابها بسيطة جداً ، ولكنها دائماً نظيفة أنيقة . وهى وإن لم تكن مثقفة حقاً ، فقد كانت مهذبة جداً . ولا سيما أنها قرأت عدداً هائلا من الكتب . وكانت تقرأ طول النهار ، وتفضل الكتب الأخلاقية . وقد بعث فيها أستاذها وحبيبها روح الفضيلة والعفاف . . وكان « تلماك » ، فى قصة « فنلون » المشهورة ، هو بطله الأثير عنده ، فصار بطلها .

والأطفال مخلوقات لذيذة ، لكن صحبتهم متعبة . لذلك كان شـللى ، رغم تقديره كل هذا اللطف والرقة والتفانى ، يأسف على محادثات صـاحبه هج ،

ومس هتشنر ، معلمة القرية ، « شقيقة روحه » ، ويتساءل فى قلق عما تظن هذه فى زواجه ، فكتب إليها :

[يا أعز صديقة ، أيمكننى أن أظل أدعوك هكذا ؟ أم أننى فقدت بسلوكى المبهم تقدير الحكماء والفضلاء ؟ . . لشد ما تغيرت كل مشروعاتى فى أسبوع واحد ! . . ولشد ما نحن عبيد أرقاء للظروف ! . . ولعلك تتساءلين كيف لى ، أنا الملحد ، أن أرضخ لطقوس الزواج ، وكيف خضع لذلك ضميرى ؟ . .]

ثم جرى على نهج صاحبه هج ، فى الكلام عن السمعة الحسنة ، والمزايا المرتبطة بها ، بما لا يخول لامرىء أن يحرم منها مخلوقاً يحبه . .

[لك على الملامة ، إذا شئت ، يا أعز صديقة ، لأنك ما زلت عندى أعزهن جميعاً ! . . وإذا لم تكن هاربيت ، وهى فى السادسة عشرة ، ما أنت عليه فى سنك المتقدمة عنها ، فساعدينى على تكوين تلك النفس النبيلة حقاً ، والجديرة بعنايتك ورعايتك ...]

وختم الخطاب بدعوتها للحاق بهما ، والعيش معهما فى إدنبره ، حيث صار وجود هاربيت حائلا دون أية مظنة . فلم تقبل مس هتشنر الدعوة . وربما كان نداؤه الشعرى المحبب لها : « يا أعز صديقة » غير كاف لمحو العبارة المنحوسة الخاصة بالأعمار : « السادسة عشرة » ... « السن المتقدمة عنها » . . .

وإذا كانت المعلمة العذراء لم تحضر لتساهم فى تكوين نفسية هاربيت ، فقد رأى شللى ، ذات صباح ، صديقه هج ، مقبلا حاملا فى يده كيس ثيابه ، وقد حصل على بضعة أسابيع إجازة ، جاء يقضيها فى إدنبره .

واستُقبل هج استقبال الفاتحين . وصاح شللى :

ــ لقد التقينا أخيراً مرة أخرى ، ولن نفترق بعد أبداً ! . ولا بد من إعداد سرير لك فى البيت .

ودخلت هاربيت . فبهت هج من جمالها . فهو لم ير قط امرأة مشرقة

بالشباب والهناءة والحسن مثلها . ودعوا المالك قهراً : « لابد لنا من سرير ! . . . حالا ! . سريعاً ! . للتوّ والساعة ! . . » . . ولما سمحوا للرجل بأن يجيب قدم إليهم غرفة فى الدور الأعلى .

وكان لدى الأصدقاء الثلاثة ألوف الأشياء يتذاكرونها ، وألوف الأسئلة يلقونها . فتكلموا جميعاً ، فى نفس واحد ! . . فى حين جاءت الخادم بالشاى بين صيحات الفرح . . ولما هدأ المرح قليلا ، اقترح شللى الخروج للتنزه وزيارة قصر مارى ستيوارت . وهنا تجلت مواهب هاربيت ـ التلميذة النجيبة فى « مجمع الشابات » ، والقارئة المطلعة على قصص التاريخ ـ فراحت تفسر ألوف الأشياء الممتعة . ولما خرجوا ، اعتذر شللى بأن لديه خطابات يكتبها ، ورجا هاربيت أن تصحب هج فى الصعود إلى الأكمة المشرفة على المدينة كلها . . وأعجب هج بالمشهد كثيراً . . وظلا طويلا جالسين على القمة . ولعل دليل هج قد راقه ، بحيث راقت النزهة أيضاً ! . .

وفى نزولها ، لاحظت هاربيت : أن الهواء الشديد يرفع ذيل ثوبها ، وأن هج ينظر خلسة ، باهتمام ، إلى كاحليها ، ومفصل ساقيها . . . فعادت ، وجلست على الصخرة ، وأعلنت أنها ستبقى حيث هى ، إلى ماشاء الله ، أو تسكن الريح !. وكان هج يتضور جوعاً ، فاحتج بلا جدوى . . فمضى وحده ، وتركها . . . وبعد ذلك تبعته تجرى من خلفه . . .

وهكذا بدأت للشباب الثلاثة أسابيع عيش لذيذ . لم تكن تنغصه إلا مشكلة النقود ، التى تزداد تحرجاً . غير أن الخال الشهم ، الكابتن بيلفولد ، قد بعث بهدايا عديدة ، قائلا : « أن يغضب الوالد على ولده شىء ، وأن يميته جوعاً شىء آخر » . . وكان مع هج قليل مال أدّى بعض العون .

وكان شللى يخرج كل صباح لتسلم بريده الضخم ، ويقضى ما بعد الفطور فى الكتابة ، أو ترجمة العالم الفرنسى « بوفون » مؤلف « التاريخ الطبيعى » ،

الذى كان قد بدأ فى نقله إلى الإنجليزية . وتذهب هاربيت وهج للتنزه . فإذا ساء الجو جلست تقرأ له ، لأنها كانت تحب كثيراً المطالعة بصوت عال ، وتحسنها الإحسان كله . وهكذا استمع هج إلى الجزء الأكبر من قصة « تلماك » الطاهرة ، دون شكوى ، أو سآمة . فمع كون القصة مضجرة فعلا ، فإن القارئة كانت فاتنة تغرى بالاستماع لها أياماً طوالا . . وأما شللى فقد كان دون ذلك أدباً ، ينام أحياناً راضياً منهما بالزجر أو الجفاء . . ينضم صاحبه إلى زوجته فى ذلك الملام ، شاعراً بلذة خفية فى أن يقف وهاربيت فى صف واحد ! . .

وكنا فى عام ١٨١١ ، عام المذنّب (النجم ذى الذيل) المشهور ، وعام النبيذ الفاخر ، وعام الليالى المشرقة بالصحو والصفاء . .

١٠ — كيف كان هجْ ؟

لما انقضت إجازة الستة الأسابيع ، وآن لـ « هج » أن يعود إلى مكتب المحاماة بمدينة يورك ، قرر شللى وهاربيت أن يصحباه ، إذ ليس ثمة مايربطهما بإدنبره ، ولا بأى مكان سواها فى العالم ، فسافرا معه ، على أن يبقيا وإياه فى يورك ، أصدقاء لايفترقون ، خلال بضعة الأشهر الباقية على مدة تمرينه ، ثم يذهب ثلاثتهم إلى لندن ، ليقضوا بقية أيامهم : يقرأون ، ويكتبون ، ويطالعون .

وكان لقاء شللى لمدينة يورك ، مخيباً للأمل . فقد وجدها بلدة كئيبة ، غرفها حقيرة ، فكرهها . . وقال : « إنا لانستطيع البقاء هنا » . ولكن لابد للرحيل من المال ، فرأى أن يقصد خاله الشهم الكابتن بيلفولد ، ومن عنده يزور مس هتشنر ، المعلمة ، « شقيقة روحه » . . فلعلها تقبل الحضور معه إلى يورك .. ثم يمر بلندن ، ويأتى معه بإليزا ، التى اشتاقت إليها هاربيت . فسافر . وبقيت هاربيت وهج وحدهما . فكان مركزاً غريباً لذيذاً معاً . فهما فى هذه المدينة ،

التى لايعرفان فيها أحداً ، طليقان كما لو كانا فى جزيرة مقطوعة عن العمران . وأحست هارييت بمسرة الطفلة ، إذ أصبحت « ربة بيت » هذا الرفيق الشاب المرح . فإن هج ، بلهجته اللاذعة الساخرة ، يدخل على فؤادها ألواناً من البهجة ، تستروح فيها من وقار شللى ورزانته ، على شدة إعجابها بهذه الرزانة . وكان هج قد أثنى عليها خلال رحلتهم من إدنبره ، ألف مرة ، والغوانى يغرهن الثناء . . وكان شللى نحواً من « أستاذ » لها ، علمها ما لم تكن تعلم ، وكان يصحح أخطاءها ، ويعرف من صفاتها ما لها وما عليها . أما هج فعلى الضد من ذلك كان معجباً بكل مافيها . كان يلحظ ثيابها ، وبزتها ، وزينة شعرها . وكان يصغى إلى قصة « تليماك » المملة (التى ينفد صبر شللى من طول الإصغاء لها) ، وهى تطالعها ، ويثنى على صوتها ! . . وكان دائماً مرحاً ، باسم الثغر .

أما حالته النفسية فكانت تختلف عن هذا جد الاختلاف ، ولا تنطوى على نقاء خالص . . أن يعيش كل يوم إلى جانب هذه البنت الفاتنة ، التى يتركها شللى له وحده عن طيبة خاطر ، والتى ربما كانت أسرتها ، وهى أسرة خمّار ، لم تربها على ملاحظة ضروب التحفظ والتحرّز . . أن يعيش هكذا معها ، قد بعث فيه رغبة جامحة فى تمنيها بكل قواه . وقد بدأ بأن قال لنفسه : « إن هذه فكرة سوء شنيعة ، وإن زوج صديق يحبه كل هذا الحب لايجوز أن تكون طريدة له . . يلاحقها برغبته » . .

ولكن الذكاء مدّع طلق اللسان ، يرفع الحجة ، ويقيم البرهان . وكان هج حاد الذكاء . فتطوع ذكاؤه لخدمة غرائزه . وقال لنفسه : « هل الذنب ذنبى ، إذا كان شللى يلقى بها فى أحضانى ؟ أيمكن أن يتصور المرء منه كيف يقضى أيامه ولياليه فى كتابة رسائل عن الفضيلة وفى بيته مثل هذه الدرّة اليتيمة ؟ . . إنها امرأة آية ، ومعجزة فى الغاية ، وفلتة فى الحسن من فلتات الطبيعة ! . ألم تركيف يتهافت أشد الناس تقوى على رؤيتها مارة فى شوارع يورك ، ويتزاحمون

على النوافذ ؟ . . . ثم ، هل يحبها شللى ؟ . . . إنه يعاملها كمن يبسط عليها ظل حمايته الحنون ، وإن كان يفعل ذلك فى شىء من الاحتقار . . وله فى هذا بعض العذر . . فمن هى هارييت هذه ؟ . . أليست بنت خمّـار ؟ . . فليست هى التى تردّ يد لامس . . . »

وفى أول يوم لغياب شللى ، خرج هج من مكتبه ، فأخذ هارييت ليتنزها على شاطىء النهر . وطفق يحدق فيها ، مفتوناً بها ، ويقول لها ألوف الحماقات . فراحت تتكلم عن زوجها ، الذى تنتظر عودته بفارغ الصبر ، لأنها تريد أولا أن تراه ، وتعلم ثانياً أنه سيحمل إليها شقيقتها العزيزة إليزا :

ـــ سوف ترى إليزا . . إنها جميلة جداً . ولها شعر أسود فاحم يتوجها . وهى حادة الذكاء . . وهى التى هدتنى فى الظروف الخطيرة التى مرت بى ، وهيأت لى من أمرى رشدا . .

ـــ أمرّت بك إذن ، أيتها البنت الصغيرة ، ظروف خطيرة ؟ . .

فروت له هارييت متاعبها فى المدرسة ، ثم عقبات زواجها . . وظلت فترة منحنية بفكرها على الماضى . . ثم سألته :

ـــ ما رأيك فى الانتحار ؟ . . ألم تفكر قط فى قتل نفسك ؟ . .

ـــ كلا ، مطلقاً ! . . وأرجو ألا تكونى أيضاً قد فكرت . .

ـــ أنا ؟ . . بلى ، قد فكرت ، وفكرت كثيراً . . حتى فى المدرسة ، كنت أقوم فى الليل معتزمة أن أنتحر . . فأنظر من النافذة . . وأودّع القمر ، والنجوم ، وزميلاتى التلميذات النائمات . . ثم أعود إلى فراشى ، ويأخذنى النوم . . .

ويمضيان فى نزهتهما ، متبادلين الاعترافات . . ثم يعودان إلى البيت ، يعدان الشاى ، وهج لايفتأ يمزح ويلعب . . ثم تقترح هارييت أن تطالع له . ولكنه لم يدرك مما قرأته فى تلك الليلة حرفاً . . حتى قالت له : « مساء الخير ! . . » ودخلت غرفتها . . فتساءل فى نفسه : « أيمكن أن تكون طيبة ؟ . » . .

وفى اليوم التالى ، لم يكد يراها حتى قال لها إنه يحبها حب جنون مستعر ! . . فاضطربت هارييت ، وسخطت . ودافعت عن نفسها ، هى الصبية ذات الستة عشر ربيعاً ، دفاعاً لا بأس به . وذكرت شللى ، وتحدثت عن الفضيلة :

ــ أفلا ترى شناعة مسلكك ؟ . . أيعهد پرسى إليك حمايتى ، فتخون ثقته ؟ . . ولكننى مطمئنة إلى أنك قد شفيت لساعتك ! . . وأتوسل إليك ألا تشير بعد الآن إلى هذا كله بكلمة . . . ومن جانبى ، لن أحزن شللى ـ القوى الإيمان بك ـ فسألزم الصمت ، وأضرب عما كان صفحاً .

وكانت تتكلم بحرارة . واعترافات الهوى ومشاهده هى معارك المرأة الجميلة . والجندى الجرىء لا يكره القتال . وانتصرت هارييت الباسلة . . ووعد هج بأن يكون عاقلا .

ولما عاد مساء من مكتبه ، رأى إلى جانب هارييت ، على الديوان ، امرأة كبيرة ، ذات شعر أسود ، بلون الغراب الأسحم . . فقالت له هارييت :

ــ هج . . هذه إليزا . . . وقد جاءت . . أليس ذلك ظرفاً منها ؟ . . وهذا هو هج ، يا إليزا ، صديقنا الحميم ، الذى كثيراً ما حدثك عنه شللى . .

فحنت إليزا رأسها بجفاء . . فقال هج :

ــ لكن ، أظنك ستعودين مع شللى . .

فقالت إليزا :

ــ لا ! ياسبحان الله ! . .

ثم مضت فى حديثها مع هارييت ، دون أن تعيره التفاتاً . .

ولم يكن هج معتاداً مثل هذه المعاملة فى هذا البيت . فقال لنفسه : « أهذه هى إليزا ؟ . . إنها بشعة ، تافهة الشكل . ها هى ذى خلوتى بهارييت قد نغصت ، وهذه هى نهاية غزلى ! . . ولعل هذا خير . . ولكن كذلك ما أفظعه ! . . » .

وصاح قائلا :

ـــ ياحبيبتى هاربيت ، أفلا نتناول اليوم الشاى ؟ . .

ثم التفت نحو إليزا ، وقال بأدب :

ـــ أفلا تشربين الشاى يا مس وستبروك ؟ . .

ـــ لا ! . . يا سبحان الله ! . .

ـــ وأنت ياهاربيت ؟

ـــ ولا أنا ! . .

فاضطر إلى إعداد الشاى لنفسه بيده . . وشربه وحده صامتاً . . ومنذئذ صار جو هذا البيت عنده لايحتمل . فقد تولت الأمر فيه إليزا ، أو بالأحرى استأنفته ، لأنها هى التى ربّت هاربيت فى صغرها ، وقد تخلت عن ذلك أثناء بضعة الأسابيع الأولى للزواج ، وعادت الآن فاحتلت مكانها فيه ، تقوده كما يقود القبطان باخرته ، يرفع على ساريتها علمه ، ولا يسمح على ظهرها بسيد سواه . .

وبدأت إليزا عملها بانتقاد سلوك شللى نقداً مرّاً :

ـــ إذن ، فلو أننى لم أصل ، لتركك شللى هكذا وحدك مع رجل شاب ؟ . . إن هذا لا يليق . . . وهذا الشاب يناديك : بـ « ياحبيبتى هاربيت » ؟ . . . وأنت تسمحين له به ؟ . . يا لرحمة السماء ! . . . ماذا كانت تقول فينا « مس ڤارن » ؟ !.

وانتهز هج فرصة وجود إليزا المروعة مرة فى غرفتها ، فسأل هاربيت همساً :

ـــ من تكون هذه الشيطانة التى تدعى « مس ڤارن » . .

ـــ إنها صديقة إليزا الكبرى . . ونحن نحرص كثيراً على مراعاة رأيها .

ـــ ولماذا ؟ . . أهى سيدة رفيعة المنبت ؟ أهى عالية التربية ؟ . .

ـــ مس ڤارن ؟. لا ، لا ! . . إنها بنت صاحب حان ، مثلنا ، سواء بسواء !

فتنهد هج ، ورفع عينيه نحو السماء :

ـــ وماذا تفعل إليزا فى حجرتها ؟ . . هل هى تقرأ ؟ . .

ـــ كلا . . إنها تمشط شعرها ! . .

— إذن ، فهيا نخرج ، يا هارييت . .

فبدأت بالرفض . . ولكن لما طال مشط الشعر ، رضيت برفقة هج لبضع دقائق . وكان منذ محاولته الأولى قد احترم وعده بأن يكون عاقلا ، وقد فرحت بذلك وخاب أملها معاً ! . . كانت واثقة من قدرتها على الذود عن عفتها ، ولم تكن تكره الإغراء لتبرهن على ذلك ! . . . فوقف هج على الكوبرى ، والنهر من تحته يجرى ، ويغلى ، ويكتسح كل ما فى طريقه من أوشاب . . .

— هارييت ، يا حبيبتى ، أفلا ترين أن إليزا تحسن عملا لو انطوت فى مياه النهر المتدفقة ، فتجذبها دوّاماته من شعرها ، فتدور ، ثم تدور ، كهذه القطعة من الخشب ! . . آه ! ياسبحان الله ! . . ماذا كانت تقول مس ڤارن ؟ . .

فأدارت هارييت رأسها ، وانفجرت ضاحكة . . إن هج كان وقحاً ، ولكنه لذيذ الدعابة حقاً . .

— ما أرق ضحكتك ! . . إنها ضحكة موسيقية ، شجية ، تشرح الصدر . . أيتها العزيزة هارييت ! . .

فأحست هارييت الباسلة أن الحرب على الأبواب ! . .

١١ — ثم كيف كان هجْ ؟ . . .

فى اليوم التالى ، عاد شللى قبلما يتوقعون . وهو لم يوفق فى شىء . فقد رفض أبوه أن يراه ، إذ عد زواجه جرماً لايغتفر . وقال لبيلفولد : « لكنت أوثر أن أدفع نفقة أولاده غير الشرعيين . . . أما أن يتزوج ! . . فلا تذكره لى بعد الآن بخير ولا شر ! . . »

وخشيت المعلمة مس هتشنر على سمعتها ، فرفضت صحبة شللى إلى يورك . ولما مر بلندن عرف أن إليزا لم تنتظره . فرجع متعباً ، مضنى ، منكسر الفؤاد ، مؤملا أن يجد عزاء فى صحبة زوجه وصديقه . فلم يجد إلا جوّاً مثقلا بالضيق

والحرج . . إليزا مغلقة على نفسها حجرتها ، تمشط شعرها ، طوال نهارها .
وهج وهاريت ، بدلا من أن يمزحا ويتجادلا حول أداة الشاى ضاحكين بصوت عال ، كانا يتباعدان عن بعضهما تباعداً ظاهراً فيه الفتور والنفور . . فإذا ما خاطب هج هاريت ردت عليه بلهجة جافة مختصرة مبهمة . . فقال شللى ، بمجرد انفراده بهاريت :

ـــ إنى لا أحب منك ، ياعزيزتى ، مظهر الكبر الذى تتخذينه إزاء هج . . فهو خير صديق لى . وقد جاء ليرعاك فى غيابى . وإذا كانت أختك اليوم عندك ، فلا تجعلى هذا سبباً فى التنكر لرجل أعده أخاً . . .

فتنهدت هاريت . وقالت بلهجة مفعمة بالغمز واللمز :

ـــ ياله من صديق بديع ! . .

فدهش شللى ، وتعجلها التفسير . . فروت له :

ـــ إنه باح لى مرتين . . فقال لى أول مرة إنه يحبنى حباً جنونياً . . . فحاولت أن أمزح . . . وحملته على السكوت . . وزعمت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد ، ولم يكن فى نيتى أن أخبرك به . . . ولكنه أمس بدأ ثانية ، فأعلن إلىّ أنه لا يستطيع العيش من دونى ، وأنه سيقتل نفسه إذا لم أستسلم له . .

فشعر شللى بدمه يجمد فى عروقه . وكأن قلبه قد كف عن الخفقان :

ـــ هج ؟ ! . هج فعل هذا ؟ ! . ولكن ، أو لم تلفتيه إلى . . .

ـــ بلى ! . . لقد قلت له كل ما يمكن قوله . . من أنه يخون عهد الصداقة . . وأنه يغتال ثقتك فيه . . فأجابنى : « وما شأن هذا كله عندما نحب ؟ . . إنه مما يناسب شللى ، ذى الروح البارد الجامد ، أن يحاضر فى الفضيلة . . أما أنا فأحبك . . وكل ما بقى نافلة لا يعتدّ بها . . ثم أى ضر يحيق بشللى ؟ . . وفيم نسىء إليه ، ما دام سيظل جاهلا بعلاقتنا ؟ . . فلماذا لا تعدينى بحبك ، إذا ظللت محتفظة له بعطفك ؟ . . وهل هو يعنى كثيراً بك ، أو يفكر فيك ؟ . . . »

ــ أقال لك ذلك ؟ . .

ــ أجل ، وأكثر منه . . أشياء وأشياء . . قال إنك تخلط القول حيث يبتغى الفعل ، وإنك متحمس للخزعبلات والأوهام ، أو إذا شئت شعلة أفكار ، ولكنك جلمود ثلج إزاء العواطف ، وليس لغير العواطف وزن فى حياة الإنسان . . فأجبت جاهدة ما استطعت إلى الجواب سبيلا . .

نخرّ شللى على الديوان مرتعشاً ، وبدت له الدنيا غبراء متشحة بنقب سوداء . ودارت به الأرض . . ثم سقطت من عينه الدنيا . . . « أما أن هج قد حاول غواية زوجتى ، وأن يختار لهذا ، اللحظة التى أعهد فيها إليه رعايتها . . . وهو الذى كان قلبي لايفيض إلا بمحبته . . فإن أحداً لم يسمع بأشد من هذا فسقا . . ومع ذلك كان مسلكه فى أكسفورد نبيلا ، مثالياً فى الإيثار . . فلا بد لى من محادثته ، حتى يرى الغى من الرشد . . . »

وقبّل هاربيت قبلة طويلة . . ثم سأل هج أن يتبعه إلى خارج المدينة . . وكان هج يتوقع هذا الموقف . واستعد له . فلم ينكر شيئاً :

ــ نعم . . هذا صحيح . . وقد أحببت هاربيت منذ أول يوم رأيتها فيه بإدنبره . . فهل هذا ذنبى ؟ إننى هكذا خلقت ، لاأستطيع مقاومة جمال النساء . . وهاربيت رائعة الجمال . . أقول وأكرر أننى وقعت فى شراك حبها لأول وهلة . .

ــ ليس هذا هو الحب ، ولكنه الاشتهاء . وهو غريزة وضيعة . وليس هو تلك العاطفة الشريفة ، التى تفرق الإنسان عن الحيوان . . الحب ؟ . . فكر يا هج ! . إن الحب يفرض نسيان الذات ، والبحث عن هناء المحبوب . . وأنت لاتستطيع إلا أن تشقى هاربيت . . . فشعورك إذن ليس حباً . . بل أنانية . . .

ــ سمّه ما شئت . . إن هى إلا أسماء . . بل هو عاطفة مروعة فى جموحها ، وبودى لو قاومته ، لولا أننى وجدته لايقهر .

ــ ما من عاطفة إلا ويمكن قهرها ، وكبح جماحها . والإرادة كفيلة

بالظفر بها ، والتغلب عليها . . . لوأنك فكرت فيّ . . . ثق أن ماتكشّف لى قد زاد فى سنى ، ونال منى ما لا تناله عشرون سنة فى شقاء . . . لقد جفّ قلبي . . ثم هناك المسكينة هارييت . . أفلا ترى مدى ما فى هذا كله من إيلام لها ؟ . . .

وكان هج شاحباً ، منكسراً . . وبدت عليه علائم العار والشنار . وكان فعلا شقياً . فهو أيضاً قد أحب شللى ، وحاسب نفسه حساباً عسيراً ، قائلا لنفسه : « ما من امرأة تساوى التضحية بمثل هذا الصديق . . . » . . ثم رقق من صوته :

ــ إنى آسف لما حدث يا شللى . سأحاول النسيان . وأريد منك ومن هارييت أن تصفحا عنى . ولنبدأ الحياة من جديد ، كما كنا من قبل . فلا تحمل بعد ضغناً . .

ــ إننى لا أحمل لك ضغناً ولا حقداً . إنى أمقت خطيئتك ، لا شخصك . وأرجو أن يجيء حين من الدهر تنظر فيه إلى ذنبك الشنيع بمثل ما أنظر إليه من الاشمئزاز . وعند ما يحين ذلك الحين ، تكون الكفّارة . فالشعور بالندم يمحو الذنوب . . .

وشعر شللى بالراحة ، إذ كبح هكذا جماح غضبته وغيرته ، وإذ كشف لصاحبه عن طريق الخلاص ، وإذ كاد هو ينسى الاعتداء . .

غير أن النساء دون ذلك تسامحاً . فعندما عاد شللى ، وأعلن غفرانه للأثيم ، صاحت إليزا :

ــ ماذا ؟ . . أتزعم الاستمرار فى معاشرة هذا الرجل ؟ . . يا للسماء الرحيمة ! . . وماذا يكون من أمر أعصاب هارييت المسكينة ؟ . .

وفى اليوم التالى ، عند ما عاد هج من مكتبه ، وجد البيت خالياً ، ينعى من بناه . . .

١٢ — ويانفس جِدّى . . !

عند ما هرب شللى والفتاتان ، من هج المنكود ، قرروا الذهاب إلى أقليم البحيرات . حيث كان يعيش شعراء أفذاذ ، أمثال : « ساوثى Southey » ، و « كولريدچ Coleridge » . واستأجروا كوخاً خلوياً فى حضن الزهور . ودهش ساعى البلد من ضخامة بريد شللى . . فهناك مراسلات هج تدعو إلى اليأس منه ، فقد كتب إلى هارييت رسائل طويلة ، أقسم لها فيها على احترامها ، وعبادتها إلى الأبد ، فى وقت واحد ! . . وضاقت هارييت ذرعاً بهذا الحب المقيم ، وإن غذّى كبرياءها . وعند ما قال شللى : « إن هج سوف ينسى مع الزمن والبعاد » . . هزت رأسها علامة التشكك : « إن البعاد يخمد العواطف الصغيرة ، ولكنه يلهب المشاعر الكبيرة » . . وعند ما كتب هج : [إما أن أحظى بغفران هارييت ، أو ألهب دماغى بالرصاص تحت قدميها] . . انتصرت ، وحزنت . . ولما لم تنطلق رصاصة تزعج وحدتها المزهرة ، عادت فاطمأنت . . . وخاب أملها ! . .

ثم رسائل المعلمة مس هتشنر « شقيقة الروح » التى أصبحت ـ بعد سقوط هج ـ النجيّة الوحيدة ، وموضع السر . . . تسافر إليها منه كل يوم تقريباً صفحات رقيقة ، تضفى عليها هارييت دعوتها إياها للحاق بهما . .

وكان الدوق دى نورفولك يسكن على مقربة منهما . وهو الذى وفّق أول مرة بين شللى وأبيه ، وأصلح ذات بينهما . . أما ومسألة النقود تزداد كل يوم تحرجاً ، فقد قررا الكتابة إليه . فتفضل بدعوة : شللى ، وزوجته ، وأخت زوجته ، لقضاء « آخر الأسبوع » فى قصره . وكان شديد الحدب على شللى ، وربما كان ذلك لما لاح له فيه من خير ، أو لأنه رأى من واجبه ، كزعيم حزب سياسى ، أن يكفل صداقة شاب ، ينتظر ، إذا ما بلغ السن القانونية ، أن يدخل

البرلمان ، ويرث ستة آلاف جنيه دخلا سنوياً . وأحدثت هارييت فى أهل القصر أثراً طيباً . وراقت فى عينى الدوقة التى سمعت بحكاية زواجها الغريبة ، وارتاحت إلى حسنها وثقافتها . حتى إليزا قد لقيت عندهم قبولا . وأتت الزيارة بأحسن النتائج . فإن المستر وستبروك عند ما علم بأن بنتيه قد قضتا بضعة أيام فى قصر دوق عظيم ، وأن زوج بنته قد وصل إلى ذلك القصر ، وليس فى جيبه إلا جنيه واحد ، أحس فجأة بنفحة كرم تغمره ، فرضخ للزوجين الشابين عن مئتين من الجنيهات معاشاً سنوياً ! . . ولم يستطع المستر تيموثى أن يبدو أشد منه بخلا ، ولا سيما أن رئيس حزبه سأله أن يكون شفيقاً . . فقرر هو أيضاً أن يعيد إليه المئتين من الجنيهات فى السنة . . . وبذلك انكشفت عنهما غمة البؤس ومخافة الفقر . . .

ولكن كان أهم ما فى الأمر عند شللى : أنه حصل على هذه النتيجة المرضية ، دون أن يتنزل عن شيء من جانبه ، فكتب إلى والده :

[أرى من واجبى أن أقول لك ، مهما كانت المزايا التى أنالها من جراء ذلك ، إنه لا يمكننى الوعد بإخفاء آرائى فى الشؤون الدينية أو السياسية . . فمثل هذا النمط يكون غير جدير بك ، وغير خليق بى] . .

فرد عليه أبوه :

[إذا كنت قد قررت لك هذا المعاش ، فما ذلك إلا لكي أحول بينك وبين سلب الغرباء أموالهم ! . .] . .

* * *

ولقى شللى ، فى قصر الدوق دى نورفولك ، صديقاً للشاعر ساوثى ، وعده بأن يقدمه إليه . وهكذا سيرى شللى بعينى رأسه كاتباً يعجب به ويحبه . وقد أدهش ساوثى صاحبنا شللى الذى كان يربط فكرة الشعر بالحياة المجنّحة المحلقة فى السمٰوات العُلى ! . . فرأى الرجل يعيش فى بيت جميل ينبعث

منه الدفء . غير أن زوجته أشبه بربة بيت مدبّرة طاهية منها بالملهمة ! . . كانت من قبل خيّاطة ، وهى لذلك تجلد كتب زوجها بالقماش ! . . وكانت دواليب بياضاتها هى محراب نبوغها . . وتتكلم عن : النقود ، والطهى ، والخدم ، كأسخف الزوجات ! . . أما الشاعر فكان من رأيه : أنه لا بد للمجتمع من التحول ، ولكن لا يمكن أن يجىء التحول طفرة ، بل تطوراً بطيئاً . . فخرج شللى من عنده غضبان أسفاً .

ولم يكن ساوثى ليشك فى الأثر السيىء الذى أحدثه فى نفسية شللى . ففكر فيه ، قائلا لنفسه ، بعد انصراف زائره : « ياله من ولد غريب . . إن أشد همومه راجع لمعرفته أنه وريث أملاك هائلة ، وهو جزع قلق من دخل ستة آلاف جنيه فى السنة ، كما كنت فى سنه جزعاً قلقاً من أننى لا أملك بنساً واحداً . . . أما ما خلا ذلك فهو يكاد يكون طيفى . يزعم نفسه ملحداً . وما هو بملحد . إن هو إلا مرض من أمراض الشباب أصابنا جميعاً ، ومر بنا . . . وخيراً فعل بمجيئه عندى ، أنا الطبيب المداوى . . وقد وضعت له علاجاً بمطالعة فلسفة « بركلى Berkeley » التى ستهديه على رغمه ، من حيث يدرى ولا يدرى . . والله يعيننا على جعل هذا السيد ، الفتى ، شللى ، يدرك أنه يستطيع ، بجنيهاته الستة الآلاف ، ضروباً عدة من الخير والبر » . .

وهكذا التقت الفتوة اليافعة ، بالسن الناضجة . وكانت الثانية تقول للأولى : « ويا نفس جِدّى إن دهرك هازل ! . . »

وبذل ساوثى وزوجه كل ما فى وسعهما لمعاونة الزوجين الشابين . وحمل ساوثى ، بما له من مكانة ، صاحب البيت على تخفيض قيمة الإيجار . وأعطت مسز ساوثى لهارييت نصائح ثمينة فى الطهى وغسل الملابس . وأعارتها بياضات للفراش والمائدة . غير أن شللى لم يلبث أن اكتشف أمراً شلّ تقدم السن الناضجة نحو الفتوّة اليافعة . ذلك أنه وجد ، صدفة ، فى إحدى المجلات ، مقالا

بقلم الشاعر ساوثى ، يصف فيه الملك جورج الثالث بأنه : « خير الملوك الذين استووا أبداً على عرش » . . وكان ذلك بداهة تملقاً مبتذلا رخيصاً ، ولكن ساوثى كان يريد أن يصبح شاعر القصر ، وطريق الوصول إلى آلاء الدولة طويل صعب المرتقى . . فلم يغتفر شللى هذا النوع من الضعة . فأخبر ساوثى بأنه ، من الآن فصاعداً ، سينظر إليه كعبد أجير . . وقطع ما بينه وبينه .

* * *

ومن تلك اللحظة صار لايعنيه من أمر ساوثى كثير ولا قليل . . ثم اكتشف أن معبوده جودوين مؤلف « **العدل السياسى** » حى يرزق . . وقد عرف أنه فى لندن ، وله عنوان كسواه من الناس ، وفى وسعه أن يكتب إليه . إلى هذا الرجل العظيم الذى يحطم سلاسل الزواج ، وهو عدو الألوهية ، وإمام الملحدين ، وهو جمهورى ، وثورى ! . . فكتب إليه يعبر عن إعجابه ، وتقديره ، وتفانيه . ويرى فيه شعلة النور التى تضىء الظلمات الضاربة من حوله . . . ويتمنى الاتصال به .

فلما تلقى جودوين هذه الرسالة ، سر كثيراً ، فهو بعد ما نبه ذكره عند نشره « **العدل السياسى** » عاد القهقرى إلى الخمول ، وكاد يصير مغموراً . . وهو أيضاً ، مثل تلميذه هذا ومريده ، قد اضطرب حبل حياته ، وبعد أن كان فى شبابه قسيساً ، انقلب فى سن الثلاثين ملحداً وجمهورياً . وفى ١٧٩٣ نشر كتابه المشهور . فكاد « پت » ، رئيس الدولة ، يشرفه باتخاذ الإجراءات القانونية ، لولا أن ثمن الكتاب كان عالياً ـ ستة جنيهات ـ مما رأى فيه الوزير ما يكفى لدرء غائلة هذه المبادىء الهدامة . وبعد ذلك بأربع سنوات تزوج جودوين من « مارى وولستونكرافت » ، الأديبة النابهة . ثم ماتت وهى تضع بنتاً . . ولم يلبث هذا العدو اللدود للزواج ، أن تزوج ، بعد ذلك مباشرة ، بأرملة تدعى « مسز كليرمون » ، كانت جارته فى المسكن ، وتعرفت به ، إذ تملقته وهى فى

شرقتها قائلة : « أحقاً ، وفى الإمكان ، أننى أرى جودوين الخالد ؟ ! »

وصارت حياة هذين الزوجين مؤلمة . فهناك خمسة أطفال من أربع زيجات مختلفة : (١) بنت من مارى وولستونكرافت وجودوين ، وليدة العبقريتين ، وتدعى : « مارى » (٢) و (٣) طفلان من أول زواج لمسز كليرمون ، هما : البنت « چين » ، والولد « شارل » . (٤) حدث صغير جداً ، ابن جودوين ومسز كليرمون ، يدعى « وليم » . . . وأخيراً (٥) فتاة لا تنتسب لأحد من أهل هذا البيت ، هى بنت مارى وولستونكرافت من زواجها الأول (قبل جودوين) ، وتدعى : « فانى » . . وهى جذابة ، غاية فى الرقة والظرف . . .

* وكانت مسز جودوين الثانية امرأة تضع نظارات خضراء ، شرسة الطبع ، تقسو فى معاملة مارى و فانى . ولكى يطعم جودوين كل هذه الأفواه ، عمل على نشر كتب للأطفال ، وتولت زوجته إدارة المكتبة . وكانت حياة هذا الفيلسوف قاسية محزنة ، محرومة من مسرات الغرور . فسقوط مريد من عل يتلقفه بالطبع متحمساً ، ويسأله ، فى الرد على رسالته ، المزيد من التفاصيل عن شخصه . . ولم يلبث أن بعث إليه شللى بخلاصة حياته ، حاملا على والده « مستر تيموثى » ، وعميد أكسفورد « الدكتور كيت » . . وأنه وريث دخل يقدر بستة آلاف جنيه فى السنة ، وأنه تزوج من فتاة تشاركه أفكاره ، وقد نشر : قصتين ، وكتيباً فى الإلحاد ، سيرسلها كلها إلى أستاذه . . . فحدّث عن أثر هذا الخطاب الأقرب إلى الخيال فى فتيات تلك الأسرة ، اللواتى قرأنه جميعا باهتمام عظيم . . وإن كان أبوهن لم يرقه تحامل الابن على أبيه ، فلعل أباه لم يرد له بذلك إلا الخير . . ولا يجوز للمرء الإسراف فى الحكم وهو فى ريّق العمر ، ثم لا يجوز له خاصة التهور فى نشر أحكامه . . وكتب إلى شللى :

[فى السن التى ينبغى أن يكون المرء فيها تلميذاً ، لماذا يتهالك على نفسه ليكون أستاذاً ؟] . .

ولولا أنه جودوين الموقّر كاتب هذه الرسالة ، لسلكه شللى فى عداد أنصار التعصب المأجورين ! . . ولكنه انحنى بارتياح ، ورد عليه :

[إنى لا أسأل إلا أن أكون تلميذاً للكفاية العليا التى لا نزاع فيها] . .

ومن فرط تحمسه بالعثور على جودوين ، راح يبنى العلالىّ والقصور ، فيضم النفوس الأخرى الموعودة ، إلى حلقته الروحية . . أو لم يوفق فى الجمع بين هاربيت وإليزا ؟.. إذن فليس أسهل من استئجار ڤيلا شامخة فى بلاد الغال ، يعيش تحت سقفها أيضاً : مس هتشنر « شقيقة روحه » ، وجودوين « صديقه الموقر » ، وأسرة هذا الصديق الجميلة ! . .

غير أنه ، قبل هذا كله ، وقد نال منه تشكك أستاذه فيه قليلا ، يريد أن يبرهن بمثل رائع على أنه يستطيع شيئاً ، رغم سنه الباكرة . . فقبل أن يسكن ، مدى الحياة . « بيت التأملات » ، سيذهب لقضاء بضعة أشهر فى إيرلندا ، مع هاربيت وإليزا ، ويعمل ثلاثتهم على تحرير الكاثوليك الإيرلنديين من ربقة تعصب مواطنيهم . . وبالأحرى على تحسين مصير تلك البلاد (إيرلندا) المنحوسة . . ترى . . كيف يمكن لهاربيت ذات الشعر الأحمر الذهبي ، وإليزا ذات الشعر الأسود القاحم المضفّر ، أن تحررا الكاثوليك ؟ . . لم يكن الأمر جليّاً ، وإن كان شللى قد وضع فيه نشرته : « خطاب إلى الإيرلنديين » ، ممتلىء بالفلسفة ، وحب الإنسانية ، والنصائح القيّمة . . وخيل إليه استحالة أن تبقى القلوب جامدة ، غير متأثرة ، بمجرد قراءته ! . .

وهكذا أبحر الفارس الفتى ، المغوار ، و « المملوك الشارد » ، ذو العينين المضيئتين ، ليغزو « الجزيرة الخضراء » ! .. وكان سلاحه ، بدل الحربة ، مخطوطاً ، وكان خدينه فى الحرب والطعان ، زوجته الجميلة هاربيت ، وكانت إليزا السمراء حاملة درعه . . فهى المكلفة بالنقود ، وتدبير البيت ، وما إلى ذلك من المهمات الوضيعة ! . . .

١٣ ـ فقاقيع الصابون

الفارس المغوار ، الذى جاء يحرر العبيد من الذل الروحى ، والحرمان المادى ، قد رجمه هؤلاء العبيد بالطوب ! . . فى اجتماع للكاثوليك صفّروا استهزاء ، إذ أعلن أن إبعاد الإيرلنديين من المناصب العامة بسبب دينهم خطأ غير جائز ، لأن الأديان سواء . . . فإن سامعيه آثروا ، مئة مرة ، تعصب مضطهديهم على تشكك محاميهم وإلحاده ! . .

وكان « الخطاب » المشهور ، الذى يوجهه إليهم ، هو على مثل هذه النغمة . فهو يدلل على أن تحرير الكاثوليك يعد خطوة فى سبيل التحرر العام المطلق ، وأن الطيبة ، لا البراعة ، هى التى يجب أن تكون مبدأ كل سياسة . . وأخيراً ، ينبغى للإيرلنديين ـ قبل أن ينتظروا تحررهم من الإنجليز ـ أن يحرروا ذات أنفسهم من مساوئهم ، بأن يكونوا : معتدلين ، عادلين ، محسنين . وجرى فى أوهام شللى أن تعاليمه هذه ستصل مباشرة إلى صميم قلوب فقراء « دبلن » ! . . وأعد نفسه للاستشهاد فى سبيل هذا الإنجيل ! . .

ولم تكن هاربيت دونه حماسة . فكنت ترى هذين الزوجين الحدثين يتجولان فى شارع ساكفيل روحة وجيئة ، وجيوبهما محشوة بالنشرات . فإذا ما لقيا أحداً ، رجلا كان أو امرأة ، وتوسما فيه « علامة القبول » ، دسا فى يده منشوراً !. وكانا ، من شرفة مسكنهما الصغير ، يلقيان بهذه النشرات على المارة !.

وكان صديقا شللى : جودوين ، ومس هتشنر ، يتوقعان كل يوم القبض عليه . . . ولكن ممثلى التاج فى العاصمة الإيرلندية نظروا بلا خوف إلى هذا العبث من الإنجليزى الشاب ، الذى تتراوح سنه بين السادسة عشرة والعشرين ، فلم تزعجهم خطبه ، ولا منشوراته ، التى يوصى بها إخوانه الإيرلنديين : بالاعتدال ، والبر ، والإحسان . . .

ولم يكن يعرف من الإيرلنديين ، الذين يحبهم كل هذا الحب ، غير خيّاطة ! .
وكان قلبه يتمزق إذ يرى رجال البوليس يجرّون السكارى فى الطرقات .. وكانت هاريت تشكو من « أنهم يشربون الويسكى لأن اللحم غال جداً ! » . . وأضربا لذلك عن أكل اللحم ، وأصبحا من النباتيين ! . .

وفى ليلة من ليالى الأعياد ، التى تشرب فيها دبلن الخمر غير ممزوجة بالماء ، رأى شللى وهاريت مواكب الجائعين ، واقفين صفوفاً ، يتفرجون على حفلة راقصة فى قصر الحكومة ، وهم يعجبون بالملابس الزاهية والحلى الغالية . . فسخط شللى ، وقنط من هذا النقص فى الإحساس بالكرامة . .

لقد كان شللى يعيش دائماً فى قصور من الوهم والخيال . إن إيرلندا الجائعة كانت عنده شبيهة بامرأة جميلة معذبة . . وهو فارس مقدام ، ورسول كريم ، مستعد للنضال فى سبيلها ، ومعاناة العذاب من أجلها ! . . فسارت وراءه فى الطرقات جماهير زرية الهيئة ، مهلهلة الثياب . . فقبض عليه الجنود ، وجلدوه . وكأن فلسفته الروحانية الرحيمة هذه ، قد وقفت بين الأمتين المتعاديتين . . فرأى أن الجزيرة الشقية تضحك راضية بشقائها ! . هى ساخطة ، وهى مع ذلك سعيدة بسخطها ! . . هى بائسة ، وهى فخور ببؤسها ! . . فياله من لغز معمى ! . ويا للحقيقة الجارحة ! . فماذا يسعه إزاء هذا ؟ وماذا يرجو ؟ . . لقد سأل جودوين رأيه ، فنصحه بالعودة مراراً وتكراراً ، تجنباً لإراقة الدماء . . إذ لم يؤن الأوان بعد لتحقيق مشروع شامل كامل لخير الإنسانية جمعاء ! . . فرضخ آخر الأمر لحكم « صديقه الموقّر » . . . وحزمت هاريت منشوراتها الباقية ، وصدرتها بعنوان مس هتشنر ! . . . وطوت إليزا معطفها الأحمر ، واستقل الرسل الثلاثة الكرام السفينة عائدين ! . . .

وكرروا الدعوة إلى المعلمة مس هتشنر لتجىء فتسكن معهم . فتباهت بالدعوة ، وحدثت البلدة عنها . . فلما عرف أبوها نهرها ، وحال دون سفرها ،

فقد أخطه اللغط الذي يدور من حوله عن علاقات ابنته بشللي . . فيدهش شللي مرة أخرى من شرور الناس . . أهو ، الذي خطف امرأته وتزوج بها زواج حب ، يجيء الآن فيخونها ؟ لقد اشمأز من هذه الفكرة الخسيسة ، واستنكف أن تدور في رؤوس البشر ! . .

وكان المستر هتشنر - الأب - هو أيضاً صاحب حان سابق ! . . فكأن « الآلهة » قد أرادت أن تحشد في حياة شللي ، الشاعر الشفّاف : نقابة الخمّارين ! . . فكتب إلى والد صديقته و « شقيقة زوجه » :

[إني لا أكاد أملك نفسي من الدهشة والغضب ، إذ أعلم بأنك ترفض دعوتي لابنتك . فبأي حق ؟ . . من الذي جعلك سيدها ؟ . . فلا قوانين الطبيعة ، ولا شرائع انجلترا ، تجعل الأبناء ملكاً خاصاً مشاعاً للآباء ! . . فلعل الأيام تخلق مشاعر أقرب إلى الحرية منها إلى الرق والاستعباد]

* * *

ثم آن له أن يغادر بلاد الغال ، وأشار عليه جودوين ببيت صغير يريد أحد أصدقائه تأجيره . وكانت كل نصيحة من جودين محل الاعتبار . فجاء شللي وهاريت ، فوجدا البيت مشوهاً ضيقاً ، لم يكد يتم بناؤه . ولكنهما ، في عودتهما بخفي حنين ، اكتشفا قرية سحرية راقدة في أحضان الزهور والأغصان ، حمراء السقوف ، تسمى : « لينموث » . . وعثرا ، بمعجزة ، على بيت فيها للإيجار ، تشرف نوافذه على البحر . . فاعتزما سكناه « مدى الحياة » ! . .

ولما عرف بذلك « الصديق الموقر » ، جودوين ، كتب إلى شللي كتاب تقريع وتأنيب لمزاجه المسرف المترف ، فقد كان يكفي تلميذه ذلك البيت الصغير ، مهما يكن متواضعاً ! . . ولو أن المستر تيموثي - والد شللي - هو الذي كتب مثل هذا الخطاب ، لقابله ولده بالويل والثبور ، ولعدّه من عظائم الأمور ! . . بيد أنه من الطبيعي أن يتحمل من رجل أجنبي عنه ما لا يتحمله من

أبيه ! . . فيم يفكر شللي فى أن يرد على اللوم إلا بتبرير تصرفه ! . . وتنازل أستاذه ، وتقبل عذره ، وأقاله من ذنبه ! . .

ولم يلبث بيت « لينموث » الجميل ، أن تأهب ، واستعد لحادث سعيد ، هو وصول مس هتشنر ، المعلمة ، فقد ارتضت أخيراً أن تجيء للسكنى معهم . . لتدخل فى حياة شللي لوناً من التعاون الفكرى ، والتآزر الروحى ، لابد له منه ، وهو لايجده فى زوجته الفتية ، التى هى أيضاً فى حاجة إلى أن تتلقن ، من « أختها فى الروح » هذه ، ثقافة تكوّنها ! . .

ولم يلبث أهل « لينموث » أن رأوا ، مندهشين ، صاحبهم شللي يقوم ، مع تلك العجفاء الهزيلة المجهولة ، بنزهات خلوية ، خيالية ، طويلة ! . .

١٤ — الصديق الموقّر

ذبلت ورود القرية الجميلة . . وهبت رياح الخريف ، فاكتسحت من لوحة السماء السحب العريضة المفككة ، كما لو كانت أوراق الشجر اليابسة . . . وشحب نفوذ مس هتشنر ، وتضاءلت مكانتها . . فإن وجود امرأة مثلها ، أجنبية عن البيت ، وإقامتها الدائمة فيه ، قد نالا من هاربيت ، وزاداها وهناً على وهن ، وضنّى على ضنى . . ورأى شللي أن حلمه يتبدد ، ورؤياه تتبخّر ، وتتكشف له عما كان خافياً عليه من غليظ الطباع . . وبهت إذ وجد نفسه تحت سقف واحد مع امرأة تافهة ، خرفة ، سخيفة ، فبحث عبثاً عن بطلته ، وتلمس ، بلا جدوى ، « شقيقة روحه » . . فقرع سن الندم على جنونه وحماقته .

وبعد كل الذى كان منه من إلحاح وإلحاف لخلعها من مدرستها ، صار من الصعب الافتراق عنها وردّها على أعقابها . . بيد أن المقام كذلك معها ، فى وحشة الخريف ، أصبح ثقيلا لا يطاق . . وعلى ذلك فكروا فى الانتقال إلى مدينة

كبيرة ، حيث أصدقاء آخرون ، وتسليات أخرى ، قد تحمل على نسيان هذه الرفيقة البائخة التى لم تعد تحتمل صحبتها ، أو يتسع الصدر لعشرتها . . . واستحث جودوين ، وقتئذ ، شللى وأسرته ، على الرجوع إلى لندن . . فقرروا السفر إليها ، والبقاء فيها طويلا .

* * *

ما أشد اضطرابهم وتأثرهم ، وهم يغادرون ، ذات يوم من أكتوبر ١٨١٢ ، فندقهم الصغير بشارع سان چيمس ، ليقوموا بالزيارة الأولى لصديقهم جودوين وأسرته . . هذه هارييت ، « قطقوطة » شقراء ، وردية ، تسير بخفة ورشاقة إلى جانب « زوجها : الولد » الطويل القامة ، المحنى الظهر . . يتساءلان عما ينتظرهما من استقبال فى دار الفيلسوف . .

وكانت مس هتشنر قد زارت بيت جودوين فى مرورها بلندن ، فقوبلت مقابلة سيئة . ولكن قد يكون هذا أيضاً دليل فطنة جودوين !

وعند ما وصل شللى وهارييت وجدا الأسرة بكاملها مجتمعة فى البيت الصغير المتصل بمكتبة شارع سكينر . وكان آل جودوين نافدى الصبر تطلعاً لوصول الزوجين الشابين . فهناك الفيلسوف « الصديق الموقر » جودوين : قصير ، سمين ، أصلع ، يتجلى ذكاؤه ، كما لو كان قساً . ثم مسز جودوين (الثانية) ، فى ثوب جميل من حرير أسود ، ونظارات خضراء ، لترى جلياً هذا الولد النبيل ، وارث اللوردية ، وزوج الفتاة الحسناء . . وكان شللى قد أُنذر ، من قبل ، بأنها امرأة سليطة اللسان . ولكنها بدت فى ذلك المساء رقيقة الحاشية . ثم « فانى » ، الفتاة الساهمة ، فى شجن وحلاوة . ثم « چين » الشائقة ذات الطابع الإيطالى ، سمراء اللون ، يقظة الذهن . . . وقال جودوين :

ــ لا ينقص الأسرة ، إلا ابنتى « مارى » ، وهى الآن فى أسكتلندا . وهى أشبه ما تكون بأمها التى سترون الآن صورتها .

وقاد الزوجين المريدين إلى مكتبه . ..ونظر شللى طويلا ، باهتمام وتأثر ، إلى صورة الفاتنة مارى وولستونكرافت . ثم جلس الجميع ، وطفق شللى وجودوين يتحدثان فى : المادة والروح ، والأدب الألمانى . والنساء يسمعن معجبات . ورأت هاربيت شبهاً بين جودوين وسقراط ، وإلى جانبه شللى كأحد مريدى الفيلسوف الأغريق ، الذين يشرقون بالجمال والحماسة والشباب . . .

ونشأت مودة وثيقة بين آل شللى وآل جودوين . وكثيراً ما كان جودوين يمر بالفندق ، ويصحب شللى فى نزهة ، أو تدعو مسز جودوين شللى وهاربيت إلى العشاء ، وقد تدعو إليز ومس هتشنر ، وإن كانت الأخيرة تُدعى ، من حين إلى حين ، على مضض . . وقد تجازف هاربيت ، من جانبها ، بدعوتهم إلى العشاء .

وفى مساء عيد ٥ نوفمبر ، كان شللى وزوجه يتعشيان عند جودوين . وبعد العشاء ، استأذن الصغير « وليم جودوين » ، وكان فى التاسعة من عمره ، ليذهب إلى جاره الصبى « نيوتن » ليشعلا الصواريخ . وكان شللى فى تلك اللحظة يناقش « صديقه الموقر » فى إحدى المسائل العويصة ، فأيقظت كلمة « صواريخ » الكيماوىّ الخفى فيه ، فتردد لحظة فى مغادرة جودوين ومحاضراته ، غير أن صورة الأسهم النارية تنطلق فى كبد السماء ، وتضىء شوارع لندن القديمة ، غلبته على أمره ، فقال للصبى الصغير : « إنى ذاهب معك » . وانطلقا ! . . وبعد ما انتهت الصواريخ ، عبر الصبى نيوتن عن سروره بصديقه الكبير ، الذى يلعب كالطفل ، ويعرف حكايات عجيبة ، بأن أخذه معه إلى والديه . فانساق معه شللى . . ولم يندم على ذلك ، فقد وجد مستر ومسز نيوتن مدهشين . ولم تلبث أن جرت محادثة علمية شائقة بينه وبين المستر نيوتن . فقد كان هذا الأخير رجلا له نظرياته التى يطبقها عملياً . وكان متحمساً لفكرة : « أن المخلوقات البشرية ، عند ما غادرت المناطق الاستوائية الحارة ، التى عاشت فيها بادىء ذى بدء ، وصعدت نحو الشمال ، اتخذت عادات مخالفة للطبيعة ، هى التى سببت كل أوجاع

الإنسانية . ومن هذه العادات السيئة لبس الثياب ! » . . فكنت ترى أبناءه يروحون ويجيئون فى البيت وهم دائماً عرايا ! . . وكذلك من العادات السيئة عنده أكل اللحم ، وأسرته كلها لا تذوقه ، فهى نباتية ، تعيش على الخضر والفاكهة . ومنذ راعت هذا النظام فى معيشتها لم تلجأ إلى طبيب ، ولم تحتج إلى دواء . . وكان الأولاد فعلا غاية فى الصحة وسلامة الأبدان . وكثيراً ما كان شللى يلقى البنات الصغيرات عاريات الأجسام ، يصلحن نماذج كاملة لصنع التماثيل . . وما كان هذا كله إلا ليفتن شللى ، ويجعله من الزوار المواظبين ، فلا يكاد صوته يسمع فى صحن الدار ، حتى يخف الخمسة الأحداث متسابقين فى النزول للقائه ، ويصعدوا به إلى غرفتهم . ولم يكن نجاحه لدى أمهم وخالتهم مدام دى بوانفيل دون ذلك . . .

وكانت « فانى » و « چين » ، من فتيات جودوين ، تقضيان السهرات الطويلة تصغيان إليه بانجذاب . . . تعجبان بجماله ، وبقوة حجته . . ففى هذه الأسرة ، ذات النزعة الجمهورية ، كان لهذا الفتى الأرستقراطى ، وريث الثروة الطائلة ، وشديد الاحتقار للمال ، نفوذ لا يطاول . وكان هو ، بين هاتين الفتاتين : « فانى » الناعمة الخجول ، و « چين » المتوقدة الحارة الدماء ، يقضى أجمل سهراته ، التى يمتزج فيها الفكر بالاشتهاء . وكأنى به قد عاد مرة أخرى إلى الليالى الجميلة ، التى كان فيها محوطاً بالأخوات وبنات الأعمام والعمات ، كما يحيط النحل بالقفير . . .

أما هارييت فقد كانت عندهن دونه نجاحاً . ولم تلبث فانى وچين أن حكمتا بأنها فتاة محدودة ، تردد عبارات زوجها ، وقالتا بمجرد انصراف الزوجين : « مسكين شللى العزيز ! . . فليست له الزوجة التى تنبغى . . . »

وهو شعور طبيعى ، يخالج بداهة الفتيات إزاء الرجل الذى هو ملك غيرهن . وكن يتمنينه لأنفسهن . بل لقد تجرأن على مهاجمة هارييت ، فى غيابها ، بالغمز

واللمز . . وأسلوب وخز الإبر . . وأشعرنه بأنهن لا يرين فيها إلا « سيدة جميلة » وحسب . . فاستنكر ذلك منهن ، لأن جمالها لا يجوز أن يكون فى نظرهن ذنباً لها ، أو حجة على نقصها أو غرورها . .

غير أن وخز الإبر سيدمى قلب شللى مع الأيام ، وينبه ذهنه إلى أشياء لم يكن يلقى إليها بالا . . وكان بجهلها ، أو الغفلة عنها ، أسعد حالا .

١٥ – كيف كانت « شقيقة روحه » ؟ . . .

بعد ما ظل هج منفياً عاماً كاملا فى يورك ، اصطلح مع أهله ، وعاد إلى لندن ، لإتمام دراسة القانون . وبينا كان يقرأ بهدوء ، ذات مساء ، وإبريق الشاى يغلى إلى جانبه ، سمع دقاً مزعجاً على باب البيت الخارجى ، ثم اندفع ذلك الباب بشدة ، هزت الجدران ، وذكرت هج فى الحال بتينك العينين المضيئتين ، والقامة الطويلة المحنية . . فقال لنفسه : « لو أن شللى كان لايزال على مودته لى ، لظننت أنه . . . » . . ثم سمع خطوات سريعة مندفعة تصعد السلم ، تلك الخطى الخفيفة التى سمعها يوماً فى دهاليز أكسفورد . . فقال : « مامن أحد صعد السلم أبداً هكذا ماخلا شللى ! . » . وفتح باب الغرفة ، فإذا شللى ، بلا قبعة ، وصدر قميصه مفتوح ، وحشىّ المنظر ، نورانى التجلى ، أشبه بما كان دائماً : روحاً سماوياً علوياً ، نزل إلى هذه الأرض عفواً أو خطأً . . .

ـــ أخذت عنوانك من أستاذك المحامى . . بعد لأى ! . . فقد حسبنى نصّابا ، وتمنع عن إعطائه لى . . ماذا فعلت طوال هذه السنة ؟ . . إننى عائد من إيرلندا ، حيث عملت مستشاراً عن الإنسانية لدى الكاثوليك الإيرلنديين ! . ثم قصدنا بلاد الغال البديعة . . هاريت بخير . . وهى تتوقع ولداً . . هل قرأت « بركلى » ؟ . إنى فى هذه الآونة أطالع « هلفتيوس » . . حصيف . . ولكنه جاف !

فجعل هج يتأمله بالإعجاب الحنون الساخر ، كما كان يفعل من قبل . . ليس

غير شـللى الذى يذكر الفيلسوف الفرنسى « هلفتيوس » ، منذ أول عبـارة يوجهها إلى صديق غادره منذ عام ، بعد كل ما كان بينهما من خصومة جارحة . وكان شللى سعيداً ، مندفعاً بفيض أفكاره ، يروح ويجىء فى الغرفة ، ويفتح الـكتب ، ويوجه الأسئلة دون أن ينتظر جواباً عليها ، وكأنما قد نسى تماماً أن هج قد أراد يوماً أن يثلم عرضه ! . .

وظل شللى يتحدث حتى ساعة متأخرة من الليل ، حتى إن جيران غرفة هج أنذروه ، بضربات متوالية على الحائط ، بأن الصوت الجهورى يحول دون منامهم . فخشى هج على سمعته فى البيت ، ورجا شللى الانصراف . . وهو مازال يتـكلم ، ويفضى بمشروعاته وأمانيـه ، حتى أخذه هج بلطف من ذراعه ، وقاده على رغمه إلى الباب ، وهو يقاوم محتجاً :

ــ ما أثقل جيرانك ! . . فهـذه المخلوقات البليدة ، تجهل أن الليل وحده هو الآونة التى تنطلق فيها النفس من عقالها ، ويهب العقل من رقاده ! . .

وساقه هج إلى السلم ، فقال :

ــ إنى أنصرف على شريطة أن تجىء غداً للعشاء معنا ، فسوف تسر هاربيت برؤيتك . . واعذرنى لوجود مخلوقة كريهة معنا : مس هتشنر . . ولـكنها راحلة عنا بعد يومين .

- مس هتشنر ؟ . . شقيقة روحك ؟ . .

- هى ؟ . . شقيقة روحى ؟ . . إنها دودة حقيرة تسعى ! . . إننا نسميها « الشيطانة الأسمر ! . . »

وكانا قد وصلا إلى الباب الخارجى ، فتملص هج من صاحبه برقة ، وأغلق الباب . . .

* * *

وجاء هج فى الساعة السادسة من مسـاء اليوم التالى . فاستقبلته هاربيت

مغتبطة . وقد زاد ورد محياها نضرة ، وصارت أوفر شباباً وفتنة مما كانت أبداً . وصاحت :

ــ ياله من فراق ! . . ولكن لن نفترق بعد اليوم ، فقد جئنا للإقامة فى لندن مدى العمر . .

وكانت إليزا جالسة فى ركن ، صامتة ، مترفعة . فصافحت هج بأطراف أصابعها ، دون أن تتنزل إلى مخاطبته . قال هج :

ــ إن صحتك مدهشة يا هاريت ! . .

فقالت إليزا بصوت متراخ :

ــ هى ! . . كلا ! . . المسكينة ! . .

فقال هج فى نفسه : « لم يتغير بعد شىء فى هذا البيت . . فلا بد من أن ألزم فيه الحذر » . . وفى تلك اللحظة دخل شللى باندفاع القذيفة . وبسطت مائدة العشاء . وبعد تناول الطعام ، همست إليزا أشياء فى أذن هاريت ، التى أطاعت ، وجاءت فودّعت هج ، ودعته للعودة صباح الأحد :

ــ سيكون ذلك يوم سفر « الشيطانة الأسمر » ، ويكون الحديث محرجاً . وأنت مرح ، فوجودك يؤدى لنا خدمة . . . ولعل شللى قد حدثك عما أصابنا على يدى هذه المنكودة من عذاب . . .

وعلى ذكر مس هتشنر ، أبدت إليزا اشمئزازها الصامت . . واستمرت هاريت تقول :

ــ إنها امرأة فظيعة ، أرادت شللى على أن يتعلق بها ويحبها . . وادعت أنه يحبها فعلا . . وأننى ، أنا ، لا أصلح ، إلا لخدمة البيت . . وقد وعدها شللى بمئة جنيه معاشاً سنوياً ، على شرط أن تذهب عنا إلى حيث ألقت ! . .

ودعم شللى هذه الأخبار . وهو يدرك جسامة تضحيته ربع دخله على هذه الصورة . ولكن لابد مما ليس منه بد . فهذه الفتاة قد أضاعت بسببه وظيفتها ،

وتقول أيضاً سمعتها ، وصحتها ، بسبب فظاظتهم ووحشيتهم ! . . قال شللى وهو يرتجف :

ـــ الواقع أنهـا مخلوقة شنيعة ، سطحية ، قبيحة . . خنثى . . . وما دهشت قط من سقم ذوقى إلا بعد ماقضيت أربعة أشهر معها . . كيف تـكون جهنم إذا لم تـكن هذه المرأة من نصيبها ؟ . . والأدهى من ذلك أنهـا تنظم شعراً ! . . ووضعت مرثاة فى حقوق المرأة ، بدأتهـا بقولها : « الكل ، الكل رجال . . والنساء كالآخرين . . . »

ثم انفجر ضاحكاً . . .

وفى اليوم التالى ، جاء هج حسب وعده . وبدت له بطلة اليوم مضجرة ، ولـكنها غير مؤذية . وكانت امرأة طويلة ، برزت عظامها ، وبان هزالها ، أقرب إلى الذكور منها إلى الإناث ، قاتمة الجلد ، وقد نبتت لهـا لحية ! . . ولم يلبث شللى أن أعلن اضطراره إلى الخروج . . واكتشفت هارييت فى رأسها صداعاً شديداً يقتضى الوحدة . وحُكم على هج أن يخرج ليتنزه مع « الإليزاتين » ! . . . فسار نحو حديقة سان چيمس ، « والشيطانه الأسمر » فى ذراعه اليمنى ، « والشيطانه الأسود » فى ذراعه اليسرى . . وكانت الخصيمتان تتهجمـان على بعضهما ، من فوق رأس هذا الفيلسوف الفـكه ، بعبارات الاحتقار والتعالى . . وتظاهرت مس هتشنر بوقف حديثها على هج . وناقشته فى حقوق المرأة . واضطرت إليزا ، التى لاتعرف هذا الموضوع ولاغيره ، أن تلزم الصمت المخزى . وعندما وصلوا إلى البيت انتحت بـ « هج » ركنا من القاعة ، وعاتبته بقولها :

ـــ كيف استطعت أن تتحدث طوال هذا الوقت مع مثل هذه المرأة الشريرة ؟ . . ولمـاذا شجعتها على المضىّ فى حديثها ؟ . . إن هارييت عنـد ما تعلم بالأمر ستغضب منك ، وتستاء كثيراً ! . .

بيد أن هارييت لم تزد عن أن تقول :

— أو لم تسأم من الشيطان الأسمر ؟ . .

وابتسمت له . .

وبعد الغداء ، وجّه هذا الرجل الخبيث ، الحديث إلى حقوق المرأة ، وأطلق البطلة المسترجلة من عقالها . فغادر شللى كرسيه ، وجاء فوقف إلى جانبها يناقش بحدة . ونظرت إليه الشقيقتان بحزن وجزع ، كما لو كان مذنباً أثيماً لاتصاله بالعدو . . . وهمست إليزا فى أذن هج :

— آه ، لو علمت كم هى قذرة ، لما دنوت منها ! . .

غير أن ساعة الخلاص جاءت ، فحملوا ، على عربة حقائب ، المعدة وصناديقها إلى المنفى . . بينما نساء بيت شللى يصحن ، ويغنين ، ويرقصن فرحاً ! . .

١٦ — كيف كانت هاربيت ؟ . . .

كانت الشهور القليلة ، التى تلت رحيل مس هتشنر ، من شهور السعادة . وكان شللي وزوجه مازالا فقيرين ، جوّابىْ آفاق ، ولكن رضاء داخلياً عظيماً قد حل عندهما محل : الغنى ، والبيت ، والحَىّ . . فقد بدأ نظم ملحمة كبرى بعنوان « Queen Mab » . وجعله العمل فيها يستشعر أن الحياة ما زالت خليقة بأن يحياها الإنسان . وكانت هاربيت حاملا . وغمرها استرخاء لذيذ ، شبيه بالخدَر ، جعلها تستبقى كل قواها لعملية الخلق ، ولا تشعر بالضجر لجمود حركتها ، مادام فى باطنها ، يعزيها ، نشاطُ التكوين ، الذى لا يلبث أن يتمخض بالولد . . .

وأقاما خلال هذا الطور مدداً قصيرة فى بلاد الغال ، ثم فى إيرلندا من جديد ، دون أن يتعرضا هذه المرة للسياسة . وبدأت هاربيت تدرس اللاتينية ، مرضاة لزوجها . وكان يدرسها لها على طريقته ، بلا أجرومية ، ماضياً بها رأساً فى مطالعة « هوراس » و« فرچيل » . . وكان فى خلال ذلك أيضاً ينظم ملحمته ،

أو يقرأ كتب التاريخ . فقد قال له جودوين إن جهله بالتاريخ هو من أعظم أسباب أخطائه فى الحكم على الأشياء . ومع أن هذه الدراسة كانت تضايقه ، فقد مضى فيها قدماً بشجاعة . وفى المساء تغنى هاربيت ، أو يطالعان معاً الصحف ، ويتتبعان أخبار المحكوم عليهم من الكتاب الأحرار . . وكثيراً ما كان شللى يكتب إليهم ، دون أن يعرفهم ، يعرض عليهم أن يدفع عنهم الغرامات المحكوم بها عليهم بسبب آرائهم ، وكان كعادته لا يملك عشرة جنيهات سلفاً ، فيضطر إلى الاستدانة ، بأرباح فاحشة ، تبلغ أحياناً أربعمئة فى المئة ، للنقود التى يوزعها ، باليمين وبالشمال ، على هؤلاء الزملاء المجهولين ! . .

وآنت العودة إلى لندن ، إذ حان وضع هاربيت ، وكذلك بلوغ شللى سن الحادية والعشرين ، وهو تاريخ غاية فى الأهمية بالنسبة له ، إذ يحدد علاقاته بأبيه .

وسكنا فندق كوك ، فى غرفة ذات شرفة مطلة على شارع ألبمارل . وكانت إليزا ، المقيمة معهما ، تعنى بشقيقتها ، وتبالغ فى الخوف على صحتها ، إلى درجة ضاق بها شللى ، نصير ترك ما للطبيعة للطبيعة . . وكانت إليزا فى غياب شللى تدرّس لأختها سياسة الزوجية :

— من العجب العجاب ألا يستطيع زوجك ، وهو فى الحادية والعشرين ، أن يجد سبيلا إلى الصلح مع أبيه ، حتى تستقبلك أسرته ، وتأخذى فى أسباب الحياة اللائقة بقرينة « البارون » الشاب ! . . ولو أنك كنت أكثر مما أنت فطنة وإقناعاً ، لكان لك شأن آخر . . وأنت لا تلبثين أن تنجبي ولداً . . وهذه الحياة المزعزعة الرحالة أصبحت مستحيلة لا تطاق . فلا غنى لك عن بيت فى لندن ، فراشه وثير ، وخيره كثير ، وأوانيه من فضة ، وبالباب مركبتك . . هذا كله ، وأكثر منه ، يمكن أن يكون لو أراد شللى . . .

وتأثرت هاربيت بهذه الأقوال ، وآمنت . فقد كانت امرأة ساحرة الجمال ، وكانت تعرف ذلك ، والمرأة الجميلة تعد الحياة بلا ترف صعبة لا تحتمل ، كما يعد

الرجل الذكى نفسه مغبوناً فى وظيفة حقيرة . . وكانت نظرات المارة التى تتعلق بها تحدثها عن مدى سلطانها . وكانت تعلم جيداً أن هذا سريع الزوال ، ينقضى بانقضاء الشباب والجمال . . ومثَل الأمة المسلحة تسليحاً قوياً ، تريد أن تكفل لنفسها مكانتها تحت الشمس ، قبلما تسرّح جيوشها : مثل المرأة المسلحة بجمالها ، تريد أن تغزو عدوها الرجل ، أو توطد علاقاتها به ، قبلما تدهمها الشيخوخة ، وتفرض عليها المسالمة والتسليم . . . وظلت هاريت ، ومن ورائها إليزا تنفخ فيها من روح التمرد والتمرمر ، تلح على شللى ، حتى قرر محاولة التقرب ، من جديد ، من أبيه . وكان كذلك فى شوق لرؤية أمه ، فكتب :

[والدى العزيز

أستأذنك ، مرة أخرى ، فى إبلاغك رغبتى الصادقة فى أن تعدنى جديراً باستئناف علاقاتى معك ، ومع أسرتى ، تلك العلاقات التى حرمتنى منها حماقا . . .
وأرجو أن تكون الساعة قد اقتربت ، لنتبادل الصلات كأب وابن ، بثقة تامة .
ولن أكون بعد سبباً فى تعكير صفو الأسرة . وقرينتى تنضم إلى فى تقديم فائق الاحترام]

ولم يكن الأب ، لسوء الحظ ، ليقنع بالظفر دون دوىّ ، فتغالى فى مطالبة ولده النادم بتقديم كفّارة مستحيلة . . وأصر على أن يكتب شللى إلى هيئة جامعة أكسفورد آسفاً لحدوث ما حدث منه ، وأنه يعد نفسه ، من الآن فصاعداً ، ابناً ، مخلصاً ، مطيعاً ، باراً بالكنيسة . فإذا لم يفعل ذلك . فهو يأبى كل اتصال به ! . . فاشتكى شللى والده إلى الدوق دى نورفولك رئيس حزبه السياسى :

[. . . إننى لم أسقط بعد إلى درك العبودية ، حتى أنكر الآراء التى أعتقد صحتها . وإنى أقبل كل ما هو معقول ، أى ما لا يؤدى إلى فقدان الاحترام الذاتى ، والتجرد عن الكرامة ، التى ليست الحياة من دونها إلا عبثاً باهظاً ، وعاراً مشيناً]

وعدّت إليزا مثل هذا العناد منه سخيفا :

ـــ وعلى ذلك فإن هاريت ، وهى تكاد تضع ، لا تجد حتى مركبة توفر عليها

الجرى فى شوارع لندن على القدمين ؟ . .

فاستشاط شللى غيظاً ، واشترى عربة بالدين ، وأبى استخدامها ، فقد كان يمقت أن يحبس فى مركبة ، ويؤثر النزهات الطويلة مشياً فى شوارع لندن يتحدث مع هج . . وكان ، عند ما يضيق صدره بإليزا ، لا تعوزه البيوت الطيبة الصديقة ، التى يلجأ إليها على الرحب والسعة . فهناك بيت جودوين ، حيث « فانى » و« چين » تستقبلانه بأذرع مفتوحة . وهناك بيت نيوتن ، حيث يجد الحنان ، والذكاء ، والرقة ، وحسن المعاشرة ، تُسمعه مسز نيوتن ، الموسيقية البارعة ، أنغامها الشجية على البيانو ، وهو جالس على البساط مع أولادها الذين زهاهم الحسن ، يروى لهم بصوت منخفض حكايات الأطياف والأشباح .. وكثيراً ما تنزل أختها ، مدام دى بوانفيل ، عندها . وكانت هاتان السيدتان الفرنسيتان قد تلقتا ثقافة إنجليزية فرنسية ، يقدرها شللى حق قدرها ، وهو المعجب بفلاسفة الفرنسيين . . وقد وجد ، لأول مرة ، فى هاتين الأختين ، عقلا نسوياً جديراً بعقله . . وكان ، خاصة ، شديد الميل إلى مدام دى بوانفيل ، ذات الشعر الأبيض ، ونضارة الطفلة . وقد اجتمعت فيهما ، عنده ، استنارة الذهن مع دماثة الطبع . وهذا فى المرأة خلاصة الحضارة . ومن ثم وجد فى بيتهما أقصى ما يتمناه من هناء الروح .

وكذلك كان الأمر بالنسبة لهاتين المرأتين مثيراً : أن يكتشفا هذا اليافع ، الرائع الجمال ، الكريم المنبت ، الذوّاق للفكر ، الحارّ الحديث . . الذى لم يسبق لهما أن لقيا رجلا مثله تواضعاً ، تحرر تماماً من الأنانية ، وتوافر له كرم الخلق ، والتجرد من المادية . فكانتا تقولان لنفسيهما : « أى شىء أبدع وأروع من قديس فى ثياب رجل المجتمع الراقى ؟ ! »

وكان هج يغبط صديقه شللى على مناورات كل هؤلاء النسوة الفاتنات الذكيات من حوله ، وانكبابهن عليه ، وإحاطتهن به ، ينازعن فيه فتيات جودوين ، ويزاحمنهن عليه . . وهو روح شارد ، له نزواته وبدواته ، ومخاوفه المباغتة ،

وهوسه الطاغى . . قد ينتظرنه أحياناً على الشاى فلا يحضر ، إذ تعرض له رؤيا شعرية ، فتحبسه عنهن . . وقد يزعمنه أحياناً أسيراً طائعاً ، فإذا به ينطلق فجأة بدعوى وهمية من خيـاله ، إلى حيث لا يدرين ، ولا يدرى ! . . فإذا طاب له الجلوس مرة إلى امرأة مسّت شغاف قلبه بحديثها ، فإنه ينسى الساعة ، وينسى وجوده . . وقد يمضى الليل وشللى يتحدث بحمية ، هذا الإلـٰه الجميل « أدونيس » ، المحوط بالعذارى المسحورات ، والكاهنات العابدات ، والنساء القانتات . . وقد يطلع الفجر عليه وهو ما زال يحاورهن . . ولا ينتهى الحوار بالنوم ، ولات حين منام ، بل ينتهى هذا الحديث من الليل بنزهة خلوية ، تحت ندى الصباح . . .

وكان هج يتساءل : ماذا كان يقول طوال ليله فى نادى الجمال ؟ . . إن شللى نفسه ليس يدرى ! . وكذلك كانت هاربيت تتساءل عما يمكن أن يقوله زوجها لكل هؤلاء النساء . . وكانت على وشك الوضع ، فهى لا تخرج مطلقاً . . يتركها شللى وحدها غالباً ، على إحساس منها بأنها ليست محبوبة فى البيوت التى تحبه . . . فهى ، عنـد جودوين ، قد نشب نزاع بينهـا وبين ربة البيت . . وعند أسرة بوانفيل ، قد أحسنوا وفادتها أول الأمر ، لأنها رائعة الحسن ، وزوجة شاعر . ثم لم يلبثوا أن جفوها ، إذ تبينوا أنها امرأة عادية ، تافهة . . .

١٧ – مقارنات

وضعت هاربيت طفلة ذات عينين زرقاوين ، وشعر من ذهب . فدعاها أبوها « إيّـانتا : Iantha » ، تكريماً لذكرى « أوفيد » شاعر اللاتين القديم . وأضافت أمها إلى الاسم : « إليزا » ، تكريماً لأختها العانس ، بنت الخمّـار وستبروك . . وهكذا التقى من الأوائل والأواخر : النقيضان ، عند هذا المهد ! . عمرك الله كيف يلتقيان ! . .

وكان شللى يدور بالطفلة على ذراعيه ، وهو يهزها ، ويغنى لها من أشعاره !

وكان قد طاب نفساً ، وقرّ عيناً ، بأن يربى مخلوقاً جديداً على مبادئه ، فينقذه ، منــذ نعومة أظفاره ، من الأحكام المبتسرة والتعصب . وكان ـ وهو المعجب بجان جاك روسو ـ يظن أن هارييت سترضع بنفسها طفلتها . وأحسن استعداده للسهر بالحنان والحب على هاتين المخلوقتين الجميلتين ، الكبيرة منهما والصغيرة . . ونسى ، فى نشوة دوره الجديد ، بشاعة إليزا . . بيد أن هارييت ، وأختها من ورائها تحرّضها ، قد رفضت إرضاع بنتها . فاكترت مرضعاً لتتولى ذلك عنها ، أو كما وصفها شللى : « فاعلة أجيرة » ! . . وتغيرت الأم ، على وجه غريب ، منذ مولد « إيانثا » . فكأنها أرادت أن تعوض ما فاتها من جمود خلال أشهر الحمل . فانقطعت عن دراسة اللغة اللاتينية . . ولم تعد ترغب فى غير التنزه فى شوارع لندن ، والوقوف أمام واجهات : الأزياء ، والقبعات ، والحلىّ ، والجواهر . . وكان شللى لايغتفر مثل هذا التهافت على أشياء نافلة ، ولايفهمه . وكان على استعداد ليدفع تكاليف كل النزوات « المعقولة » لامرأته ، ولو أدّى ذلك إلى الاقتراض ، وتحمل متاعب لا آخر لها ! . . أما المال « الضرورى جداً ! » لإعانة الكتاب الأحرار المضطهدين وغير ذلك من الوجوه الحقة ، فإن إنفاقه فى : خرق ثياب ، وشرائط برانيط ، أمر لاح له أشد ما يكون خزياً . . ولم يتنكب عن إشعار زوجه وأختها بما يخالجه . .

وعندئذ عنيت إليزا بتفسير مشاعر شللى لهارييت :

ــ إن زوجك يجد المال ليدفع ديون صاحبه جودوين ، الذى ينتف ريشه ، ويمتص دمه ، فى حين تستقبلنا زوجته شر استقبال . . ثم يجد المال ليدفع غرامات كل كويتب « هلفوت » . . ولكنه لايجد مالا لتلبس امرأته ثوباً على جسمها ، وقبعة على رأسها ! . . فإذا كان لا يرى من الطبيعى أن تتأنق امرأة شابة حسناء لتكون زينة للناظرين ، فهو إذن أحمق متزمّت . وإذا كنت لاتلبسين الآن ، وتظهرين ، فى الثامنة عشرة ، فمتى تفعلين ؟ . .

وشجعت إليزا ، على التردد على البيت ، ضابطاً فى الجيش ، يدعى : « الكابتن ريان » ، كانوا قد تعرفوا به فى إيرلندا ، وقد عاد إلى لندن . وكان هو أيضاً يرى أن شابة شائقة مثل هاربيت جديرة بحياة مترفة ، تتفق وذوقها واستعدادها . . وكانت هاربيت مستعدة للمصادقة على رأيه . فقد كانت دراسة اللاتينية والفلسفة جهداً مضنياً لها ، وقد بذلته ، دون تذمر ، حباً فى زوجها ، وإعجاباً به . . على أنها ، إذ تتردد على محال البيع والشراء ، تلبى ميلها وطبعها ، كما يلبى شللى أهواءه بالمكث الطويل فى بيت « نيوتن - بوانفيل » .

ورأى شللى أن المقام فى لندن ، مع ما فيه من مغريات ، كان سبب الشر كله . فخالجته الفكرة التى تعرض عادة للمحبين ، إذا ما عكر صفوهم شىء مازال غامضاً ، وهى زيارة الأماكن التى شهدت ذروة الحب . . وأعدت مركبة هاربيت . . واستلف شللى خمسمئة جنيه بتوقيع سند بألفين من الجنيهات تستحق الدفع من ميراثه . وسار الركب ، وإليزا - التى لامفر منها - على رأسه ، يحج إلى إدنبره . .

وأدت حياة السفر المنوعة المتغيرة إلى نسيانهم أشياء وأشياء . . فعادوا إلى لندن أسعد مما سافروا . ولكن لم تكد تستقر بهم النوى ، حتى نشب الإختلاف وتجدد . . فقد أصرت هاربيت وإليزا على شقة جميلة ، وحياة أنيقة ، وثياب فاخرة ، ومجتمعات راقية ! . . وشللى يمقت هذه جميعا ، ويمقت ، أكثر منها ، فكرة تعلق زوجته بها . . إنه ما زال يحبها ، غير أن سماء حبه قد عبرتها لمحات احتقار ، كومضات برق سريع خلّب . . .

وجاء هج لزيارتهم . فوجد هاربيت قد قامت من نفاسها ، وصارت أشد فتنة ونضرة منها فى أى وقت مضى . ولكنها لم تعد تعرض عليه أن تطالع له فى كتب الفضيلة ، بل سألته ، عوضاً عن ذلك ، أن يصحبها إلى صانعة قبعات ذائعة الصيت . . وهناك اختفت عندها ، تاركة هج ينتظر على الرصيف . فرأى أنها بدأت تكون مملة ، فضاق بها . . وكرجل قليل التسامح مع المرأة التى سبق لها

أن نبذته ، لم يخف ضيقه بها عن شللى ، الذى كان كذلك قد عيل صبره . وهكذا وصل الزوجان إلى منزلق خطر ، إذ أدخلا خصما ثالثاً فى الدعوى الخفية التى كانت بينهما . . .

* * *

عندما دعت مدام دى بوانفيل شللى وهج لقضاء بضعة أيام فى بيتها الخلوى فى « براكنل » لبيا بابتهاج . وهناك وجدا بنتها « كورنيليا » ، الفتاة الجذابة ، المثقفة ، الحزينة . . كما وجدا أختها « مسز نيوتن » . . وأخذت كورنيليا الحسناء تعطيهما دروساً فى اللغة الإيطالية . . وكانت أمها مدام دى بوانفيل تفسر ، بصوتها النقى ، تعاليم الفلاسفة الفرنسيين السمحة ، وتردد كلمة « شمفور » : « أن تستمتع بالحياة ، وأن تمتع بها سواك ، دون أن تسىء إلى إنسان ، هذا هو الخلق المصفى ! » . . وكانت هذه الكلمة الأثيرة عند مدام دى بوانفيل ، التى اتخذتها شعاراً ، خليقة بأن تثير استنكار شللى . . فالمسكينة هارييت لم تقل قط شيئاً مخالفاً إلى هذا الحد للفضيلة . . ولكنها لو فعلت لما أجادت القول كذلك !

وكان من عادة كورنيليا : أن تقرأ ، أو تحفظ ، عن ظهر قلب ، كل صباح : بمجرد استيقاظها ، أنشودة من أناشيد « بترارك » . . فإذا ما خرجت لتتمشى بين الشابين فى الحديقة ، علّقت على نصوص الحب ، بفصاحة ، وبساطة ، قائلة :

ــ ما أحسن أن يُستهل النهار بجرعة من الحنان ، تلطف كافة أفكارنا ، وأقوالنا ، وأفعالنا ، حتى يجىء الليل ! . .

وطاب مقام شللى فى هذا البيت البسيط البهيج ، لم تزعجه فيه وجاهة متكلفة . ودعيت هارييت ، فجاءت ، واستقبلتها مدام دى بوانفيل بعطف . وقالت لهج :

ــ إنها إنسانة جميلة جداً ، وقد تلوح لى طائشة نوعاً ما ، غير كفء لمثل عزيزنا الفيلسوف اللذيذ . . ولكن . . أليست فى الثامنة عشرة تماما ؟ . .

ولسوء الحظ أحست هارييت بأنهم لا يعاملونها معاملة الند للند . ورأت

كيف يروق شللي أن يقرأ « بترارك » مع كورنيليا ، أكثر مما تروقه المناقشة مع زوجته في وسائل تحسين معيشتهما . وإزاء وسط شعرت بأنه يناصبها العداء ، تحت قناع من الترحيب ، أسرفت في المرح ، وعدم الاكتراث . ولما طفقت الجماعة تجادل في الفضيلة جدالا حاراً ، رآها شللي تتبادل البسمات الساخرة مع هج ، ومع پيكوك ، وهو صاحب جديد لهم ، سفسطائي متشكك . . وما كان شللي ، إذا تسامح في تهكم هج ، ليتسامح في تهكم امرأته . إن روح هج عالم يختلف عن عالمه ، وهو يسلم باختلافه . أما روح هاربيت وعقلها فهما من صنعه . هو الذي كوّنها ، وصقلها ، وثقفها . وقد ألف أن يراها صدى له . فما إن اكتشف ، فجأة ، أن هذه الصورة الأخرى منه قد انتزعت ، ثم هي تبسم ساخرة إذ تسمعه ، حتى دهش ، ووجم ، وحزن . . وعزا ذلك منها إلى الصبيانية . . في حين أنها كانت قد استنكرت كل ما حولها ، وكانت في الواقع غيرى من كورنيليا . فأبدى لها شللي فتوراً ، وعاملها بازدراء . .

وعندئذ تسلحت بالكبرياء ، وانقلبت شراً مما كانت . وقالت لنفسها : « إن إليزا على صواب . . فهو أناني ، يدّعي الكمال . . ولأنه يحب هذه العيشة الكئيبة ، وهذه المناقشات البليدة ، وهذه الأشعار الإيطالية السخيفة ، فهو يريد أن يفرضها عليّ . . وأن أحبها . . ولكن بأي حق يحول بيني وبين أن أستمتع بمزاجي ، وأحيا حياتي ؟ وفيم تمتاز عني امرأة مثل كورنيليا ، إذ تطالع له « بترارك » ؟! . إن هؤلاء النسوة ، اللواتي يعجب بهن ، لسن في نضرة شبابي ، ولا في جمال صورتي . . فلا يلبث أن يأسف عليّ ، ويندم على ما كان . . . » . .

وأعلنت عزمها على العودة إلى لندن ، شوقاً إلى أختها إليزا . . فلم يلحوا عليها بالبقاء ، إلا بقدر ما تقتضيه اللياقة من كلمات الأسف . . وقالت نساء بوانفيل (كما قالت من قبل آنسات جودوين) : « إن شللي المسكين ، ليست له المرأة الجديرة به » .

وعلى ذلك تعودت هاربيت أن تتركه فى « براكنل » ، وتعيش فى لندن ، مع إليزا ، معظم الوقت . ولم يلبث أن تطوع « الأصدقاء الخلصاء » المعتادون بإخباره بأن هاربيت كثيراً ماتشاهد بصحبة الماچور ريان . ولأول مرة ، منذ زواجه ، لاح له احتمال الخيانة . والخيانة ـ كنظرية ـ عالجها دائماً بكل احتقار . فلما فكر فيها ، إذ عرضت له بغتة ، من الوجهة العملية ، كشىء محتمل الوقوع بالنسبة لشخصه وشخص هاربيت ، طغى عليه عذاب أليم ، لاعهد له به من قبل .

وكان العقل يقول له : إن الأولى به أن يكون سعيداً بخلاصه من امرأة عادية جداً . وإذا كان قلبه يخفق فى هذه الآونة بالحب ، أو ليس خفوقه لتلك الفتاة الشائقة ، كورنيليا ، لا لهاربيت التى بدت نقمتها الوضيعة بما أظهرت من سخرية به ، وزراية ضايقته فى « براكنل » الضيق كله ؟ . وإذا لم يكن بعد يحبها ، أو ليس الفراق هو أبسط الحلول ، والخيرة فيما وقع ؟ ! أو لم يكن من رأيه دائماً : أنه فى اليوم الذى ينطفىء فيه الحب ، يسترد كل من الزوجين حريته ؟ .

غير أنه عبثاً حاول ترديد هذه الحجج لنفسه . فقد اكتشف ، ذاهلا ، أن : هاربيت وستبروك ، وپرسى شللى ، لم يعودا مخلوقين منفصلين حرّين . فإن ما كان بينهما من ذكريات ، ومن ملاطفات ومعانقات ، ومن متاعب وآلام ، قد ربطهما برباط خفىّ ، وأوقعهما فى شبكة بدنية ، هيهات لها الخلاص منها .

فهرع إلى لندن ، مصمماً على أن يقدم إلى هاربيت اعتذاراته ، ويعترف بأخطائه . ولكنها تلقته بخشونة وسخرية ، مما استحالت معه أية مطارحة قلبية .

فهذه الزوجة الطفلة ، الرقيقة كل الرقة ، المطيعة طاعة عمياء ، منذ ثلاثة أشهر فقط ، قد انقلبت جافة متكبرة . فلم يفهم كيف وقع مثل هذا التغيير . . ومرت بشللى لحظات متفاوتة ، خيل إليه فيها أنه يرى ، من وراء قناع الجفاء والكبرياء الذى تقنعت به هاربيت ، صورة سريعة عابرة من هاربيت السابقة . . ولكنه ما يكاد يحاول النطق بكلمة حنان ، حتى تختفى الصورة ، ويبقى القناع . . فكأنه

كان ينقر بلا جدوى على الدرع الفولاذية التى غلفت بها قلبها ! . .

فراح يهيم على وجهه ، بلا هدف ، فى شوارع لندن ، مفكراً : « كم كنت مجنونا ! . . فقد ربطت نفسى للأبد بامرأة لا تحبنى ، وهى لم تحببنى قط من قبل . ومن الجلىّ الآن أنها لم تتزوجنى إلا طمعاً فى ثروتى واسمى . . أما وقد رأت أن آمالها خابت ، فقد انقلبت تعاقبنى على غلطتها ، وتنال منى . . » . . وكرر لنفسه باشمئزاز : « قلب من ثلج . . . لوح من ثلج ! . . . »

ربما ، لو أنه كان قد لقيها وحدها ، وانفرد بها ، لأفلح فى أن يذيب ثلجها ، ويرد إليها حرارة قلبها . . ولكن إليزا كانت واقفة دائماً بينهما ، بصلفها ، وعداوتها ، وحقدها ، وفظاظتها . . كما كان الماچور ريان ، الكيّس الكريم ، متربصاً جانباً ، مستعداً دائماً لأن يرق حيث يقسو الزوج الطاغية ، وأن يمحو آثار الظلم والاستبداد ! . .

وبعد نضال بضعة أيام ، هبطت حماسة شللى ، فجأة ، وتلاشت . . فكما أنه قدير على الاندفاع بقوة معنوية ، لا يقف فى سبيلها شىء ، كذلك هو عرضة - كما كان فى أكسفورد بعد جولاته ونزهاته الطويلة - لأن يسقط إعياءً فى تراخ وسبات ، فتبدو قوة إرادته العصبية كشعلة تنطفىء وتخمد ، وتضىء وتسطع لحظة ، قبلما تدخن وتتلاشى . . .

فلما رأى هاربيت ممعنة فى صلابتها وعنادها ، وقسوة فؤادها ، سُقط فى يده ، وتخلى عن كل أمل فى إنقاذ أنقاض بيته السعيد ، وكتب إلى أصحابه فى « براكنل » ، يعلن إليهم حضوره ، وحده ، لقضاء شهر عندهم ، من دونها . . وكان يعلم حق العلم أنها ستضبح ، بعد هذا الشهر الطويل ، مدللة ، متلفة ، متعجرفة ، بفضل محيطها الفاسد الحقود . وكان يعلم أن ستعقب فترة « براكنل » الممتعة ، نكبة قارعة ، لابد واقعة . . ولكنه كان من الضنى والكلال ، بحيث ألقى السلاح ، وأطلق ساقيه للرياح . . .

١٨ ـ التجسّد الثانى للمعبودة

وتمر أيام على شللى ، يتذكر فيها المحيّا الطفل الجميل ، الذى وهبه الله لزوجته ، ذات الثمانية عشر عاماً . . فيظن أنه ما زال فى الإمكان نسيان كل ما كان . . وعفا الله عما سلف . . وقد حاول ، فى قصيدة حزينة تثير الشجون ، أن يطلعها على مبلغ شقاوة ذاك الذى عاش تحت شمس نظراتها الحارة ، كيف لا يجد بعد إلا الفناء تحت طبقات الجليد ، التى راكمها فوقه صدودها عنه ، واحتقارها له ؟ ! . .

فهل تراها تأثرت بهذا الشعر ، وهذا الشعور ؟ . . إنه لم يعرف قط ، فقد زادت بعداً على بعد ، وصداً على صد ، وأمعنت فى تعاليها وكبريائها ، واختفت خلف سحب من كراهيتها وانتقامها ؟ . . فلا شك فى أنها ، وقد هجرها مرات عديدة ، أرادت الانتقام منه . فما كاد يعود إلى لندن ، حتى غادرتها ، فى لحظتها ، إلى بلدة « باث » ، مع ابنتها .

وكان شللى مضطراً إلى الإقامة فى المدينة . فقد بلغ سن الرشد ، ولم تبلغ أعماله ، أو تتقدم بذلك أحواله . وقد أنذره محاميه بأن أسرته قد ترفع عليه الدعوى لتجريده من حقوقه . ومع أنه كان مرهقاً ، مغرقاً بالديون ، فقد أصرّ على المضىّ فى تخليص الآخرين من ديونهم ! . . فإن مكتبة الأطفال التى أسسها جودوين قد فشلت ، ومشهد ذلك الشيخ المحارب القديم ، المنافح عن الحق ، يتهالك ويتساقط حزناً ، بسبب حاجته إلى المال ، لا شك كان مؤلماً لتلميذه ومريده الشاب . . وكان يلزم لإنقاذه ثلاثة آلاف من الجنيهات الإنجليزية ! . . وهو مبلغ ضخم .

على أن جودوين ما كاد يعرف برغبة شللى فى التسديد عنه ، وأن هناك خطة ترسم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، حتى تهافت على تلميذه الحبيب ، وكان هذا

قد أصبح « أعزب » فى لندن ، و« نصفه الأفضل » فى الريف إلى أجل غير مسمى . . فصار يدعى للعشاء ، كل ليلة ، فى دار جودوين ، فى سكنر ستريت . .

وكان يتقبل الدعوة عن طيبة خاطر ، لشدة رغبته فى أن يرى البنات . . . وقد أخبره جودوين أنه سيلقى واحدة زادت عليهن ، هى « مارى » ، التى عادت من أسكتلندا ، ورسمها له فى صورة جميلة : سبعة عشر ربيعاً ، روح حى جذاب ، وعقل مستنير ، وخفة ، ورشاقة ، وهمّة ، ورغبة شديدة فى المعرفة ، ومثابرة لا حدّ لها . . وكانت « فانى » و« چين » قد سبقتا فوصفتاها لشللى بأنها لا يعدل ذكاءها إلا جمالها . وكان شاعرنا قد سبق له الاطلاع على أدب أمها « مارى ولستونكرافت » ، وحمل أشد الإعجاب لها . فأحس بتأثر شديد ، واضطراب ، لفكرة أنه لا يلبث أن يلقى بنتها : تلك المجهولة منه ، العزيزة ، سلفاً ، عليه ! . .

كان فى حاجة ، لكى يكون سعيداً ، إلى أن يجسّد فى شكل امرأة جميلة : القوى الخفيّة الخيّرة ، التى يتخيلها مبعثرة منثورة فى أرجاء الكون . . . وكان الحب ، عنده ، هو إعجاباً هائماً ، وإيماناً وطيداً ، ومزيجاً شائقاً كاملا من الاشتهاء ، ومن الفكر والذكاء . . .

ولو أن مارى لم تظهر ، فى وقت شدته هذه ، أو لو أنها خيبت منه الأمل ، إذن لكانت العاطفة المتأججة ، المتأرجحة فى قلبه الجريح ، قد وجدت لها مخرجاً لتقع على « فانى » ، أو « چين » . . غير أن مارى جاءت . . وكانت هى التى ينتظرها . . فتقرر مصيره .

كان المحيّا نقياً ، شفافا ، فى شحوب . . والشعر يتدلى على جانبيه ، فى غدائر ناعمة ، كسبائك ملتوية من ذهب . . والجبين مرفوع . . والعينان بلون البندق ، جادّتين فى حنان . . وهيئة رائعة من الذكاء الثاقب ، والإحساس المرهف ، والبسالة الحزينة . . فأوحت إلى شللى على الفور ، ونفخت فيه من روح الحماسة ، التى تؤاتيه عند مطالعة « هوميروس » أو « بلوتارك » .

وخيل إليه أنه يجد آية من البطولة ، فى هذه الصبية الرقيقة ، وما كان ليؤثّر فيه شيء فى الدنيا كالمزيج بين البطولة والأنوثة .

قال لنفسه ، وهو يصغى بانجذاب إلى صوتها الفتىّ الشجى : « ياللمجد ، ويا للحس ! . . » . . فتاة جمعت ، فى سنها اللذيذة ، إلى جمال المرأة فكر الرجل ، فصارت تحفة الفن العليا . . فودّ لو أسرع فوضع ذراع الأخوّة حول هاتين الكتفين النحيلتين ، وجعل العينين المتسائلتين تلمعان ، إذ يحملها بعيداً ، محلقاً بها ، على جناحيه ، إلى مملكة سحرية غريبة ، فيما وراء الطبيعة ! . .

وما أبعد مارى هذه عن هارييت ، تلك التى لم تعرف كيف تحقق له هذا المثال ، الذى يؤلف بين العقل والجمال . . إن هارييت لم تستطع اجتياز امتحان الزمان العسير . . فكانت مدللة ، غندورة ، طائشة ، بارعة فى مكائد النساء ، وهو ما يكفى وحده ليجعل شللى يقشعرّ روحاً وبدناً ! . .

أما مارى هذه ، ذات العينين البندقيتى اللون ، فكانت رقيقة ، مرهفة ، ماضية حادة كالسيف المهنّد المصقول . . رباها مؤلف « **العدل السياسى** » . . فبدت وقد تحرر عقلها من خرافات النساء وخزعبلاتهن . . وكان شللى ، إذ يتعشى كل مساء فى بيت شارع سكنر الصغير ، يقضى الساعات يتأمل مارى . متظاهراً بالإصغاء إلى جودوين وهو ينفض له حالة أشغاله التى يؤسف لها ، أو يتناقش فى ميزانية انجلترا ، أو قوانين المطبوعات . .

وكانت هى أيضاً كلها استعداد لأن تحبه . فالتحضير الرومانتيكى لخيالها ، قد قامت به أخواتها ، اللواتى ظللن ، شهراً كاملا ، لا يحدثنها فى رسائلهن إلا عن شاعرهن الجميل . . وها هى ذى مارى ، إزاء شللى ، ترى أن الخُبر يفوق الخبَر . . . ورأت ، لأول وهلة ، أنها استرعت اهتمامه . ومع أنه لم يكن يشكو ، فقد أحست حزنه .

ولما كانا ، ذات مساء ، منفردين ، فى غرفة بها صورة أمها « مارى

وولستونكرافت » ، حدثته عن ذات شجونها . فهى تعبد أباها ، ولكنها تمقت زوجته مسز جودوين التى أصبح البيت بسببها لا يطاق . والمكان الوحيد الذى تستريح إليه ، وتجد فيه بعض الرعاية ، هو : قبر أمها . فهى تذهب إليه ، كل يوم ، تطالع عنده ، وتتأمل . . فاشتد بشللى التأثر ، وتمنى عليها لو أذنت له بأن يصحبها . . .

وهكذا رأى نفسه ، مرة أخرى ، بعد خمس سنوات ، جاثياً فى مقبرة ، إلى جانب عذراء جادة مولعة . . . وهكذا تجسّد معبوده ، مرة أخرى ، فى شكل امرأة . لكن وا أسفا ! . . لم يعد شللى حراً . إنه يشعر نحوها بجاذبية قوية ، لاسبيل إلى مقاومتها . يريد أن يأخذ بتلك اليد ، وينال بشفتيه هذا الثغر المقوّس اللذيذ . . وهو يعلم أنها تريده ، كما يريدها . . وكانا لايجرؤان على لقاء العين بالعين . . ما الذى يسعه تقديمه إليها ؟ . . لقد كان متزوجاً . ولا مراء فى أن الزواج ليس إلا عُرفاً ، فمن لم يعد يحب ، فلينطلق من إساره . وهو لم يعد قط هارييت بشىء غير هذا . فضلا عن أنه يظنها صارت خليلة للماچور ريان ، فلا يتحرّج من شىء إزاءها . غير أن زواجه كان شرعاً لايمكن التحلل منه . . فماذا عنده ليقدمه إلى مارى ؟ . . أفى مقدوره أن يرضى لها ذلك الوجود المستهجن ، الذى لم يجرؤ على أن يفرضه على حبيبته الأولى ؟

على أن حباً متبادلا ، ولو كان بلا رجاء ، هو خير من : الشك ، والوحدة ، والحرمان . فاعتزم أن يكاشف مارى بحقيقة حياته الزوجية . . والحب الزوجى ، ولو كان يحتضر ، يظل طويلا متحصناً بالصمت ، حتى تجىء لحظة يشعر فيها المرء بغبطة أليمة فى الكشف عن جراحه . فوصف شللى زوجته هارييت على النحو الذى أصبح يراها عليه ، وما أصابه من الخيبة الروحية فيها . وكان بحاجة إلى رفيقة تشعر بالشعر ، وتدرك حكمة الحكماء . . وما كانت هارييت لتستطيع هذا ولا ذاك ، ووجد لذة مريرة فى الانتقاص هكذا مما أضاع . . .

وأهدى إلى مارى نسخة من ديوانه . وكان الديوان مهدى إلى هارييت : « ملهمة هذه الأغانى » . . فكتب ، تحت الإهداء المطبوع ، هذه العبارة :

« كان الرجل يوشك أن يتزوج امرأة ، لم تنجذب نحوه إلا من أجل ثروته ، فبرهنت على أنانيتها ، بالتخلى عنه ، وبجره فى سجنه » . .

ولما عادت مارى ، واختلت بنفسها ، فى غرفتها ، أضافت :

« هذا الكتاب مقدس عندى . لن تفتحه مخلوقة سواى ، حتى أستطيع أن أكتب فيه ما يعجبنى . ولكن ماذا ترانى كاتبة فيه ؟ . إنى أحب المؤلف ، حباً فوق كل تعبير . . وإن كل شىء يفرقنى عنه ، وهو الحب الأعز الأوحد . . وبهذا الحب الذى تعاهدنا عليه عهداً كان مسئولا ، لا أستطيع أن أكون لك ، ولن أستطيع أن أكون لسواك ، ولكنى لك وحدك ، لا شريك لك : بالقبلة الصامتة ، والنظرة المختلسة ، وبالابتسامة التى تراها ولا يراها الناس . إنى وهبتك نفسى . . والعطاء مقدس » . . .

هذه النظرات التى لا يراها أحد ، وهذه الابتسامات التى لا يفهمها أحد ، قد رآها مع ذلك جودوين ، وفهمها . . وعدّ تواطؤ ابنته مع رجل متزوج شيئاً داعياً للقلق . فأظهرها على الأخطار التى هى مستهدفة لها . . وطلب إليها أن تكف عن لقاء شللى . وكتب إلى شللى بهذا المعنى ، ونصحه بأن يصالح زوجته ، وسأله أن يكف ، فى الوقت الحاضر ، عن زياراته .

وجاء هذا الحظْر ، وإن كان رقيقاً ، عاملا على استعجال الحوادث التى ربما لولاه لتوانى وقوعها . وقرر شللى ، الهائم بمارى ، المحروم منها ، أن يضع لذلك حداً . ولم يشعر بأى تأنيب من ضميره بالنسبة لهارييت ، التى برغم تأكيدات صاحبيه پيكوك وهج ، وكلاهما شاهد عدل عليها ، كان يصر على الظن بأنها مذنبة . قال لنفسه : « إن شيئاً واحداً يهمها : المال . . . وسأكفل من هذه الوجهة مستقبلها . . وستهنأ وتسعد باسترداد حريتها » ! . .

وعلى ذلك كتب يدعوها إلى لندن ، ليخبرها بنيته . فجاءت . وكانت حاملا لأربعة أشهر ، فى غاية من التوعك . فلما أعلن إليها زوجها ، بهدوء وعطف ، أنه قرر العيش من دونها ، وأنه سيهرب مع امرأة غيرها ، ولكنه مع ذلك سيظل دائماً خير صديق لها ، ضاعفت الصدمة مرضها ، واشتد الخطر عليها ..

فسهر شللى على معالجتها ، متفانياً فى خدمتها ، مما زاد فى شقائها وحسرتها .. وما كادت تتمالك صحتها ، حتى استأنف محاجته التى لا تلين :

— إن اتحاد الجنسين مقدس ، طالما هو يشمل الزوجين بالهناء ، وهو ينحل طبعاً من تلقاء نفسه ، بمجرد ما يزيد ضرره على نفعه .

فضاقت الدنيا بهارييت ، إذ أحست ضياعها . وكانت تعرف أنه لا بد من جواب . وأن كل هذا الألم ، وهذا القلق ، وهذا المزيج من الحب والرعب والجزع ، قد يجد له مخرجاً فى تعبير ما ، وكان يمكن أن تجد هذا التعبير ، لو أن ذهنها كان أشد صفاء . . . ولكنها ، وحالتها هذه ، لم تجد ما كان ينبغى أن تقوله . . فحلمت بأنها تتخبط وسط جدران عالية غير منظورة ، مطبقة عليها ، كمن يتخبطه الشيطان من المس . .

ولم تجد لها مخرجاً ، تروّح به عن نفسها ، إلا السخط الشديد على مارى . إنها هى السبب فى هذا كله ، صنعته ، وحبكته ، وأخذت شللى ، وفرقته عن زوجته ، واستغلت تعلقه بالخيال ، لتسوقه إلى موعد على قبر ، وهو ما ينسجم تماماً وطبيعته . . وقد استخدمت ذكرى أمها فى لعبة شائنة .

وكذلك مارى ، من جانبها ، لم تشعر بذرة من الشفقة على هارييت . فصورتها فى أبشع صورة : « إن امرأة كان من سعدها أن اقترنت بشللى ، فقصّرت فى إسعاده ، لا يمكن أن تكون إلا مخلوقة أنانية ، طائشة ، خاملة » . وكانت تعلم أن شللى سيعامل هارييت بسخاء ، ويغدق عليها العطاء ، وأنه يعد لها هبة كريمة من لدنه ، وأنه سيصدر أمراً إلى وكيله ليدفع لهارييت أكبر

نصيب من معاشه ، وهو ما يطمئنها عليها ـ على المنبوذة ـ ويريح ضميرها . .
وقالت مارى باحتقار : « سيكون لها المال ، وهو كل ما يعنيها ، وتقر به عيناها » . .

وكان شللي فى حالة يرثى لها من الهياج العصبيّ . إن نوعاً من البعث العاطفى قد أثار فى نفسه مشاعر متضاربة . فلما رأى هاربيت تسقط فى هوة من اليأس والقنوط ، لم يستطع نسيان أيام كانت رضيّة ممتعة . ولم يكد يعود فيلقى مارى ، حتى عبد منها : لطفها ، ورقتها ، وجدّها . . وتعاطى ، ليهدىء من ثائرته ساعة أو بعض ساعة ، خلاصة الأفيون ، وزاد فى تعاطيها يوماً عن يوم . . وأظهر صاحبه پيكوك على الزجاجة قائلا :

ــ إنها لا تفارقنى أبداً . .

وأضاف :

ــ إنى أردد بلا انقطاع ، قول سوفوكليس :

« يا ليتنى ما وجدت فى هذه الدنيا ، ولا اكتحلت عيناى بنورها ، إذن لكنت أكون من المسعدين . . أما وقد طلع علىّ النهار ، فما أحرانى بأن أعود من حيث جئت . . لا ألوى على شىء . . . »

ولو كان قد أدرك أبا العلاء . لردد معه :

تعب كلها الحياة فما أعـ ـجب إلاّ من راغب فى ازدياد ! . .

١٩ - رحلة الأسابيع الستة

أوصى شللى بعربة السفر للساعة الرابعة صباحاً . وظل ساهراً متربصاً ، سواد الليل كله ، أمام بيت جودوين . وأخيراً ، رأى النجوم تشحب وتختفى ، ومصابيح الغـاز تذبل وتنطفىء . وفتحت مارى الباب الخارجى ، قليلا ، بلا صوت ، وهى فى ثياب السفر . وكانت أختها « چين » ، التى قررت فى آخر لحظة الرحيل معها ، تتحدث معها بصوت منخفض ، مشرفة على الحقائب باهتمام .

وتعبت مارى من السفر المتواصل الطويل ، غير أن شللى لم يجرؤ على التوقف ، خشية أن يكون جودوين فى أعقابهم . ثم بلغوا ، فى نحو الساعة الرابعة مساء ، ميناء دوڤر ، حيث وجدوا ، بعد المصاعب المعتادة مع موظفى الجمرك والبحّـارة ، مركباً صغيراً عبر بهم المانش إلى كاليه .

وكان مساء جميلا . . ظلت صخور الشاطىء الإنجليزى العالية تختفى قليلا قليلا . . ورأى الهاربون أنهم نجوا ، وصاروا فى أمان . ولم يلبث أن هب الهواء ، ثم انقلب ريحاً صرصراً عاتية . وكانت مارى قد اشتد بهـا المرض ، فقضت الليل مضطجعة على ركبتى شللى ، الذى كان هو نفسه مضنى من التعب ، يسند رأسها إلى كتفه ، ويعنى بها جهده . ونزل القمر متثاقلا نحو الأفق ، حتى غاب ، وساد الظلام التام ، فانطلقت زوبعة هوجاء ، كان برقها الراعد يضرب بالسياط وجه البحر الأسود المـاء ، فتثور مياهه ، وتنتفخ ، وتفور ، تحت ضربات البرق النارية السريعة . . وأخيراً ، بزغ النهار ، فولت العاصفة الأدبار ، وصحا الجو ، وطاب الهواء ، وطلعت الشمس وردية شقراء على فرنسا . . .

وانتعشت مارى من سباتها ، على مرأى ما فى شوارع كاليه ، وضجيج الميناء البهيج ، ولهجات الأجانب الذين يتكلمون بكل لسان ، وثياب الصيادين والنساء الجديرة بالتصوير . . وقضوا يومهم فى خان ، منتظرين وصول سفينة بريد دوڤر ، حاملة حقائبهم . . فوصلت حاملة معها أيضاً مسز جودوين ونظارتها الخضراء ! . وكانت السيدة السمينة ترجو أن تقنع ابنتها «چين كليرمون» على الأقل ، بالعودة معها . . غير أن فصاحة شللى فازت بها . وعادت مسز جودوين وحدها . وفى الساعة السادسة ، غادر المسافرون كاليه إلى بولونى ، فى مركبة تجرها ثلاثة خيول ، تجرى خبباً . . .

* * *

وكانت خطتهم تقضى بالذهاب إلى سويسرا ، ولكن بضعة أيام فى باريس أتت على ما فى كيس نقودهم . وكان معهم خطاب لرجل أشغال فرنسىّ ، يدعى « تاڤرنييه » ، ليحصل لهم على مال . فدعوه إلى تناول الفطور بالفندق ، ثم حكموا عليه بالبلاهة والغفلة ، لأنه تعسر عليه إدراك الضرورة القصوى لهذه الرحلة ، يقوم بها صبيّتان ، وشاب كبير ، طويل ، سريع التهيج والانفعال . . واضطر شللى إلى رهن ساعته وسلسلتها لقاء ثمانية بنتوات ذهبية ، كفلت لهم الطعام خبزاً وجبناً خمسة عشر يوماً ، اطمأنت فيها نفوسهم ، فراحوا يتفرجون على شوارع باريس ، ومتاحفها ، من اللوڤر ، إلى نوتردام . . ثم لم يلبثوا أن آثروا البقاء فى الفندق ، يطالعون معاً مؤلفات مارى وولستونكرافت ـ والدة المحبوبة ـ وأشعار بيرون . وفى آخر الأسبوع قبِل تاڤرنييه ، وكان ، فى صميمه ، رجلا طيب القلب ، أنِ يقرضهم ألفا ومئتى فرنك (نحو خمسين جنيهاً إنجليزياً) ، وهو دون ما يكفى نفقات السفر فى مركبة البريد ، فقرروا الرحيل على الأقدام ، وشراء حمار لحمل العفش وركوب مارى . فذهب شللى إلى سوق البهائم ، وعاد إلى الفندق بجحش صغير . وفى الصباح التالى ، استقلوا عربة إلى أبواب شارنتون ،

على الحدود ، والجحش يتخبط سعياً وراء العربة . .

وكنا فى ١٨١٤ ، وطرق فرنسا قليلة الأمان ، لأن الجيوش كانت يومئذ قد سرّحت ، واحترفت عصابات من الجنود : قطع الطريق ، ونهب المسافرين . ونظر الفلاحون فى الحقول التى على الطريق ، باندهاش ، إلى هذه القافلة العجيبة ، المكونة من فتاتين فتانتين ، فى ثياب حريرية سوداء ، ومراهق جميل ، شعره حلقات عسجدية ، وجحش صغير إلى حد زرىّ ! . .

وبعد مسيرة بضعة أميال ، تعثر الجحش من التعب ، فاضطر شللى وچين إلى حمله ! . . وفى القرية التى باتوا فيها ، باعوه إلى فلاح . واشتروا بدلا منه بغلة ! . وكانت آثار الحرب والدمار بادية على البلاد ، فالقرى خربة ، والبيوت بلا سقوف ، والجدران المهدمة سوّدها دخان النار ، فإذا سألوا مزارعاً بعض اللبن ، لعن القوزاق الذين ساقوا أمامهم أبقاره . وكانت الأسرّة فى النزل الحقيرة قذرة إلى حد لم تجرؤ معه مارى وچين على الرقاد فيها ، والفئران الهائلة تصول وتجول حولهم فى الظلام . فاعتادوا النوم فى مطابخ القرويات ، وحرارة الأفران فيها تضيق الخناق ، وبكاء الأطفال ، وقرقعة الخشب القديم ، تمتزج وتندمج فى أحلامهم ، إذا ما أخذتهم من النوم سِنة . وتساءلت مارى بقلق عما يمكن أن يكون قد أصاب أباها من الألم من هربها . .

وكان شللى مشغول البال على مصير هارييت ، فكتب إليها خطاباً طويلا ، يسألها أن تجىء لتلحق بهم فى سويسرا ، فتسكن بقربهم ! . . وستجد فيه على القليل صديقاً ذا ود مقيم ، لا تشوبه من الأنانية شائبة . ورأى من الطبيعى للغاية أن يطمئنها على صحة مارى ! . . وبدت له هذه الصراحة بديهية ! . .

لم يشك شللى مطلقاً فى مبادرة زوجته « المهجورة » إلى الإسراع بالحضور إليهم ، والعيش معهم ! . . أما ما يحتمل من حكم « الناس » على مثل هذه العيشة المشتركة بأنها شائنة ، فلا يؤبه له ، ففيم يعنيهم رأى المجتمع ؟ . . أو ليس الأولى

تلبية ما تمليه المحبة والحنان ، بدلا من تلك الأحكام المبتسرة السخيفة ؟ . .

ولم ترد هاربيت على الخطاب .

ووصلوا من نيوشاتل إلى منطقة البحيرات . وأراد شللى الاستقرار فى « برونن » قرب معبد غليوم تل ، المدافع عن الحرية . وكان البيت الوحيد الخالى هناك : قصراً عتيقاً مهجوراً كالطلل البالى ، فاستأجروا فيه غرفتين لستة أشهر ، واشتروا أسرّة ، وكراسىّ ، ودواليب ، وموقداً . وجاء قسيس القرية وطبيبها لزيارة الوافدين . وبدأ شللى فى يومه قصة كبرى : « السفاحون The Assassins » ، كأنه قد طاب مقامه ، واستقرت أيامه ! . .

بيد أن الموقد الجديد لايشتعل . والحجرة مثلجة ، ممتلئة منه دخاناً . ومن الخارج المطر يضرب زجاج النوافذ بسياطه الرفيعة . ووجد الأحداث الثلاثة المنفيون أنفسهم فى وحدة موحشة . فتذاكروا حديث بيوتهم الإنجليزية الجميلة ، والشاى الإنجليزى الساخن الزكى . . والجو الإنجليزى الملبد بالغيوم ، وهو مع ذلك لايخترم برده الصدور . . والرجال الإنجليز الذين يتكلمون بلسانهم ، ويعرفون نطق أسمائهم . . حتى المرابون الإنجليز ، وإن كانوا بالطبع ينهبون ، إلا أنهم مجاملون : وأحصى شللى ما فى الكيس المشترك ، فلم يجد باقياً إلا ثمانية وعشرين جنيهاً . فتجاوبت جوانحهم برغبة قوية ، عبر عنها شللى أخيراً بقوله :

— فلنعد إلى بلادنا ! . .

ولم يكد يجرى النطق بذلك . حتى قر قرارهم على الرحيل ، فأحسوا بالفرح والمرح . وقالت چين :

— ياللمضحكات المبكيات : أن نغادر ، بعد ثمان وأربعين ساعة ، الغرف التى استأجرناها لستة شهور ، وأثثناها بمالنا ! . . لقد زعمت إذ رأيت صخور دوڤر تبتعد عنا ، والشاطىء الإنجليزى يختفى ، أننى لن أعود فأرى من ذلك كله شيئاً . . . والآن . . .

وكان ذلك فى منتصف الليل . . وفى الصباح التالى ، وكان المطر ينهمر مدراراً ، حملهم مركب إلى لوسرن . وما كان أشد دهشة قسيس برونن عند ما علم بسفرهم ! . . ومن لوسرن بلغوا بال ، ثم كولونيا . وكان الجو بديعاً . وفى المساء ، غنى البحارة ، تحت ضوء النجوم ، أغانى الهوى . . وشللى يعمل فى قصته : « السفاموند » . ومارى وچين ، كلتاهما تبدأ فى وضع قصة جديدة أيضاً . . ثم حملتهم مركبة البريد الهولندية ، خلال مشاهد خلوية جميلة ، وأجواء هادئة ، وقنوات جارية ، وطواحين هواء دائرة ، وبيوت من خشب . . وعند ما وصلوا روتردام لم يعد فى كيس نقودهم دانق واحد ! . . وبعد مناقشات طويلة مع قبطان إحدى السفن ، قبل أن يحملهم معه . . وكان البحر هائجاً مضطرباً ، كما كان يوم رحيلهم . وقطع شللى الرحلة بطولها وهو يناقش أحد الركاب ، من ذوى الأفكار الرجعية ، فى مسألة النخاسة والرقيق . وأيدته مارى وچين بحرارة ، وهما تجهلان تماماً ماذا تأكلان غداً ، وإن كانتا تعلمان أن پرسى شللى عبقرىّ ، وأن الإنسان حيوان ، ينشأ ، ويتقدم ، ويرتقى . . وقد يكمل ! . .

٢٠ — المنبوذون

عند ما وصلوا لندن ، لم يجد شللى معه أجرة العربة التى أقلتهم . فاتجه بها ، مع مارى وچين والحقائب ، إلى المصرف . وهنالك علم أن هارييت قد سحبت رصيد حسابه ! . . وتلقت الفتاتان هذا النبأ بكل استنكار واحتقار . وكان الحل الوحيد ، للخروج من الورطة ، وتجنب الرهن فى قسم البوليس ، هو الذهاب لمقابلة هارييت نفسها . فأعطى شللى عنوانها للحوذىّ . . فظنت هارييت ، بادىء ذى بدء ، أن زوجها قد عاد إليها . . ولم تلبث ، بدورها ، أن استنكرت ، وسخطت ، عند ما علمت بأن غريمتها واقفة بالباب . . . ومع ذلك أقرضته

بضعة جنيهات ، مكنت الجوّالين الثلاثة من سكنى بعض الغرف المفروشة الحقيرة.

وكان الجو مدلهماً ، والمركز حرجاً . فقد رفضت أسرة جودوين ، رفضاً باتاً ، استقبال العصاة الهاربين . وترافع شللى ، مدللا بأنه إنما طبق مبادىء « العدل السياسى » . . ولكن ما كان هذا إلا ليزيد فى ثورة مؤلف الكتاب وسخطه . . فقد كان « العدل السياسى » عنده كتاباً نظرياً ، قد يمكن تطبيق مبادئه فى بلاد كالحبشة . (زد على ذلك أنه كتبه من زمن طويل !) . . أما فى لندن ، فى وسط مجتمع محافظ لا يرحم ، وفى ذات بيته ، هو ، جودوين ، وبين أفراد أسرته ، وفى أعز شخص لديه ، فى ابنته الوحيدة ، العزيزة ، الأثيرة . . وتعريضه لسخرية أصحابه . . وأكثر من ذلك كله تحريف آرائه ، وقلب مبادئه . . أما هذا كله ، فلا ، ثم لا . . إنه لن يصفح عنهم أبداً ! . .

وكان لا يذكر هذه النكبة لأصدقائه إلا بعبارات أشد ما تكون صرامة . انظر ما كتبه إلى مستر چون تايلور ، من نورويتش ، قال :

[عندى حكاية أرويها لك بأشد الأسى والحزن . . فأنت تعرف من قبل اسم شللى . . . فاعلم الآن ، أن هذا الرجل ، المتزوج ، قد هرب بابنتى . . ولا أجد وصفاً لهذا الحادث المروع .

مارى ، ابنتى الوحيدة ، الصميمة ، كانت غائبة فى أسكتلندا للاستشفاء ، وعادت إلينا فى ٣٠ مارس الماضى . وجاء هو لندن فى ١٨ يونيه . فدعوته إلى العشاء باستمرار فى بيتى . وفى يوم الأحد ٢٦ يونيه ، صحب مارى وأختها جين إلى قبر والدة مارى . . وهناك ، على ما يظهر ، خطرت له الفكرة الداعرة بأن يغويها . . . وبلغ به الجنون أن يكاشفنى بخطته ، وأن يسألنى : حسن القبول ، والسمع ، والطاعة ! . . فعنفته ، وردعته بكل قواى . . فبدا عليه الرضوخ . . حتى كان ليل ٢٧ يوليه ، فهربت مارى ، مع أختها جين كليرمون ، من بيتى . وفى اليوم التالى ، عند ما استيقظت من نومى ، وجدت خطاباً على المنضدة ينبئنى بما فعلوا . .]

وهو يرجو تايلور أن يخفى هذا الأمر طى الكتمان ، حتى لا تعلق وصمة أو شائبة باسمى هاتين الفتاتين العاثرتى الحظ . . واستطرد :

[... لا أرانى فى حاجة إلى التأكيد بأنى أستخدم كلمة « وصمة » أو « شائبة » بمعنيين مختلفين تماماً فيما يختص بالاختين . إن « جين » مذنبة لتواطؤها فقط . . . أما « مارى » فمذنبة لجريمتها] . .

هذا ، فى حين أن شللى كان قد استدان ، فيما مضى ، مبالغ طائلة جداً ، ليقرضها لوالد مارى ، السيد جودوين الموقر . فما كاد يعرف المحضرون بعودته حتى بدأوا فى مطاردته واضطهاده . ولم يكن جودوين ، إزاء شللى ، عاجزاً عن السداد فقط ، ولكنه كان فى حاجة إلى مبالغ جديدة منه ! . . . وكانت هذه المسائل المالية ، هى التى أرغمته ، متحرّجاً ، على المضى فى مراسلة شاب خائن فاجر . . وكان ضميره يعذبه كثيراً لهذا الاضطرار . . أو على الأقل كان هذا مايقوله فى كل خطاب ! . .

وكانت هذه المراءاة من رجل طالما أعجب به شللى ، وعبدته مارى ، سبباً فى حزنهما ، فكانا يقولان ، وهما يتنهدان : « آهٍ منك أيتها الفلسفة ! . . »

أما مسز جودوين فقد كانت تنحى عليهما خاصة باللائمة ، لأنهما أفسدا عليها بنتها — التى ليست من جودوين ، بل من زوجها السابق كليرمون — وحظرت على « فانى » اللطيفة أن تزورهم . وذهبت هى مرة واحدة لترى « چين » ، فلقيت شللى فى السلم ، فلوّت رأسها ، وطوت عنه كشحها ! . .

وكانت العلاقات بهارييت تارة سهلة ، وتارة صعبة ، تبعاً لتقلبات طبعها . ولم يكن ينقصها شىء ، وما زالت لديها فضلة من مال شللى ، غير المعاش الذى أجراه عليها الخمّار العجوز . . ولكنها كانت حاملا ، أشقى ما تكون . . . تقضى نهارها فى رواية حكايتها بسذاجة لجيرانها ، ليثرثروا بها . . أو تكتب

إلى صاحبتها خياطة دبلن ، التى عرفتها عند ما كانت وزوجها يهديان الخلق سواء السبيل ! . .

وكانت أحياناً تعلل نفسها بالآمال . تقول لها صاحباتها إن لفحات الهوى قصيرة الآجال ، سريعة الزوال . وإن زوجها سوف يعود إليها . وعندئذ يستخفها الرضا ، وتكتب إلى شللى خطابات ودية . وكانت تعتقد أن مارى هى أُسّ الشر ، وقد سحرت پرسى بما تقصه عليه من حكايات خرافية . . وهو فى الواقع طيب القلب ، ولن يهجرها ومعها طفلاه .

وأحياناً ، تعصف بها نوبات حزن ، وسورات غضب . فتحاول أن تزيد فى متاعب الشخصين الممقوتين . فتستدين ، وتبعث بالدائنين إلى شللى . وتروى للناس أنه يعيش عيشة الخنا مع فتاتين من بنات جودوين . وتذهب لتلقى دائنى جودوين ، تحرضهم ، ليمعنوا فى قسوتهم . . وتسمع مارى بهذا كله ، وهى لم تر قط هارييت ، فتتنهد قائلة : « يا لها من امرأة فظيعة ! . . »

وفى يوم من نوفمبر ، شعرت هارييت بآلام ، وتوهمت أنها مريضة جداً . . وكان زوجها ، فى مثل هذه الحالات ، أول من يخطر ببالها ، فتناديه . . فبعثت إليه ليلا ، فهرول إليها . وكان يود لو ظل لها خير صديق ، على شريطة ألا يتحول نحوها عاشقاً من جديد . ولم تدرك هارييت الفرق الدقيق بين هذا وذاك . . فلم يكد يبدى اهتمامه بها ، وحدبه عليها ، حتى ذابت حناناً . . . وعندئذ دفعها عنه بحزم رفيق . .

وفى آخر نوفمبر ، وضعت ولداً ، ابن ثمانية أشهر . . ولم يؤد مولده إلى مصالحة أو وفاق . وكان شللى يشكّ فى أن الولد ولده .

أما مع مارى ، فبالرغم مما هما فيه من شدائد وخطوب ، فقد كان سعيداً سعادة لذيذة . كانا منسجمين ذوقاً وفكراً . يعدان الحياة فرصة ، أو جامعة يبحثان فيها ويتعلمان ، حتى يبلغا من الكبر عتياً . يطالعان كتباً بعينها ،

ويطالعانها غالباً معا بصوت عال . وكانت تصحبه فى زياراته للمحامين والمحضرين . . . وإذا ما راح يعبث على شاطىء النهر ، كما كان يفعل أيام أكسفورد ، ويلهو بحشد أسطول من الورق ، تجلس هى إلى جانبه ، وتبنى له السفن ، دون كلل ولا ملل . . . وأخذت نفسها ، تحت إشرافه ، بدراسة اللاتينية ، بل واليونانية . وكانت أوفر ثقافة من هارييت ، فلم تر فى هذه الدراسات ، كما وجدت الأولى ، سبباً للضجر أو السآمة ، بل رأتها مضاعفة لمسراتها ، فإن القبلة المتبادلة بين شخصين مثقفين ثقافة أدبية مشتركة تكون أحرّ وأحلى . .

أما الغيمة الوحيدة فى سمائهما فهى : أختها « چين » ، أو بالأحرى : « كلير » . . . فقد رأت أن اسمها « چين » قبيح ، فاتخذت اسماً جديداً أقرب إلى مزاجها وخيالها . وكانت « كلير » هذه فتاة لامعة ، جميلة ، ولكنها عصبية إلى حد المرض ، دقيقة الشعور ، مرهفة الحس ، سريعة التأثر . ولم يكن أشد خطراً على أعصابها من العيش المتصل المقيم مع شاب وشابة عاشقين . هى تحمل لشللى إعجاباً قوياً حاراً ، وتبديه بجلاء أكثر مما يحسن . . وكانت مارى تشكو من ذلك ، ولم ير شللى فى هذه العاطفة ما لا يجوز أو ما لا يليق . . فقد كان شديد الجزع من الوحدة . فلما اضطرت مارى ، التى كانت تنتظر ولداً ، أن تعدل عن التنزه على القدمين ، وعن النوم المتأخر ، ساق معه « كلير » إلى المحامين والمحضرين ، وعلى شاطىء النهر ، ورجا منها أن تسهر معه الليل الطويل . وحدثها عن : هارييت ، وعن مس هتشنر « شقيقة روحه ! » ، وعن أخواته .

وكان يحب : البوح ، والإفاضة ، والتحليل الفكرى . وبدت له الصراحة الخالصة التامة أسهل وأيسر مع كلير التى لم تكن خليلته . ولم تستطع مارى على هذا كله صبراً ، فلم تخف فروغ صبرها ، فانكمشت كلير من عتاب أختها ، وتمرمرت ، ولزمت الصمت الكئيب . .

وفى المساء ، آوت مارى إلى فراشها . فحاول شللى أن يهدىء من ثائرة كلير ، وأن يسرّى عنها . . فأخذ فى رقة وأناة يفسر لها ، حتى منتصف الليل ، العواطف المتضاربة نوعاً ما فى حزبهم الصغير . وكان من اللطف والعطف بحيث اقتنعت ورضيت ، بعدما عبست وتولّت . . وذهب فلحق بمارى ، وأعاد على مسمعها ما كان من حديث . وسمعا فوق غرفتهما كلير تمشى وتتكلم فى منامها . . ثم لم تلبث أن نزلت . فقد كانت أعصابها من التوتر بحيث لم تستطع البقاء وحدها . فأخذتها مارى فى سريرها ، وصعد شللى للنوم فى الغرفة العليا . . . وتكرر هذا الفصل مراراً ، مع بعض التغيير فى مشاهده .

وأصابت عدوى الأعصاب المتوترة شللى . ففى ذات ليلة ، بعد حديث عن الأشباح وظهور الأرواح هزيعاً من الليل ، انتهى بهم الأمر جميعاً إلى الخوف والرعب . . فكنت تسمع شللى يقول :

ـــ ماذا بك يا كلير ؟ . . إنك خضراء اللون . . وعيناك . . لا ، لا تنظرى إلىّ هكذا ! . .

فتجيبه :

ـــ وأنت أيضا ، يا پرسى ، إن هيئتك غريبة ! . . والجو مثقل بالمسوخ والغيلان ! . . فدعونا نذهب من هنا ! . .

ويتبادل الجميع تحية المساء ، ويقصدون غرفهم ، ثم لا يلبث شللى ومارى أن يسمعا صرخة حادة ، وجسما يتدحرج على السلم . . وإذا كلير قد تقلصت تقاطيع وجهها ، وتقطبت ، تروى لهما أن وسادة رأسها قد طارت عن سريرها ، كما لو كانت قد رفعتها يد خفية . . وكان شللى يصغى إليها باهتمام ورعب . . ومارى تهز كتفيها . . وتتمنى لو ذهبت هذه الفتاة المخبولة إلى حال سبيلها . .

* * *

وكان المنبوذون لا يستقبلون إلا أصدقاء قليلا عديدهم . فجماعة « بوانفيل ـ

نيوتن » ، على الرغم من فلسفتهم الفرنسية الحرة ، قد أظهروا كثيراً من البرود والامتعاض ، عند ما نفض عليهم شللى أمر حياته الجديدة . فقد كانوا ، كجماعة جودوين ، يؤثرون المسائل النظرية على التطبيقات العملية . وعلى العكس من هؤلاء وهؤلاء ، كان هج وپيكوك أول من لبى النداء ، فجاءا يسعيان . . وكانا يعتقدان ببراءة هاربيت ، ولا يوافقان شللى على مسلكه . ولكنهما كانا طُلَعتين ، يتقبلان مشاعر الحب باعتبارها أعراض أمراض هزلية . . .

وكان حكم مارى على هج قاسياً . فهى تعده ، على خفة روحه ، يخطئه الجد فى نظرته إلى الأمور . وكانت محقة فى ذلك ، لأن هج قد لبس قباء المحافظين من أهل وطنه ، وصار نصيراً للتقاليد ، يمجد الرياضة والشراب . . قال ، مرة ، لشللى : إنه يرى مارى حسناء وافرة الذكاء ، ونقل شللى رأيه هذا إلى مارى ، ومنذ زارهم على أثر ذلك ، بدأت مارى تستلطفه عن ذى قبل . . واندمج فى جو هذا البيت مرة أخرى ، كما كان من قبل ، يترجم ويطالع مع مارى وكلير . ويصحب ، دون تذمر ، هاتين السيدتين إلى صانعة القبعات . . لأنهما كانتا أيضاً تذهبان إليها مثل هاربيت المسكينة ، ولكن بروح أخرى . . فالقبعات عند مارى لازمة متواضعة ، أما عند هاربيت فكانت هواية وهُياماً .

٢١ ـ كيف كان جودوين ؟ . . .

حملت خادم « البيت المفروش » خطابا من سيدة تنتظر على الرصيف المقابل . وكان الخطاب من فانى ، ينذر شللى بأن دائنيه يعدون العدة للقبض عليه ، وإيداعه السجن ، بسبب ديونه . فنزل إليها شللى وكاير مهرولين ، فما إن رأتهما فانى حتى ولّت هاربة . . فقد كانت تخاف جودوين الذى حظر عليها كل اتصال

بالمنبوذين . ولعلها كانت أيضاً ، شديدة الإعجاب والتعلق بشللي ، بحيث لا تتمنى أن تعود فتراه منذ صار ملكاً لأختها . ولكن تلميذ « إيتون » عدّاء سريع ، فلم يلبث أن لحق بها . فأخبرته بأن المحضرين يبحثون عنه . وأن ناشره أعطاهم عنوانه ، وأن جودوين لن يحرك ساكناً لإنقاذه . .

ولما لم يكن معه مال يحرر به نفسه ، فليس أمامه إلا الاختفاء . فقرر الذهاب للعيش وحده فى مسكن آخر ، بينما تظل مارى وكلير حيث هما ، لتضليل العدو ، وذر الرماد فى العيون . وهكذا ، لأول مرة ، ضرب الفراق بين العاشقين . . وبدت لهما ، كليهما ، هذه الفرقة حرقة . ونزلا على حكم القدر ، فكانا يتواعدان على اللقيا فى الحانات أو الخانات النائية ، يتبادلان بعض القبل خلسة ، ثم يفترقان من فورهما ، خشية أن يكون هناك من يقتفى أثر الحبيبة . . وفى يوم الأحد ، وهو اليوم المحظور فيه القبض ، يبقيان معاً حتى منتصف الليل .

وفى ذات مساء ، خانتهما الشجاعة على الفراق ، وتبعت مارى شللى العزيز إلى فندق وضيع . فاشتبه صاحب الفندق فى هذين الشخصين اللذين لا متاع معهما ولا حقائب ، وأبى أن يقدم لهما طعاماً أو يدفعا سلفاً . فاستنجد شللى بصاحبه بيكوك . وراح ، فى انتظار النقود ، يطالع لها بصوت عال قصة من مجلد شكسبير ، الذى كان يحمله دائماً فى جيبه ! . . . وأنساهما هذا مابهما من جوع طول النهار . . وفى اليوم التالى ، بعث إليهما بيكوك ببعض الكعك . . لأنه هو أيضاً كان صفر اليدين ! . . وكانت هذه الحياة شاقة ، ولكنهما وجداً لذة فائقة فى المعاناة معاً . وتزاوج عندهما ، فى هناء ، البؤس والحب ! . . وكانا فى بعادهما ، ينتظران جنون الليل ، ليحميهما ، ويلقى ستره عليهما ، فيتبادلان ، على يد رسول أمين ، خطابات قصيرة ، مسوّدة سريعاً . . يكتب إليها شللى :

[أنت ! . . يا أعز غرامى ! . . لماذا حكم الدهر بأن تكون مسراتنا قصيرة ، وأن تكون متقطعة عسيرة ؟ . . ترى ، كم من الزمن سيطول هذا

الحرمان ويدوم ؟ . . موعدنا غداً ، فى الساعة الثالثة ، فى كنيسة سان بول . . .
فالى اللقاء . . لا تنسى تلاوة صلوات الحب قبل النوم . . إنى لا أنسى ،
ولا تفوتنى قط صلاتى ! . .]

فترد عليه مارى :

[مساء الخير . يا هواى ! . . . غداً سأختم بهذا التمنى على شفتيك . .
أيها الانسان العزيز الكريم ، ضمنى إليك ، واضغطنى بين ذراعيك ، والصق
مارى ، حبيبتك ، بصدرك ، لتعلق بقلبك . . . فلعلها تجد يوماً لها أباً . .
لحين يحين هذا ، كن أنت كل شىء لها . . أيها الحب ! . .]

* * *

وفى يناير ١٨١٥ ، آذنت نهاية العيش المضطرب العسير ، بوقوع حادث منتظر من وقت طويل ، دون أن يتمنوا ابتداره ، ودون أن يظهروا أى أسف مراءٍ لوقوعه . . هذا الحادث هو موت الشيخ الهرم السير بسيش شلى ، فى الثالثة والثمانين . . فأصبح مستر تيموثى بدوره باروناً ، وصار شلى وارثه المباشر . فسافر إلى بيت أبيه ، وبصحبته كلير ، وهى على أحر ماتكون : تأثراً . وتلهفاً ، وتطلعاً . فتركها فى القرية ، وقصد وحده قصر فيلد پلاس . وكان السير تيموثى (والده) منتفخاً من كبرياء لقبه الجديد : « سير : Sir » ، وهو أشد مما كان أبداً استنكافاً من أن يكون لبارون مثله : مثل هذا الولد ، فأبلغه بواسطة الخادم أنه يرفض استقباله . فجلس على السلم ، وجعل يقرأ أشعار « ملتون » ، فى انتظار الأخبار . . وما لبث الطبيب أن خرج ، وقال له إن والده كان فى حالة غضب شديد ، ثم خرج كذلك ابن عمه « سيدنى شلى » للسلام خفية على « الابن الملعون » ، وإحاطته بتفاصيل الوصية .

وكانت وصية خارقة للعادة . فقد كان لايدور بخلد الشيخ العجوز ، السير بسيش شلى ، غير فكرة واحدة ثابتة ، هى تكوين ثروة هائلة ، يتوارثها الخلف

عن السلف . وكان ذلك يقضى بأن يزيد فى حبس الأملاك ووقفها قدر طاقته . فترك ٢٤٠,٠٠٠ جنيه إنجليزى ، منها ٨٠,٠٠٠ جنيه تمثل الوقف الذى يعود إلى پرسى حتما عند موت والده . ويكون الباقى حراً . ولكن السير بسيش أراد أن يضم هذا الباقى إلى الـ ٨٠,٠٠٠ جنيه ، ليكوّنا معاً كتلة هائلة ، قابلة للانتقال من الولد الكبير إلى الولد الكبير من آل شللى القادمين الخلفاء الصالحين ! . . ولا مندوحة للرضا بهذا ، والقبول ، عن توقيع حفيده ، وقد أمّل ، فى الوصية ، شراء هذا التوقيع بالطريقة الآتية :

« إذا قبل پرسى شللى امتداد الوقف ، يكون له حق الانتفاع بريع الثروة كلها ، بكاملها . . وإذا لم يقبل ، فإنه لا يرث (بعد موت أبيه السير تيموثى) إلا ٨٠,٠٠٠ جنيه إنجليزى فقط ، لاسبيل إلى حرمانه منها بأى حال من الأحوال . »

فعاد شللى إلى لندن ، وهو سارح الفكر فى هذه الأخبار الغريبة . وقصد محاميه ليناقشه فيها . وقدّر استحالة قبوله امتداد الوقف ، لأنه يأبى تشريعاً شاذاً كهذا ، يجعل الثروة بمنزلة رب من الأرباب ، تُفرض عبادته وتقديسه ! . وكذلك يأبى ، سواء لنفسه أو لأولاده ، حيازة مثل هذه الثروة الهائلة . أما ما كان يتمناه ، فهو أن يحصل فى الحال على دخل كاف للعيش حسب مزاجه ، وعلى مَبلغ صغير يكفى لتسديد ديونه . فأرسل اقتراحاً إلى أبيه : بأنه مستعد لأن يبيعه حقوقه ، نظير دخل عاجل . وراق هذا الاقتراح للسير تيموثى شللى ، إذ كان قد أضاع كل أمل فى رد پرسى عن غيه ، وحمله على الطاعة ، ولم يعد يفكر إلا فى ولده الثانى . . غير أن رجال القانون ، لسوء الحظ ، لم يفصلوا فى شرعية تحقيق هذه الرغبة المشتركة بين الوالد والولد ، بسبب شروط الوصية ، لكنهم أجازوا فقط أن يبيع شللى إلى أبيه جانباً من الميراث ، نظير دخل سنوى قدره ألف جنيه إنجليزى ، ويأخذ ، بادئاً ، مبلغ ثلاثة أو أربعة آلاف جنيه نقداً لسداد ديونه . ولم يكن هذا بالنسبة لشللى : الثروة الطائلة . ولكنه كان ، على

الأقل ، نهاية الضيق والبأساء ، وسكنى الغرف المفروشة ، وزيارة المحضرين . . .

واتجه فكره ، أول ما اتجه ، إلى ربط معاش لهارييت . فوعدها بمئتى جنيه سنوياً ، إذا أضيفت إلى تلك التى يعطيها إياها أبوها وستبروك ، جعلتها فى مأمن من كل حاجة . ثم عمل على دفع ديون جودوين ، ورصد لذلك دخل عامه الأول كله ! . .

بيد أن « الصديق الموقر » رأى أن هبة الألف جنيه هى دون ما كان ينتظره بكثير ، بكثير . . . ومن كان يسمعه شاكياً ، يعتقد أنه ليس أسهل من الاستدانة على ميراث أصبح الآن دانياً ، ألوف الجنيهات التى كانت مكتبته بشارع سكنر فى أشد الحاجة إليها ! . . وقد تميز شللى من الغيظ ، وتلظى حنقاً . . ولكنه تمالك نفسه ، متأدباً ، وعبر لجودوين ، مستنكراً ، عن دهشته من أن يرى والد مارى أنه من الطبيعى الكتابة إلى مغتصب ابنته سائلا إياه مالا ، ويأبى ، فى الوقت نفسه وصل العلاقات ، وعودة المياه إلى مجاريها ، مع هذه البنت نفسها ، التى بلغ بها الضعف حدّ التألم من القطيعة . فأجاب جودوين أنه لهذا ، على وجه الدقة والتحديد ، أى بسبب استدانته من مغتصب ابنته ، لا يستطيع أن يفتح لها أبواب بيته . فكرامته تأبى عليه ذلك . فهو لن يجازف بأن يتقول عليه العالم أنه قايض على شرف ابنته نظير دفع ديونه . وبالغ جودوين فى التشدد والتحرج بحيث رد « شيكا » مرسلا من شللى باسمه ، موجهاً نظره إلى أن اسمى : « شللى » و « جودوين » لا يليق بعد أن يظهرا معاً على شيك واحد ! . . فليبعث شللى بالشيك باسم مستر « فلان » أو « علان » ، وعندئذ ، وعندئذ فقط ، يرضى جودوين بتحويله إلى « جودوين » ! . .

من شللى إلى جودوين :

[سيدى . . أعترف بأنى لا أفهم ، بأى حال ، كيف أن التعهدات المالية بيننا تضطرك إلى فرض قيود لسلوكك معى . فهذه « التعهدات » لم يكن لها وجود عندما عدت من فرنسا ، ومع ذلك كان مسلكك يومئذ معى ومع ابنتك هو

مسلكك اليوم ، سواء بسواء . وعندى أنه لا أنا ولا هى نستحق مثل هذه المعاملة التى نلقاها من كل جانب . وكان من واجبك ، خاصة ، أن تحرص كل الحرص على ألا تصور لعيون الناس : أسرة فتية ، بريئة ، طيبة ، متحدة : فى صورة تختلط بصور الداعرات من النساء ، والفجّار من الرجال . .

تحدّث عن دهشتى واستنكارى ، ولا حرج . . لهذا . . ولأ كثر منه ، عند ما أرى أنك ، من أجل نفسك ، ومن أجل أسرتك ، ومن أجل دائنيك ، تكون مستعداً لاستئناف الصلات معى ، أنا الذى سبب لك كل ما كان من رعب واشمئزاز ! . . . فلا تحدثنى بعد عن الصفح ، لأن دمى يغلى فى عروقى ، وقلبى ينخلع نفوراً من كل ما له شكل بشرى ، عند ما أفكر فى الازدراء أو العداء الذى لقيته ، أنا ، المحسن إليكم ، والصديق المتحمس لكم ، منك ومن الجنس البشرى كله] . .

من جودوين إلى شللى :

[آسف إذ أقول إن خطابك مكتوب بأسلوب هو النقيض من الوفاق ، بحيث إذا أجبت عليه باللهجة نفسها ، اشتبكنا فى جدال مر لا ينتهى . . . وما دام فىّ عرق ينبض بالادراك والاحساس ، فانى لن أكفّ عن استنكار فعلتك ، تلك التى أعدها شرّ بلوى فى حياتى . . .]

من شللى إلى جودوين :

[سنقف صلاتنا ، من الآن فصاعداً ، عند حد الأعمال والأشغال ، وإنى أوافق تماماً على ما تراه من ضرورة الاقتراض على معاشى السنوى . وإنى أرى جلياً إلى أى حد تلزمك حالا سلفيات من المال لسداد حاجاتك . . وسأبذل كل ما فى وسعى لأحصل لك عليها . . .]

وهذا من شللى ، هذا الاحتقار فى برود ، وهذا الإحسان فى صدود ، ماكانا ليوهنا من عزم المقترض على الاقتراض ، ومد الأكفّ وتصعير الخدود ! . .

وكذلك كان جودوين ! . . .

٢٢ – دون جوان المغلوب ! . . .

وضعت مارى طفلا لم يتم حمله ، فقال الطبيب : إنه لن يعيش . وظل شللى ساهراً ، مقسّما فؤاده بين المهد وسرير النفساء ، مؤتنساً فى سهره بصحبة المؤرخ اللاتينى « تيت ليف » ، أو الفيلسوف « سنيكا » . . من حكماء الزمن الغابر ! . .

وحملت « فانى » صندوقاً خشبياً لملابس الطفل ، هدية من مسز جودوين الغريبة الأطوار . وإن كان زوجها الفيلسوف العَجْر قد ظل صلباً لا تلين له قناة . وجاء هج فأنزل السكينة على قلب مارى بحديثه اللاذع الفكه . . فقد كان أقرب إلى الأرض من صاحبه شللى ، الذى يحلّق دائماً بمارى فى عنان السماء ، حتى ليكاد يصيبها الدوار والإغماء ! . .

ونما الطفل برغم النبوءة ، وعاش شهراً . . فبدأت تطمئن . . ولكنها استيقظت ذات صباح ، فوجدته ميتاً . . فكان الحزن ، وكان الشجن . .

واستمر شللى وكلير يجوّلان لندن معاً ، ومارى باقية فى البيت ، تشتغل بالإبرة ، وتفكر فى طفلها الصغير ، الذى جعلها أماً ، ثم حرمها الأمومة . . فقد استيقظت فوجدت المهد خالياً . وفى الشارع يسمع ضجيج الجماهير وصياحها. إذ كان الوقت وقت اضطرابات وشغب . فقد عاد نابليون من جزيرة إلبا ، وجاءت تهديدات بالحرب من جانب فرنسا . . ومارى كأن على عينيها سحابة من الدموع . .

كان بقاء كلير وإقامتها الدائمة بالبيت ، مما يزيد فى انشغالها . . هى واثقة من أن كلير تحب شللى ، وأنها أحبته على الدوام . وكان إخلاص پرسى بديهياً ، واستقامته لا غبار عليها . وكان خلقه إنسانياً عالياً ، بل ملائكياً . ولكنه يزعم استطاعته قراءة مؤلفات « بترارك » مع فتاة مولعة ، يوجه دراساتها

ومطالعاتها ، ويسهر معها الليالى الطويلة ، دون أن يشغفها حباً ! . . وفكرت مارى فى نفسها : « ذلك أن حبيبى شللى الفنّان يعرف جنيات النار والأرض والهواء « Elfes » ، أكثر مما يعرف النساء ! »

ولما انفرد بها عشاء ، اعترفت له بغيرتها . والغيرة عنده عاطفة خسيسة ، تنقص فى عينيه من قدر معبودته مارى . . أى شىء يمس حبه إياها ، إذا ما بسط حمايته على امرأة سواها ؟ . . لقد كانت صحبة « كلير » الذكية المتوحشة ثمينة لديه ، غير أنه سلَّم بأن جو بيتهم الثلاثى صار خانقاً . وتوسلت إليه مارى أن يدع أختها تذهب . . وبحثا لها طويلا عن وظيفة مربية أطفال . غير أن السمعة الغريبة التى أدركتها بفرارها إلى فرنسا جعلت كل مسعى عديم الجدوى . . فضلا عن أن كلير لم تكن تود الذهاب . كانت متلذذة بصحبتها الروحية الفكرية لشللى ، تنتظر التطورات بلا انزعاج . . وأخيراً ظفر بها لطف مارى الحازم ، وحملها على قبول ما أُعد لها من النزول ببلدة « لينموث » ، عند أرملة من أصدقاء أسرة جودوين .

من يوميات « مارى »

« الجمعة – لست على ما يرام . قرأت بعد الافطار « سبنسر » . خرج شللى مع صاحبته (تقصد كلير) ، وعاد قبلها . . ترجمت من « أوفيد » تسعين سطراً . جاء جفرسون هج ، فقرأت عليه ما ترجمت . خرج شللى والسيدة (تقصد كلير !) بعد الشاى . المحادثة الأخيرة بين شللى وصاحبته » . . .

السبت – رحلت كلير ، وصحبها شللى . تأخر فى العودة ، فقلقت عليه ، وخرجت فى طلبه . السماء تمطر . عاد فى منتصف السابعة مساء . انتهت المسألة . . سأبدأ يوميات أخرى لحياتنا الجديدة » .

* * *

كلير ، فى منفاها الريفى ، تستمتع لبضعة أيام بالهدوء الشامل ، بعد عيشتها الهائجة العاصفة . . غير أنها لم تكن بالتى تقنع طويلا بالوحدة الخلوية . فبحثت

عن سبب للعيش ، ولم تلبث أن وجدت . . أما وهي ذكية جريئة ، وقد أدركت استحالة أخذ شللى من أختها ، أو حتى مشاركتها فيه ، فقد بحثت بجسارة عن بطل آخر لعواطفها المكبوتة . وبعض النساء الهائمات ، في مثل هذه الحالة ، يبعثن برسائل إلى عظماء القواد ، أو شهيرى الممثلين . . أما هي ، المثقفة ، فقد بحثت لها عن شاعر ! . .

لم تجد أليق بها من لورد بيرون ، الرجل الذى يُعبد عبادة ويُلعن لعناً ، في انجلترا من أقصاها إلى أقصاها . وكانت تحفظ عن ظهر قلب أشعاره ، التي طالما رددها شللى بصوت عال في حماسة . . وكانت تعرف ما نسج حول اسمه ، من أساطير الرذيلة والمجون ، والفتنة الشيطانية ، والقسوة الجهنمية .

جمال الرجل ، وعظمة الاسم ، وعبقرية الكاتب ، وجرأة أفكاره ، وفضائح غرامياته : كل هذه اجتمعت لتجعل منه البطل الكامل . وكانت له خليلات من أرقى الطبقات : الكونتس أكسفورد ، واللادى فرانسيس وبستر ، وتلك الشقية العاثرة اللادى كارولين لام Lamb ، التي ، عندما رأته لأول مرة ، كتبت في مذكراتها اليومية : « مجنون ، شرير ، خطرة معرفته » . . .

وتحت هذا : « ولكن في هذا الوجه الجميل الشاحب قسمتي ونصيبي » . . .

وحين تزوج ، روى أهل لندن جميعاً : أنه ، بعد عقد الزواج ، وعروسه : اللادى بيرون ، تصعد إلى مركبة الزفاف ، قال لها : « ها أنت ذى قد صرت زوجتي ، وهذا يكفى لأن أمقتك . . ولو أنك كنت زوجة رجل سواى ، فلربما أحببتك ! » . وعاملها باحتقار ، حملها على طلب الانفصال عنه بعد عام واحد .

ولما كانت كلير لا تحب إلا المرتقى الصعب ، والمركب الخشن ، وكانت واثقة من نبوغها ، فقد حصلت على عنوان دون جوان (لورد بيرون) . . واعتزمت أن تجرب بختها . .

من كلير الى بيرون :

[إنها غريبة تماماً ، تلك التى سمحت لنفسها بمكاتبتك .. ولست أسألك إحساناً ، لأننى فى غنى تام عن ذلك . . . وأرانى أرتجف خوفاً على مصير هذا الخطاب . ومن ذا الذى يلومك إذا أنت رأيت فىّ ثقلا ولجاجة ؟ ! . . وقد يبدو لك عجباً ، ومع ذلك فهو صحيح ، أننى أضع هنائى بين يديك ! . . فاذا كانت ثمة امرأة لا غبار على سمعتها ، وليست فى حراسة أب ، ولا فى حيازة زوج ، تلوذ بعطفك .. وإذا كانت هذه المرأة تبوح لك ، والقلب يخفق ، بأنها تحبك منذ سنوات عديدة .. وإذا كانت تكفل لك السر والكتمان والأمان .. وإذا كانت على تمام الاستعداد لتلبية ما قد تتجاوب به نفسك من محبة ، وما قد تهفو إليه من تفان ليس لها حد .. فهل تراك تخونها ، أم تتخلى عنها ، أم تلزم الصمت كالقبور ؟ .. أريد منك رداً بلا تأخير .. اكتب إلى باسم : « ا . تريفونزيس » تولى بلاس . . ماريلبون]

فلم يردّ دون چوان . فقد كانت هذه المجهولة ، ذات الأسلوب المتقعّر ، صيداً هزيلا للورد النبيل . . ولكن هل هناك أشد عناداً من امرأة متعبة من عفتها ، زاهدة فى فضيلتها ؟ . . فهاجمته للمرة الثانية :

[الرجاء من لورد بيرون أن يفيد ؛ هل يستطيع فى الساعة السابعة من مساء اليوم استقبال سيدة ترغب فى أن تدلى إليه بمسألة فى الدرجة القصوى من الأهمية ، وتريد أن يستقبلها على انفراد ، وفى أشد الكتمان ؟] . .

فأمر لورد بيرون خادمه أن يجيب بأنه ليس فى لندن ! . .

وعندئذ كتبت إليه باسمها الصريح ، قائلة إنها تريد الدخول فى التياترو ، وتعرف أن لورد بيرون معنيّ بمسرح « درورى لين » ، وترغب فى استشارته . فرد بيرون ، فى هذه المرة ، مشيراً عليها بأن تقصد مدير المسرح . فلم تتزعزع أو تتقهقر ، بل تحولت من فورها ، بذكاء خارق ، وغيرت الميدان . فهو ليس التياترو ، وإنما الأدب الذى تريد أن تعمل فيه وتدأب . . وقد كتبت نصف قصة ، وتتمنى لو عرضتها على لورد بيرون لإبداء رأيه فيها . ولما استمر ملازماً

الصمت عنها ، أو الرد للتخلص والتملص ، جازفت بعرض الشيء الوحيد الذى قلما يرفضه زير النساء المعتز :

[قد أبدو لك متهورة ، فاجرة . ولكن شيئاً واحداً سوف تبديه لك الأيام ، هو أنى أحب حباً رقيقاً حنوناً ، وأننى أبعد ما أكون عما يمكن أن يعد انتقاماً ، أو كيداً . . . فثق أن مستقبلك عندى كمستقبلى . . .

فهل لديك مانع من تحقيق الخطة الآتية ؟ . . سأخرج معك ، مساء الخميس ، من المدينة ، فى مركبة خاصة أو عامة ، بعيداً عن لندن بعشرة ، أو اثنى عشر ميلا . . وهناك نكون حرين ، مجهولين . . . ونعود فى ساعة مبكرة من الصباح التالى ، كل إلى داره . . وقد رتبت كل شيء هنا ، بحيث لا يمكن أن يساور أحداً أدنى الشكوك . فهل تراك تسمح لى بالعيش معك بضع ساعات ؟ . . وأين ؟ . . إننى لن أبقى لحظة بعد أمرك لى بالانصراف . . . وافعل بعد ذلك ما بدا لك . . واذهب ، تنقّل فؤادك حيث شئت من الهوى . . وارفض أن ترانى . . واقس ماطابت لك القسوة ، فلن أذكر منك إلا رقة شمائلك ، ووحشية طبعك الشائقة] ! . .

ها هو ذا دون چوان ، آخر الأمر ، قد وقع فى الفخ . . تعب من طول المطاردة ، وتقبل هزيمته من هذه الغازية . . . وكانت نفسه من قبل تهفو إلى مفارقة انجلترا ، والعيش فى سويسرا أو إيطاليا ، فحمله يقينه بالرحيل العاجل ، على الترحيب ، إلى حد ما ، بهذه الغرامية المفروضة عليه فرضاً ، المغتصبة منه اغتصاباً !.

٢٣ — آريل ودون جوان

لم يكن دون چوان يتوقع أن يلقى الاضطهاد الطويل ، من « صيده الهزيل » . فقد قررت كلير : أن تتبعه إلى سويسرا . وكانت تلك الفتاة ، بمحياها الشاحب ، وعينيها القاتمتين ، ذات صلابة وإرادة . فعملت على أن يرافقها شللى ومارى ،

كما لو كانا وليّي أمرها . علماً منها بأنهما دائماً يرحبان بفكرة السفر ، وشد الرحال ، وتغيير حال بحال . .

وكان شللي قد انتهى من ملحمة جديدة « قرين الوحدة » . . تمثل ذات حكايته ، وما أصابه من دهره وأهله ، عبر في مقدمتها عن : « ظمأ الشاعر للحب ، وموته لأنه لم يجد حباً . . وهو يموت راضياً ، قرير العين ، للخلاص ممن حوله من الناس : الأحياء الموتى . . أولئك الذين لا هم بالأصدقاء ، ولا بالمحبين ، ولا بالآباء ، ولا بالمواطنين الأوفياء ، ولا بالمحسنين الكرماء . . فعيشهم وموتهم سواء . »

ولم يكن شللي نادماً على ما فعل ، ولكن العيش في انجلترا أصبح عنده مر المذاق . وكانت ماري ، رفيقته لا قرينته ، تشكو من وحدتها ، وعزلتها عن الحياة الاجتماعية ، عزلة تكاد تكون تامة . . وترجو أن تجد في البلدان الأجنبية فرصة لاتخاذ صديقات لها ، حيث لا تُعرف حكاية هربها ومغامرتها . . وقد وضعت ولداً ثانيا ، في يناير ١٨١٦ ، طفلا قوياً جميلا ، سمته « وليم » ، تيمناً بأبيها « وليم جودوين » ! . فزاد على بيتهم شخص المرضع ، فضاق البيت بنفقاته ، وتضاءل معاشه ، وكان يقال إن العيشة في سويسرا رخيصة . . أو أن كلير ، على الأقل ، لم تجد صعوبة في إقناعهما بذلك ! .

وها هو ذا ثالوثهم العجيب ، كما كان يوم فرارهم الأول ، وإن كان أكثر يسراً ، يجتاز : باريس ، وبورجونيا ، والجورا ، وينزل بفندق انجلترا ، في سيشرون ، من ضواحي جنيف . . . وكان الفندق على شاطىء البحيرة ، ترى منه أشعة الشمس الراقصة على المياه الزرقاء ، ومن ورائها ، ترتعش ، الخطوط القاتمة للجبال الشامخة المتوجة بالجليد . . فبدا لهم ، بعد نجاتهم من صقيع لندن ، أن هذه المشاهد ، المرصعة بأمواج الشمس الحنون ، غاية في الجمال . . فاستأجروا مركباً ، وقضوا الأيام بطولها في البحيرة ، يقرأون ، وينامون . . .

* * *

وبينا كان هذا الفريق من الأطفال السعداء ، يعيشون هكذا بين الماء والسماء . كان تشايلد هارولد [1] ينزل نحوهم ، من صخور انجلترا ، فى موكب حافل . . فهذه البلاد ثارت عليه ، فى نوبة عارضة من نوبات الفضيلة التى تصيبها وتتتابع عندها ، مع المألوف فيها من منتهى التسامح المدهش ، فهبت وطردته عن شواطئها ، طردت السيد دون چوان المتهم بالزنا بمحْرم . . كان إذا ما دخل حفلة راقصة ، هربت النساء جميعاً من أمامه ، كما لو كان هو إبليس شاخصاً فى رجل ! . فقرر أن يهجر ، للأبد ، وطنه المرائى . . ومع ذلك أثار رحيله أشد التطلع . . فإن المجتمع ، الذى يعاقب بقسوة أية فتنة فى الغرائز ، يحسد فى صميمه مرتكبيها ، ويعجب بآثمها . ففى دوڤر ، عند ما بدأ الركب يشد رحاله ، تزاحم صفان هائلان من المتفرجين عند مدخل الميناء . . واستعارت كثيرات من النساء النبيلات والراقيات ملابس وصيفاتهن وخادماتهن ، ليختلطن بالجماهير ، دون أن يستلفتن الأنظار . . وبدأوا ينزلون الصناديق الضخمة ، التى تحوى : سريره ، ومكتبته ، وآنيته الفضية . . وكان البحر هائجاً ، فذكر بيرون لرفقائه أن جده ، الأميرال بيرون ، كان معروفاً فى الأسطول باسم « چاك العاصفة » . . لأنه لا يحب الإبحار فى غير الزوابع والزعازع . . وكان بيرون ، برحيله ، تعساً شقياً ، فأراد أن يكون ألمه عظيماً كالإعصار . . .

* * *

وبعد ... ة أيام من هذا ، حدث هرج ومرج غير عاديين ، فى « فندق انجلترا » بسيشرون سويسرا . والكل واقف يترقب وصول الشاعر اللورد النبيل ، وكلير ترتجف تأثراً ، رغم جسارتها ، وشللى مرح نافد الصبر ، فتهمة السفاح ، وعلاقة بيرون وكلير ، ما كانتا لتصداه أو تبعداه . فهو يرجو أن يرى بين بيرون وأخت صاحبته مثل روابط الحب الوثيقة التى تربطه بمارى . .

---

(١) كناية عن لورد بيرون مؤلف الديوان المعروف بهذا الاسم .

أما ماري ، فكانت سعيدة بأن ترى كلير قد عُزِلت ، وصارت إزاءها على الحياد ، وإن تعرضت بهواها للأخطار .

ولم تخيب رؤية بيرون منهم الآمال . فقد كان جمال محياه رائعاً . وأول مايروعك منه الزهو والذكاء . ثم شحوب بشرة كضياء القمر ، تتلألأ في وجهه عينان نجلاوان في زرقة قاتمة ، شعره أسود ، وحاجباه مقوسان . . وأنفه وذقنه يدلان على العزم ، وفمه يدل على الاشتهاء . . وكان العيب الوحيد في هذا المخلوق الجميل يبدو عند مشيه . . يقولون عنه إنه يعرج ، ويقول عن نفسه إنه يظلع ، كما يفعل الشيطان ! . . ولاحظت ماري ، لساعتها ، أن هذا العرج يسبب له الخجل . فكان إذا ما خطا بضع خطوات أمام الناس يلقي جملة شيطانية . . كتب في سجل الفندق ، بعد اسمه ، أمام كلمة « العمر » : « ١٠٠ سنة » ! . .

سر الرجلان بمعرفة كل منهما الآخر . . وجد بيرون في شللي رجلا من طبقته ، استطاع ، رغم عسر عيشه ، أن يحتفظ باليسر الشائق ، المطبوع في الشباب ذوي العنصر الكريم . وأدهشته منه ثقافته . فهو - أي بيرون - قد قرأ كل ما قرأ شللي ، لكنه لم يقرأ بكل هذا الجد الخارق للعادة . فقد أراد شللي أن يعرف ، وأراد بيرون أن يبهر . وأدرك بيرون ذلك الفرق تمام الإدراك . وكذلك أدرك في الحال أن إرادة شللي هي قوة نقية خالصة ، في حين أنه هو نفسه يطفو على تيار شهواته ، وهوى خليلاته . .

وكان شللي ، لتواضعه ، لايرى هذا الإعجاب الذي يحمله له بيرون ، ويُعنى بإخفائه عنه . في حين أنه هو ما استمع النشيد الثالث من « شيلد هارولد » ، حتى تأثر من التحمس له ، وعجزه عن مجاراته . فقد عرف في هذا الشعر العبقرية المؤاتية ، التي ينس من اللحاق بها ، أو التحليق إليها . .

وإذا كان الشاعر يخلب لبه ، فإن الرجل يدهشه كثيراً . فقد توقع طاغية ثائراً . فإذا به يجد سيداً « أرستقراطياً » عظيما ، صريحاً ، شديد الحفاوة بما

يبعثه الغرور فى النفس من مسرات وآلام ، يزدريها شللى ، ويرى فيها الهلاك ، لأنه ، بعكس بيرون ، أقل الناس غروراً . . وكان بيرون قد تجاسر وواجه مبتسر الأحكام ، وتحدى ما اصطلح عليه العرف والعادة . . وإذ وقفت هذه الأحكام فى طريق رغباته ، طرحها جانباً ، على أسف منه . . أما ما فعله شللى بسذاجة ، فقد فعله بيرون عن معرفة وجسارة ، فالمجتمع قد طرد بيرون من رحابه ، ولم يكن بيرون يحب شيئاً ويقدره كالظهور والبروز فى المجتمع . وكان زوجاً رديئاً ، ومع ذلك كان لا يحترم إلا الحب المشروع . وملء فمه الأقوال الساخرة الكافرة ، لكنها تصدر عن نقمة لا عن يقين ، وهو لايعترف بأمر وسط بين الزواج والفجور ، وقد حاول أن يبذر بذور الرعب فى انجلترا ، بلعبه ذلك الدور الجرىء الزنيم ، ولكنه إنما فعل ذلك يأساً من عجزه عن امتلاك قلوب مواطنيه بعمل تقليدى كريم .

كان شللى ينشد فى النساء ينبوعاً للحس والوحى والإلهام ، فى حين لايبحث بيرون فيهن إلا عن سبب للراحة والخمول ، والفتور عنهن . . كان شللى ملائكياً ، سماوياً ، يقدسهن . . أما بيرون ، فكان بشرياً ، أرضياً ، يشتهيهن ، ويحتقرهن ، وينعتهن بأفحش النعوت . . كان يقول : « ما أفظع النساء ، لأننا لا نستطيع العيش معهن ، ولا بدونهن »[1] ! . . وكان يقول أيضاً : « إن مثلى الجميل الأعلى هو امرأة من الفطنة بحيث تفهمنى وتقدر ذكائى ، ولكنها ليست من الفطنة بحيث تتمنى أن تلوّح بنفسها ويعجب بها ! . » .

على أن هذا لم يحل دون الصحبة الشائقة بين شللى الصوفى و « دون چوان » . وكان كلاهما يحب ركوب البحر إلى حد الهوس . فاشتركا فى شراء مركب ، يبحران به كل مساء ، مع مارى وكلير وطبيب بيرون الخاص ، وهو شاب إيطالى جميل ، يدعى « پوليدورى » . فيجلس بيرون وشللى صامتين ، يتبعان

(١) مما يؤثر عن الامام على فى هذا المعنى : « النساء شر كلهن ، وشر مافيهن : الحاجة إليهن » ا.

ببصرهما الصور الهاربة من السحب فى طيات أضواء القمر . . بينا كلير تغنى ، وصوتها الشجى يحمل الفكر ، ويحلق به فى اشتهاء ، فوق المياه المرصعة بالكواكب . .

وفى مساء ريحه عاصفة ، تحدى بيرون النوء ، وسخر من العاصفة ، قائلا إنه سيغنى لهم أغنية ألبانية :

ـــ والآن هزوا مشاعركم ، وحركوا عواطفكم ، وأعيرونى آذانكم ! . .

ثم كانت أغنيته أن صدرت منه صيحة قلد فيها نعيب البومة الموحش المزعج . ثم انفجر ضاحكا من خيبة أملهم ، إذ كانوا يتوقعون غناء شرقياً حنوناً . ومن حينها ، أطلقت عليه مارى وكلير اسم « الألبانى » ، أو تختصرانه : « إلبه » !

وقام شللى وبيرون معاً بحج أدبى حول بحيرة جنيف ، التى شهدت غراميات روسو وفولتير . . وهناك هبت عليهما رياح هوج ، كادت تقلب المركب . . وخلع بيرون ثيابه استعداداً . . أما شللى ، الذى لم يكن يعرف العوم مطلقاً ، فقد ظل ثابتاً لا يتزعزع ، وذراعاه متعانقتان على صدره . . فزادت شجاعته هذه فى تقدير بيرون له ، وإعجابه به ، وإن غالى فى إخفاء ذلك عنه أكثر من ذى قبل !

وسئم شللى ومارى حياة الفندق ، فاستأجرا كوخاً على شاطىء البحيرة . . وسكن بيرون « ڤيلا ديوراتى » على مقربة منهما ، لا يفرق البيتين إلا مزرعة عنب .

هناك ، حدث ، ذات صباح ، أن شاهد زارعو الكرم فى صباح مبكر « كلير » خارجة من ڤيلا بيرون ، وهى تجرى عائدة إلى بيت شللى . فانخلعت إحدى فردتى « شبشبها » ، فلم تتوقف لتأخذها ، خشية العار من أن يراها أحد . . فلم يكن من هؤلاء الفلاحين السويسريين الأمناء إلا أن التقطوها ، وأسرعوا إلى عمدة البلد ، حاملين « شبشب الـ (مس) الإنجليزية » ! . .

ولم توفق كلير فى حبها . فقد حملت ، وبرم بها بيرون ، وأفهمها بخشونة أنه سئمها . وربما صادفته لحظة من دهره أعجب فيها بصوتها وحيويتها ، غير أنها لم

تلبث أن ثقلت عليه، فاجتواها . ولم يكن ليعترف بأى واجب عليه نحو هذه الفتاة التى ألقت عليه نفسها ، بكل ذلك التشبث الممقوت ، والإصرار الممجوج . .

قال : « أأنا أخذتها ؟ . . خطفتها ؟ . . ليت شعرى من الذى أُخذ وخُطف فى هذه الحكاية ، إن لم يكن المسكين العزيز : « أنا » ؟! . . . وهم يتهموننى بأنى غليظ القلب مع النساء . . والله يعلم أننى كنت ، طول عمرى ، شهيدهن ! . . ولم يحدث ، من عهد حرب طروادة حتى الآن ، أن أُخذ رجل وخُطف بعدد ما أُخذت وخُطفت . . وما أنا فى هذا إلا ضحيتهن ! . . » . .

وقصده شللى ، ليناقشه فى مستقبل كلير وطفلها المنتظر . . أما فيما يختص بالفتاة ، فإن اللورد النبيل كان زاهداً فيها تماماً ، لايهمه من أمرها كثير ولا قليل ، ولا يعنيه إلا أن يخلص منها فى أقرب وقت ، فلا يراها أبداً ! . . وأما عن الولد ، فقد خطر لبيرون أن يعهد به إلى أخته أوجستا !.. فلما رفضت كلير ، وعد بالعناية به ، عند ما يبلغ سنة من عمره ، على شريطة أن يكون فى ذلك مطلق التصرف .

وأصبح من الصعب على شللى وأهله هؤلاء ، أن يبقوا بجوار بيرون ، لا لفتور ما بين الرجلين ، وإنما لأن كلير كانت تتألم ، كما أن مارى اشمأزت من موقفه وأقواله اللاذعة . وكانت ترتجف غضباً حين تسمعه يقول : إنه ليس من حق النساء : تناول الطعام مع الرجال على مائدة واحدة ، وإن مكانهن هو فى « الحريم » ، أو بين « أربعة جدران » ، تحت حراسة الحراس . .

فضلاً عن أنه قد عاودها ، مرة أخرى ، الحنين إلى الأوطان ، واشتاقت إلى بيت إنجليزى صغير ، على ضفة غدير ، ترى فيه ملاذاً للوئام والسلام . . فكتب شللى إلى صديقيه « پيكوك » و « هج » ، ليستأجرا له بيتاً . .

وبدأت القافلة ، صوب الوطن ، تسير . . .

* * *

وبعد رحيلهم ، كتب بيرون إلى أخته أوجستا :

[بالله لا تزجريني . . فماذا كنت أستطيع ؟ . . إن فتاة حمقاء ، على الرغم من كل ما عملت وما قلت ، أرادت أن تتبعني ، أو بالأحرى أن تسبقني . وتتقدمني ، لأني وجدتها هنا .. ولقيت الأهوال حتى أقنعتها بالرحيل عني ، والعودة من حيث جاءت . . فذهبت أخيراً ، بعد لأي ، إلى غير رجعة !

والآن ، يا أعز عزيزة ، أقول لك الحق ، إنني لم أستطع مع هذا حولا ، وقد بذلت كل ما في جهدي لأحول دونه ، وأمنع وقوعه . ولم أكن مغرماً بها ، لا ، ولا في مهجتي متسع لأي إنسان . . . بيد أنني مع ذلك لم أستطع لعب دور الزاهد المتشكك ، مع امرأة قطعت ثمانمئة ميل ، لتخرجني عن عفتي ، وتسفه حكمتي ! . . . والآن قد علمت من الأمر ما أعلم ، وانتهى الحال عند هذا المآل ، وانتهينا منها ، وكفانا الله شر القتال ! . .]

وظل شللي يراسل بيرون ، ولم يقنط من « إنقاذ » صاحبه . وكان يمزج لهجة التقدير والإكرام للشاعر العظيم ، بالتعالي عن خلق الرجل غير القويم .. وعارض قلق بيرون المتوالي فيما يتعلق بسمعته وشهرته ، بصورة المجد الحقيقي :

[أعبثاً إذن خلقْ العظمة والرحمة ، وبسطهما على الناس ؟ . . أعبثاً إذن أن يكون المرء ينبوعاً تستمد منه عقول سواه من البشر القوة والجمال ؟ . . ترى ، ماذا كانت تكون الانسانية ، لو لم يكتب هوميروس وشكسبير آياتهما البينات ؟ ! . . . لست بهذا أشير عليك بالطموح إلى المجد . فان حوافز عملك ودوافعه ، يجب أن تكون أنقى وأرق . فلا ترج أكثر من أن تعبر عن ذات أفكارك ، وتتجه بها نحو أولئك الذين يتأثرون بها ، لأنهم يستطيعون الانسجام معها ، والتفكير على مثالك .. والمجد يتبع أولئك الذين هو غير جدير بأن يقودهم . . .]

وكان لورد بيرون ، في تلك الأثناء ، متجهاً نحو فنيس ، مدينة الجندول ، الناعسة الجفون . فقرأ هذه النصائح السامية ، في كلال وتراخ ، وعدم اكتراث . كان يتعبه الإسراف في التقدير ، وتزعجه المبالغة في التوقير ! . . .

٢٤ – قبور فى جنة الحب ! . .

من الفتيات الثلاث ، اللواتى كن يملأن بيت سكنر ستريت حيـاة وبهجة ، لم تبق إلا واحدة : « فانّى إملاى » . . وهى الوحيدة التى لم تـكن بنت المستر جودوين ، ولا بنت المسز جودوين[1] . . ومع ذلك ، فما زالت تعيش معهما ، وتدعوهما : « بابا » و « ماما » ! . . وهى الوحيدة التى على رغم رقتها وحنانها لم تجد زوجاً ، ولا عشيقاً .. وكانت محتشمة ، متواضعة ، محافظة .. وهذه فضائل يمدحها الرجال ، ولـكنهم لا يكافئونها ! . . وقد أمّلت لحظة من حياتها أن يعنى بها شللى ، وبدأت ، والقلب منها شديد الخفوق ، تبادله رسائل خاصة . . لـكن عينى مارى ، اللتين بلون البندق ، قد خيبتا كل آمالها ، وحطمتا كل مابنته من علالىّ وقصور .

وها هى ذى مسز جودوين ، فى هذا البيت المهجور ، المتصدّع حزنا ، بسبب مشاغل المال ، تدفع سوء خلقها وتصبه على رأس « فانى » . . وها هو ذا جودوين ينبئها أنه لم يعد يستطيع الإنفاق عليها ، وأن عليها أن تعمل لتعيش ..

وكانت لا تسأل دهرها إلا أن تصبح معلمة . غير أن هرب مارى وچين قد جر سوء السمعة على آنسات « سكنر ستريت » ، وصارت ناظرات المدارس يحذرن هذا اللون من التربية . .

وكانت تعجب ، من بعيد ، بشىء من الحسد والحزن ، بالحياة الجنونية الخيالية ، الحياة الخطرة أحياناً ، المنوعة الشائقة دائماً ، التى تحياها أختاها ! . . لشد ما كانت تريد أن تـكون على شاطىء بحيرة چنيف ، تعيش مع ذلك الرجل المشهور ، لورد بيرون ، الذى تتحدث عنه لندن بأسرها ! . .

---

(١) كانت « فانى » بنت مارى وولستونكرافت (زوجة جودوين السابقة) من زواجها الأول . . كما تقدم فى الفصل (١١)

[هل هو من الجمال كصورته ؟ قولوا لى ، أصوته شجى ، لأن الصوت تأثيره الشديد فى ؟ .. أيجىء عندكم ، بلا كلفة ؟ . . أريد أن أعرف : هل يلوح عليه ارتكاب مايتهمه الوشاة به ، فى لندن ، من آثام جسام ؟ .. إنى ، حين أقرأه ، لا أعتقد أنه مخلوق إلى هذا الحد من الشناعة . فانى إذا أحببت الشاعر ، تمنيت لو احترمت فيه الرجل . قولوا له إن لكم صديقة محرومة من متع الحياة ، تحب أن تقرأ أشعاره قبل نشرها . . .

وكانت مارى وكلير وشللى يتلقون هذه الرسائل الرقيقة ، مشفقين . . مسكينة فانى ! . . لشدّ مابقيت على لون « سكنر ستريت » ! . . لشدّ ما حرصت على الظن بأن قصص جودوين التافهة ، وأشغال جودوين المرتبكة ، وديون جودوين المتراكمة ، وسوء طبع مسز جودوين ، هى أهم ما فى الدنيا ! . . وقد زادت عبوديتها شعور أختيها بحريتهما ، وتقديرهما لهذه الحرية . . كما أن وحدتها جعلتهما تدركان كل قيمة حبهما . . وقبلما يغادرون چنيف ، اشترى شللى ومارى ساعة ، هدية لها ، برّاً بها . .

ولما عادا إلى انجلترا ، وكلير معهما ، وقصدوا «باث» ، لينزلوا فيها ، رأوا فانى خلال مرورهم بلندن . . كانت حزينة ، لا تتكلم إلا عن وحدتها ووحشتها وعدم جدواها . فما من أحد على هذه الأرض يريدها . وعند ما قالت لشللى : « إلى اللقاء » ، ارتجف صوتها . . وأرسلت إليه فى « باث » رسائل من رسائلها الرقيقة المعتادة ، ممتزجة بشىء من العتب ، كذاك الذى يوجهه الأحياء الموتى إلى الذين ما زالت حياتهم ملء الحياة .

تعطلت أعمال جودوين الأدبية ، بسبب ضائقة مالية جديدة ، فازداد شراسة على شراسته . وكانت لفانى خالة تدعى « إڤرينا وواستونكرافت » ، وعدت بأخذها كربيبة فى مدرستها . . وما عتمت أن كتبت إليهم تقول : إن أخت مارى وكلير قد تسبب الرعب للآباء والأمهات الضيق العقول ، من الطبقة المتوسطة . .

وفى ذات صباح ، تلقى شللى ومارى رسالة غريبة من مدينة بريستول ، تقرئهم فيها فانى الوداع بعبارات مبهمة :

[إنى راحلة إلى مكان ، أرجو ألا أعود منه أبداً] . .

فتوسلت مارى لشللى أن يسافر فى الحال إلى بريستول . فسافر ، وعاد ليلا ، بلا خبر . ثم سافر إليها ثانية فى الصباح التالى ، ورجع هذه المرة مضعضعاً ، يحمل إلى مارى أنباء سيئة . فقد أخذت فانى ، من بريستول ، عربة المسافرين إلى « سوانسى » ، حيث نزلت فى فندق تلك البلدة . وهناك اعتكفت لساعتها فى غرفتها ، قائلة للخادم إنها متعبة . وفى اليوم التالى ، قلق أصحاب الفندق لعدم نزولها ، فاقتحموا الباب ، فوجدوها ميتة ، يغطى شعرها الطويل وجهها . وفى معصمها الساعة التى أهداها إليها شللى ومارى . وعلى المنضدة : زجاجة من خلاصة الأفيون ، ورسالة بدأتها :

[لقد صممت ، من وقت بعيد ، على أن الخيرة هى فى وضع حد لوجود مخلوق كان مولده عاثراً ، وما كانت حياته بعد ذلك إلا سلسلة آلام ومتاعب للذين بذلوا من صحتهم لاطعامه . . . قد يصيبكم العلم بموتى ببعض الحزن ، لكنكم لا تلبثون أن تسعدوا بنسيان مخلوقة مرت عابرة على سطح الأرض . وكانت تُدعى . . . .]

لقد قال جودوين فى كتابه « العدل السياسى » : « إن الانتحار ليس جريمة » . وها هو ذا يكتب إلى مارى ، لأول مرة منذ هربها . . يكتب ليوصى المنبوذين الثلاثة بأن يلزموا الصمت عن هذا « الحادث » ، الذى قد يسبب القيل والقال ، ويشين سمعة العائلة ! . .

* * *

زلزلت أعصاب شللى ، وتضعضع ، من موت فانى المروّع . ولمّحت مسز جودوين ، السمحة السخية فى كيل التهم ، إلى أن الفتاة قتلت نفسها بسبب حبها الكظيم له . وعندئذ تذكر بعض علامات لتأثرها واضطرابها ، ولام نفسه على إهماله إياها ، وعدم اكتراثه بها ، وعدّها مخلوقة وضيعة الفكر . فلعله هو ،

من حيث لايدرى ، قد أشعل عواطفها ، وأذكى حبها ، فى الوقت الذى هجرته فيه هاربيت ، وكان يبحث عن مأوى له فى حنان أنثوىّ . . ولعلها رصدت ، ووزنت ، وحللت ، بقلق وعناية ، أقوالا منه ، أو نظرات ، لم يقصد بها إلا اللطف البرىء . . . « ما أصعب أن يدرك المرء العوامل التى تجيش بها صدور غيرنا ! . . ويا للآلام التى نسببها من حيث لانرغب ولا ندرى ! . . ما أكثر ما يمر الإنسان إلى جانب مشاعر عميقة ، وعواطف صديقة ، وأحياناً يائسة قانطة ، دون أن يحس حتى بمجرد وجودها ! . . . » .

إذن ، فلا يكفى أن يكون المرء مخلصاً ، وأن تكون نياته شريفة . إننا قد نسبب من الضر والشر ، بعدم الإدراك والفهم ، مثل ما نسبب بالقسوة والظلم .

وألقت هذه الخواطر كلها بشللى فى غياهب من الكآبة لاقرار لها . . .

ولكى يسرّى عن نفسه ، ويهوّن بعض ما به ، سافر وحده ليقضى أياماً عند الناقد الأدبى الشاب « ليز هنت » ، الذى سبق أن أطرى شعر شللى ، وقرّظه بحماسة وفطنة . وكان هنت يسكن فى ضاحية « هامستيد » ، قرب لندن ، التى كانت ، وما زالت إلى اليوم ، جذابة بما يحيط بها من الغابات والحقول ، تتصاعد من أسطح أكواخها أدخنة الدفء والطهى . . وكانت زوجته « ماريان » امرأة بسيطة مثقفة . ووراءها ثُلة من أطفالها الفاتنين، يستطيع شللى أن يرتع معهم ويلعب..

وهناك نسىَ شللى : فانى وجودوين ، شيئاً ما . . وكانت الزيارة قصيرة ، ولكنها طيبة لذيذة ، فعاد إلى بيته متشجعاً مستبشراً . . فوجد فى انتظاره خطاباً مِنَ الناشر « هوخام » ، فتحه متطلعاً ، لأنه كان قد كلفه اقتفاء أثر هاربيت ، إذ انقطعت عنه أخبارها منذ شهرين . قبضت معاشها فى مارس وفى سبتمبر ، على عنوان بيت أبيها وستبروك .. ثم لم يُعرف شىء عنها منذ أكتوبر..

كتب « هوخام » :

[سيدى العزيز . . تلقيت منذ شهر تقريباً خطاباً منك ، ولا ريب فى أنك دهشت لأنى لم أبادر إلى الرد . وكنت أنوى أن أفعل ، غير أنى وجدت

أشد الصعوبات فى العثور على الانباء التى تريدها عن مسز شللى ، وعن طفليك ،
فبذلت جهوداً أخرى لمعرفة عنوانها . . وهنا جاءوا إلى بخبر موتها ، وأنها قتلت
نفسها ! . . وأنت ترى أنه لم يكن يسعنى تصديق ذلك لأول وهلة . فقصدت
بيت صديق للمستر وستبروك ، فتبددت جميع الشكوك ! . . إن جثتها قد انتشلت
من نهر « السربنتين » يوم الثلاثاء الماضى . . ولم تكن لدى المحلف الذى تجرى
أمرها معلومات ضافية ، فاكتفى باصدار حكمه بأنها « وجدت غريقة » . . .
أما ولداك فهما بخير ، وهما ، على ما أظن ، فى لندن . .]

فسافر شللى إلى لندن فى حالة يرثى لها . فقد تخيل ، فى رعب ، ذلك الرأس الأشقر المحيط بذلك المحيّا الوردى ، الذى طالما نظر إليه بكل ما يحمله الفؤاد من بشر والتذاذ . . تخيله وقد غطته وحول النهر ، وأدمته أمواجه ، وورّمته ، وصبغته بلون الغرقى القرمزىّ . . وضرب أخماساً لأسداس فيما يمكن أن يكون قد حملها على إيثار ميتة شنيعة كهذه ، والتخلى عن ولديها . .

واستقبله فى لندن ، بعطف ، صديقاه : الناقد « هنت » ، والناشر « هوخام » ، وأخبراه بما وقفا عليه . وكانت جريدة التيمس قد نشرت هذا الخبر(١) :

« فى يوم الثلاثاء ، انتشلت من « السربنتين » جثة امرأة ذات هيئة محترمة ، وفى حالة حمل متقدم . ووُجد فى أصبعها خاتم ثمين . والمفهوم أن سوء مسلكها قد أدى بها إلى هذه الفاجعة ، فى حين كان زوجها خارج البلاد » .

وكان ما يدور على الألسن ، فى حى « كوين ستريت » : أن هارييت ـ وقد انقطعت عنها رسائل زوجها ، إذ لم تبعث إليها صاحبة البيت الذى كانت تقطنه قبلا بما جاء منه من رسائل ـ دب فيها دبيب القنوط ، وقطعت كل رجاء فى عودته إليها . وعندها انطلقت تسلك سبيل اليائسين . . وسقطت . . فعاشت ، بادىء ذى بدء ، مع ضابط جيش ، اضطر إلى تركها بسبب نقل فرقته إلى المستعمرات . ثم لم تستطع على وحدتها صبراً ، فاتخذت لها خليلا وضيعاً ، قيل

(١) أحب أن ألفت نظر القارىء العربى الكريم ، إلى أن كل كلمة ، وكل جملة ، وكل واقعة ، فى هذا الكتاب ، من أوله إلى آخره ، قد قيلت فعلا ، أو كتبت ، أو وقعت . . ومهما يبد له عجيباً ، فهو جزء صادق من التاريخ . « ص » .

إنه خادم ، ثم هجرها . . وأخذ منها أهلها « آل وستبروك » ولديها ، وقطعوا كل صلة بها . وقيل إنها كانت حاملا ، بلا سند ولا معين . فروعت بالفضيحة القريبة المحتومة . . فألقت بنفسها فى لجة النهر . .

وقضى شللى ليلة ليلاء . . :

ــ « فى حالة حمل متقدم . . . » ؟!.. يا لها من نهاية لحياتها ! . . يا للجنون ! . .

وتزاحمت على مخيلته كل التذكارات الرقيقة ، الحبيبة ، التى سجلتها هارييت المسكينة ، على رغمه ، لتعود فتطبع مرة أخرى مشاهد حياتها الأخيرة الشنيعة . . . هارييت عاشقة . . . هارييت خائفة . . . هارييت مذعورة يائسة ! . . . وجوه يعرفها حق المعرفة . هذا الاسم الذى كاد ، خلال بضع سنوات ، يكون له كل الكون ، لا مفر منذ الآن من ربطه بأخسّ الخواطر ، وأدناها ، وأبشعها . . :

ــ هارييت ، زوجتى ، عاهرة ! . . هارييت ، زوجتى ، منتحرة غريقة ، جثتها طافية ! ؟ . . .

ومرت به لحظات تساءل فيها عما إذا لم يكن مسئولا . ثم نبذ هذا الخاطر بكل قواه :

ــ لقد عملت ما كان علىّ عمله . عملت دائماً فى كل آونة ما بدا لى أنه الأقوم والأكرم ، دون أن أكون قط نفعياً أو أنانياً . ولما تركتها ، لم نكن على حب . وقد وفرت عليها من وسائط العيش ما كان فوق طاقتى . . ولم أقس فى معاملتها . . إنهم أولئك الـ « وستبروك » الشنعاء وحدهم ! . . . أكان ينبغى لى أن أضحى بحياتى وفكرى لامرأة غير وفية لى ، امرأة تافهة ؟ . .

فأجاب عقله : « كلا » . وأجاب صاحباه هج وپيكوك ، اللذان أحاطا به إشفاقاً ورفقاً : « كلا » .. فتضرّع إليهما أن يعيدا ذلك ويكرّراه على مسمعه ، لأنه يلمح ، من ثنايا برق خلّب ، واجباً خفياً فوق طاقة البشر ، وقد أخلّ به . .

إيه ، أيها الرأس الصغير ، يا ذا الشعر الذهبىّ ، والمحيا الصبى ، لتلك الغريقة الآن . . هارييت . . .

وعند الصباح ، كتب رسالة رقيقة إلى مارى ، لاجئاً فيها إلى خيال الولاء والصفاء . . وسألها : أن تكون أماً لطفليه ، الصغيرين ، المسكينين : « إيّانتا » و« شارل » . . وإن كان محاميه قد أنذره بأن آل وستبروك يمانعون فى حضانته لها ، بحجة أن آراءه الدينية ، وعيشة الخنا التى يحياها مع مس جودوين ، كليهما ، يجعله غير جدير بتربيتهما . . .

٢٥ – أصول اللعب . . .

أنى لحفلة الزواج ، دينياً كان الزواج أم مدنياً ، أن تزيد فى هناء حبيبين ، متفانيين ، واثقين ببعضهما ثقة عمياء ؟ ! . . هذا ما قد تنفرج له ، على الأقل ، أسارير متغطرس مثل جودوين . . فهو مدعى العلم الذى أبدى رضا لا حد له ، إذ علم بأن بنته ستصبح « امرأة شريفة . . وبذلك تكون يوماً ، إن قريباً وإن بعيداً ، « الليدى شلى » . . وبذلك الرضاء منه ، أتم على نفسه احتقار تلميذه السابق ، ومريده الآبق ، احتقاراً تاماً ما عليه من مزيد ! . .

وكان ثمة تردد وتساؤل ، فى خلال بضعة أيام ، عما إذا كان من اللائق عقد هذا الزواج عقب وفاة هارييت مباشرة . . غير أن أهل الذكر فى الآداب الاجتماعية ، أكدوا أنه لم يعد يجوز أكثر من ذلك تأخير بركة الكنيسة على اتحاد باركته الطبيعة من قبل مرتين : بولدين . .

وكانت خمسة عشر يوماً قد مضت على انتشال جثة مسز شلى الأولى من نهر السربنتين ، عندما عقد قران مارى وپرسى على يد قسيس ، فى كنيسة سانت ميلورد ، بحضور جودوين يهش ويبش ، ومسز جودوين تتكلف البشر ، وتلوّح بالظفر ، ويوقعان ، كلاهما ، شاهدين على العقد ! . وفى المساء ، لأول مرة ، منذ الفرار ، اجتمع الشمل للعشاء فى سكنر ستريت . وكان الحفل العائلى تخيم عليه الكآبة . فنى قاعة الطعام الصغيرة هذه طالما عاشت « فانى » . وطالما تعشت « هارييت » . كان شبحا الفتاتين اليائستين ، الساخطتين ، المنتحرتين ، يروحان ويجيئان ،

بين المجتمعين ، ينغصان هناء المحتفلين . . حقاً إن شراسة جودوين قد انقلبت ، منذ حفلة القران فى الصباح ، إلى دماثة فائقة . . ولكن ما كان أكثر مايلابس عقولهم الباطنة ، من ذكريات مزعجة ، لاتجعل إلى الصفاء الخالص سبيلا .

وفى تلك الليلة ، كتبت مارى فى يومياتها :

« سفر إلى لندن . عقد زواج . مطالعات فى « لورد شستر فيلد » و « لوك » . . »

كانت مارى راجحة العقل ، قوية الأعصاب . . . ولم تكن المسكينة الغريقة هاربيت لتبلغ منها قلامة ظُفرها . .

* * *

وكان لهذا الزواج الشكلى ، على القليل ، ميزة واحدة لامراء فيها ، هى : هدم حجة الذين يرغبون فى حرمان شللى من حضانة ولديه بسبب عيشه مع امرأة غير شرعية . ولو أن آل وستبروك ، على أى حال ، لم يسلموا . فقد توجه الصغيران : شارل وإيانتا شللى ، عن طريق الخمّار وستبروك ، إلى كبير قضاة الدولة ، بقولها : « إن أبانا قد أعلن على رؤوس الأشهاد أنه ملحد ، وقد نشر كتاب زندقة عنوانه « Queen Mab » مع تعليقات ، كما نشر كتاباً آخر أنكر فيه وجود خالق الكون الأعظم ، وحرمة الزوجية ، وكافة مبادىء الشرف القدسية » . .

ولهذه الأسباب ، فإن هذين الطفلين الفاضلين النابغين قبل الأوان ، يطلبان ألا يتولى تربيتهما وأموالهما أب غير خليق بالأبوة ، بل يعهد بذلك إلى قوم على خلق عظيم ، يختارهم القضاء الأعلى ، مثل : « وستبروك » جدّهما المحترم ، و « آنت إليزا » خالتهما الشفيقة ! . .

وكان محامى شللى أحرص من أن يتورط فى الدفاع عن كتاب Queen Mab .. فاكتفى بإنكار أهمية كتيّب وضعه غلام فى التاسعة عشرة :

« على الرغم من مطاعن المستر شللى العفيفة فى الزواج ، فإنه تزوج

مرتين قبلما يبلغ الخامسة والعشرين ! . . فهو مايكاد يتحرر من تلك الأغلال والأصفاد ، التى يتحدث عنها بكل ذلك الاحتقار والاشمئزاز ، حتى يصنع لنفسه ، من جديد ، أغلالا وأصفاداً ، يطرقها من حديد ، طوعاً واختياراً . . ومثل هذا التباين البديهى بين أقواله وأفعاله كفيل - لدى سعادة كبير القضاة - بعدم حمل تلك النشرة السخيفة على محمل الجد » . .

أما فكرة احتضان الطفلين فى أسرة أمهما ، فقد دحضها محاميه :

« . . . نرى من الخير التذكير بأن مستر چون وستبروك - وهو صاحب مقهى وبار سابقاً - ليس من الكفاية أو المكانة بحيث يكون حارساً على أولاد مستر شللى . أما مس وستبروك ، فهى أمية ، جاهلة ، خاملة . وقد كان عن يدها ، إن لم يكن بإرشادها ، وتحت إشرافها ، هرب المستر شللى ، فى التاسعة عشرة ، مع أختها مس هارييت وستبروك ، وكانت يومئذ فى السابعة عشرة ، وتزوج منها فى أسكتلندا . وإذ ذاك ، كانت مس إليزا وستبروك ، الحارسة المقترحة ، فى سن الثلاثين ، ولو أنها تصرفت كما ينبغى لها كحارسة وصديقة لشقيقتها الصغرى ، لما وقع للأسرتين كل هذا الشقاء والعار والشنار . . . »

أما براعة المحامى الذى أمل انتصار موكله بإنكاره ، باسمه ، الآراء التى أبداها فى ريّق شبابه ، فقد لاحت لشللى مراءاة لاتحتمل . فكتب إلى كبير القضاة يعلن : أن أفكاره عن الزواج لم تتغير ، وأنه إذا كان قد ارتضى مسايرة عادات المجتمع ، فهو لايتنازل مطلقاً عن حرية انتقادها . . .

وعلى ذلك ، سجل القضاء عليه اعترافه :

« إننا بإزاء والد يرى من واجبه : أن يبسط ويفرض على من يشملهم برعايته ، طريقة للعيش ، يعدها القانون ساقطة مرذولة ، وساءت سبيلا . . . فلا نرى ، والحالة هذه ، أن يعهد إليه أمر ولديه » .

وكذلك أبى كبير القضاة أن يسلمهما إلى آل وستبروك المرذولين . .

فعهد بهما إلى الدكتور هيوم ، وهو طبيب حربى ، هيأ العدة لإلحاق شارل بمدرسة يديرها قسيس أرثوذكسى . أما الصغيرة إيانتا فتنشّئها المسز هيوم على الصلاة صباحاً ، والشكر لله قبل تناول الطعام ، ومطالعة كتب القراءة الرشيدة ، أو ، إلى حد ما ، بعض دواوين الشعراء ، مثل شكسبير - بعد تهذيبه ! - وهذا كله مقابل مئة جنيه فى العام عن كل طفل . ويستطيع مستر شللى أن يراهما اثنتى عشرة مرة فى السنة ، بحضور شهود . ويخوّل مثل هذا العدد من الزيارات للمستر چون وستبروك ، ولكن بمفرده ، إذا شاء . . .

وكان هذا الحكم مرّاً صارماً على شللى . فهو يدمغ ، بصفة رسمية ، نفيه من المجتمع الإنسانى المتحضر . . وهو أقرب ما يكون إلى شهادة بجنون مستعص ، أو بالحماقة التى أعيت من يداويها ! . .

* * *

وكان شللى قد اشترى ، أثناء النزاع فى القضية ، بيتاً فى البلدة الخلوية الجميلة « مارلاو » . . ورضى « آريل »[1] - الروح المحلّق فى سماواته - بالنزول آخر الأمر ، إلى الأرض ، وسكنى بيوت الخلق ! . . وأنشئت فى البيت الجديد مكتبة كبيرة ، ووضعت تماثيل لڤينوس إلهة الجمال ، وأبولو إله الشعر . . وكانت الحديقة واسعة ، تلعب فيها مع وليم وكلارا شللى : بنت ذات حسن نادر ، هى « آلبا » بنت كلير وبيرون . وكان يقال إن أباها يعيش فى مدينة البندقية ، عروس الأدرياتيك ، عيشة الاستمتاع الطليق ، لا تكاد كلير تعرف من أنبائه إلا القليل .

وكان ما أصاب شللى أخيراً من ويلات قد خط على تقاطيعه . . فزاد جسمه ضموراً ، وأعصابه اهتياجاً ، وظهره انحناء . وزاد بالحياة تشاؤماً وتذمراً . فالحياة لم تحمل له إلا ألماً على ألم ، هو الملهم بأطيب النيات ، وأشرف الرغبات . وكان يفكر فى وضع تاريخ ثورة مثالية شعراً ، ثورة لا تسيل فيها الدماء ، ولا تتراكم

---

(١) آريل Ariel روح الهواء فى قصة « العاصفة » لشكسبير .

الأشلاء . . وإنما ثورة من صنيعة محبين . . فتجربته الخاصة قد دلته على أن حب المرأة ، وحده ، هو الذى يمكن أن يوحى ببسالة عظيمة . . .

وقضى الصيف كله فى نظم القصيد . . يبحث عن صور الحب فى حبيبته مارى ؛ وفى جزر نهر « التامیز » الصغيرة ، وفى لوحات السماء المتجددة سحباً قاتمة ، وسحباً هاربة ، وصوراً صغيرة . . ثم صفاء وبهاء . .

واضطر إلى العودة إلى لندن ، عند ما عزت الدراهم ، وصارت أشد ندرة . فقد كان شللى مكلفاً بإطعام أفواه كثيرة . كان يتعهد ، غير مارى وولديهما ، كلير وبنتها . . وكذلك أسرة جودوين . . وكان صديقه الجديد الناقد ليزهنت وزوجته وأولاده الخمسة بحاجة أيضاً إلى معونته . . وقد تعهد لصاحبه پيكوك بمئة جنيه سنوياً ، ليتمكن من العمل بهدوء فى قصصه الجميلة ! . . بل إن أحدهم ، شارل كليرمون ، ومعرفته به سطحية ، قابل فى فرنسا فتاة لطيفة فقيرة ، فتعهد شللى بمهرها ! . . فاضطر ، كما كان يفعل من قبل ، إلى الاستدانة من المرابين ، ليملأ هذه الأفواه الفاغرة . . قال له جودوين ذات مرة : « أنت جواد أصيل ، يحول الذباب بينه وبين الانطلاق » . .

ومن حسن طالعه أن مارى تكفلت بإعادته إلى الأرض . . كانت ، وهى سيدة بيت ، قلقة على مصلحة بيتها ، لا تحب أولئك الزوار المستديمين . . مثل پيكوك هذا الذى يجىء كل مساء ، دون دعوة ، ويشرب زجاجة كاملة من النبيذ . وكانت ترغب فى أن يبيع شللى بيت « مارلاو » الذى تعجل شراءه . . كانت تراه يشكو فيه من البرد ، وتتمنى له مناخاً أطيب وأدفأ ، كمناخ إيطاليا مثلا . . فكتبت إليه فى لندن :

[يا أعز عزيز . . . أتوسل إليك أن تكون أشد وضوحاً فى رسائلك . . فقد أعلنت عن بيع البيت . . ولكن ، هل قلت لخزنته ماذا يكون جوابهم لمن قد يسألهم عنه من الراغبين ؟ . . وهل اخترت بين إيطاليا وبين شاطىء البحر ؟ وهل تعرف كيف نجد المال الذى يلزمنا لنعيش به هناك ، ولنشترى

كل الأشياء اللازمة لنا قبل سفرنا ؟ . . وهل تستطيع عمل شيء من أجل أبي ، قبلما نغادر البلاد ؟ . . وبعد ، أفلا يحسن بنا سكنى بيت صغير على شاطيء البحر ، لنضغط مصروفاتنا ؟ . .

خرجت اليوم لأول مرة . . إن هذا البيت البارد ينضح ثلجاً ! . . كنت متجمدة إلى جانب النار ، وما كدت أخرج إلى عرض الطريق ، حتى دهشت ، إذ الشمس طالعة ، والجو دافيء ، والهواء عليل . . أرجو أن يصحبني وليم في نزهاتي القادمة . . وليتك ترسل إليه في عربة يوم الاثنين قلنسوة بحرية مستديرة الشكل « موضة » . . ولا تغفل أن تذكر أنها لوليم ، ولا بد من زنار ذهبي حولها ، نشده فتضيق إذا كانت واسعة . . . الأطفال يحاصرونني : هذه آلبا (بنت كلير وبيرون) تخدش وتصرخ ، ووليم يعبث بشال يربطه حول وسطه ، ومس كلارا تحدق في نيران المصطلى . . إلى الملتقى يا غرامي . . لا أجد ما أعبر لك به عن قلقي في انتظار أخبار صحتك وشواغلك وخططك . .]

وكان من أسباب شكوى ماري وجود « آلبا » بالبيت . فقد قالوا للجيران عنها إنها بنت سيدة تعيش في لندن بعثت بها إليهم ، لتتحسن في الريف صحتها . . ولكن الناس جميعاً لم يلبثوا أن تبينوا من تصرفات كلير مظهر الأمومة . . ونسب بعض أهل الخير البنت إلى شللي ، باعتباره أباها ! . . فكادت الاتهامات القديمة تحوم حولهم ، وتنغص عيش ماري ، مما جعلها تتمنى الرحيل إلى إيطاليا ، حتى تحمل البنت إلى أبيها اللورد بيرون . . .

وكانت أمنية شللي أيضاً أن يرحل . فروابط الأسرة ، والصداقة ، والأشغال ، قد ضربت من حوله جدراناً عالية اختنق منها . فخيل إليه أن فراره من انجلترا ، حيث فقد حقوقه المدنية بحكم كبير قضاتها ، سيجعله ، مرة أخرى ، روحاً حراً محلقاً في الهواء ، طليقاً في الأجواء . . وأن حياته في بلاد أجنبية ستكون صفحة بيضاء من غير سوء ، يستطيع أن يؤلف فيها كياناً جديداً ، كما ينظم قصيدة عصماء . .

ولما تقرر السفر ، طلبت ماري تعميد الأطفال في الكنيسة . فقد رأت

أن الأولى لهم : بداية حياتهم ، فى مستهلها ، بمراعاة العُرف المتبع ، وما اصطلح عليه المجتمع ، وملاحظة « أصول اللعب » . . فوافق شللى على ذلك . . وفى اليوم نفسه عمّدت بنت بيرون ، وأطلق عليها اسم « كلارا أللجرا Allegra » . . .

٢٦ – « ملكة من الرخام والرغام »

سماء إيطاليا الصافية الأديم ، بلا سحاب . . عادت قافلة الثوار تسير نحو أرض النسيان ، والشمس والغفران . . لم يؤثر على سيرها السريع أنها ، فى هذه المرة ، مثقلة : بالأطفال ، ومربيات الأطفال . . حتى وصلوا إلى ميلانو . فألقوا عصا التسيار فى انتظار أخبار بيرون ، الذى كان شللى قد كتب إليه يعلن وصول ابنته . فجاء رد دون چوان : أنه لا يريد أن يرى كلير ، بأى ثمن كان . . وأنه سيهرب من كل بقعة تدنو منها ، ولو ذهب إلى أقصى الأرض ! . . أما صغيرته ، فهو على استعداد لتولى أمر تربيتها ، بشرطه الذى لا يتحول عنه : أن يكون ، فى ذلك : السيد المطلق ، لا شريك له . ولم يقبل فى تخفيف هذا الشرط رجاء . . لا يريد أن يرى كلير ، ولا أن يسمع بها . .

وروى لهم رجل من أهل البندقية ، قابلوه فى ميلانو ، أن « الميلورد الإنجليزى » يعيش فى ڤنيس عيشة الخنا والفجور ، وفى حيازته « حريم » بكامل هيئته ! . . مما جعل القلق يساورهم على تربية « أللجرا » . .

وأشار شللى على كلير بأن تعدل عن كل مساعدة من بيرون ، بدلا من أن تعهد إليه أمر الطفلة . على أن يتولى هو نفسه كافة النفقات ، كما هى عادته ! . . بيد أن كلير كانت متكبرة ، فخوراً بمولد « أللجرا » ، تريد بذلك لبنتها مزايا لا يستهان بها . وكانت شديدة الثقة فى المربية السويسرية « إليز » ، التى تولت الصغيرة ، فقررت أن تبعث بهما معاً إلى ڤنيس . وبرغم اعتراضات شللى الرقيقة ، سُلمت أللجرا إلى أبيها .

* * *

ولم تلبث أن جاءت عن البنت أخبار أقلقت كلير، وأقضت مضجعها. فاللورد بيرون لم يحتفظ بالطفلة عنده إلا بضعة أسابيع.. كان أولا شديد الزهو بجمالها الباهر، وبأن يراها محل إعجاب البندقيين وتدليلهم فى طريق المتنزه العام «لا پيازا».. ثم ما عتم أن زهق من لعبة متكررة، فعهد بها إلى مسز هوبنر، زوجة القنصل الإنجليزى فى ڤنيس. فمن هى مسز هوبنر هذه؟.. لقد كتبت المربية إليز تقول إنها سيدة موفورة الحنو. غير أن كلير بدأت تقرع سن الندم، فقد كانت تعبد بنتها، وهى عندها كل شىء، بعد ما نبذتها أسرتها، وأبى عشيقها أن يلقاها. ورأى شللى من شقائها ماحمله على التطوع بصحبتها إلى ڤنيس. وبالرغم من كراهية مارى لمثل هذه الصحبة فى سفرهما معاً، رضخت، واستسلمت. ورافقهما، فى سفرهما، الخادم «باولو»، الذى كان رجلا لبقاً نشيطاً، ليعمل لهما كمراسلة..

وقصدوا خفية بيت هوبنر، حتى لا يتضايق بيرون ويسخط، إذ أقسم ألا يبقى وكلير تحت سماء بلد واحد.. فاستقبلهم القنصل وزوجه برقة ودماثة. وبعثت هذه، فى الحال، فى طلب المربية والطفلة. وكانت أللجرا قد نمت، ولكنها شحبت، وفقدت حيويتها السابقة، وإن كانت ما زالت آية جمال..

وجرى الحديث طويلا عن بيرون. فروى هذان الزوجان، الشابان، المتحابان، طرفاً من مغامراته، وهما يهزان رأسيهما، فى إشفاق وإغضاء، نظراً لجو البندقية المستهتر المتسامح... فإن دون چوان، بعد يومين من وصوله، قد حصل، كما كان يتمنى، على: جندول، وخليلة، هى «ماريانا سيجاتى»، زوجة تاجر أقمشة، أجّر للشاعر الكريم فى بيته غرفاً مفروشة. وكان لذلك خطره، وكان له ما بعده.. ولكن تجارة الأقمشة لم تكن رائجة!.. وكانت المرأة فى الثانية والعشرين، ذات عينين سوداوين مدهشتين، وصوت شجى رخيم.. وهى وإن كانت من الطبقة الوسطى إلا أنها متغلغلة فى الطبقة الراقية، التى تحب سماع

غنائها . وأما أنها لا تتصوّن عن عشق بيرون ، والافتتان به ، وهو أجنبي نبيل ، وشاعر جميل ، وجواد كريم ، وهو يعيش وإياها تحت سقف واحد ، فذلك شيء بديهي لا بد منه ، كأبسط التفاعلات الكيمائية ! . . أما تاجر البندقية ، فقد كان يرى « الدوقيات » تسيل من بين أصابع اللورد . . وكانت أخلاق المدينة الشهيرة تسمح ، على الأقل ، بعشيق واحد ! . .

وروت مسز هوبنر ، المرأة الرقيقة ، ذات العينين الذكيتين ، هذه الحكاية ، بالحسرة والاستطابة اللتين تمزج بهما النساء العفيفات حديثهن عادة عن الرذيلة . . وروى زوجها متحرّزاً أن أهل البندقية يتذاكرون أن السيد الإنجليزى لم يكتف بملهمة واحدة للشعر ، فاكترى فيلاخفية ، فى جهة ما ، وحشد فيها منهن تسعا !.. وتحدث بذلك الركبان ! . . والناس ينظرون ويعجبون ، فى حفلات الكرنفال ، بالنساء المقنعات المتنكرات ، يتعلقن ببيرون ، ويتصيدن أنفسهن له ! . .

وما كانت هذه الإشاعات إلا لتزيد فى قلق كلير . وتساءلت : ماذا تفعل؟ فنصحها القنصل بأن تخفى عن بيرون وجودها فى البندقية ، وإلا ساءت العقبى . .

وفى الساعة الثالثة ، قصد شللى لزيارة بيرون فى قصره ، فاستقبله بحرارة . . ولعل شللى كان الرجل الوحيد فى الدنيا الذى يرضى بيرون بالتحدث إليه بجد ، حديث الند للند . وقدّر شواغل كلير ، وإن اعتذر بأنه لا يستطيع التخلى عن « أللجرا » ، وإلا زاد البندقيون ، على اتهامهم إياه بأنه هوائى ، تهمة الزهد فى ابنته الطفلة . . على أنه سيفكر فى الأمر ملياً ، ويجد سبيلا للتوفيق . . ثم اقترح على شللى ركوب الخيل فى نزهة إلى « الليدو » . .

وراقت لشللى هذه الرمال ، ترمح فيها الجياد ، فى وسط الأمواج . . ولم ينغص عليه نزهته قليلا إلا علمه بأن كلير تنتظره ، فى قلق ، عند هوبنر . .

ونظر بيرون إلى البندقية ، على ضوء الشفق القانى ، وقد صارت ورداً ورماداً . . وقال :

— إننا سنموت شباباً . . وسواء علىّ دقت الساعة اليوم أو غداً . . ولكننى أريد أن أستمتع بشبابى . .

* * *

وفى اليوم التالى ، جاء شللى إلى بيرون ، مشفقاً مما ينتظره من قرارات اللورد .. فدهش وسرّ ، إذ ألفاه معقولا . وقد عرض التنازل لشللى وكلير ، لمدة شهرين ، عن ڤيلا له قرب البندقية ، تبقى فيها كريمته أللجرا بعد ذلك . فلم يسع شللى إلا قبول هذه الاقتراحات السخية . . وكتب إلى مارى لتلحق به بلا تأخير :

[عفواً ، إذا كنت قد قبلت ذلك قبل مشورتك ، يامارى ، يا أحب حبيبة . ولك أن تؤنبينى إذا كنت قد أخطأت . والحكم للأيام . . على أى حال أسرعى بالحضور ، حيث تجدين مسز هوبنر ، السيدة الطيبة ، الجميلة ، الملائكية . . التى لو كان لها عقلك لصارت مثلك ، لولا أنها ليس لها كمالك . . قبلى لىّ أعزتى ، ذوى الأعين الزرق . . ولا تدعى وليم ينسانى . . أما « كا » (١) فهى أصغر من أن تتذكرنى] . .

وكانت رحلة مارى مضنية . ففى « فوزينا » لاقت صعوبات ، بسبب جواز سفرها ، عاقتها طويلا . وكانت كلارا الصغيرة تبدل أسنانها ، وتتألم كثيراً من الحر والتعب ، وتغيير اللبن . . ووصلت مريضة إلى « ڤيلا داست Este » : ڤيلا بيرون الموعودة . وظلت تعانى الحمى خمسة عشر يوماً . وكان طبيب البلدة غبياً ، فاعتزم شللى ومارى أخذ الطفلة إلى البندقية لاستشارة طبيب أفضل منه . ولكن « كا » الصغيرة أصيبت برعشة غريبة فى الفم والعينين ، وظلت طوال السفر غائبة عن الصواب . ثم زادت الأعراض ، وجاء الطبيب إلى الفندق ، فلم يجد فى شفائها أملا . وبعد ساعة ، ماتت فى صمت ، دون نزع ، أو احتضار . . .

رأت مارى نفسها بغتة فى بهو خان مجهول ، وعلى ذراعيها طفلتها المائتة . .

---

(١) « كا » تصغير « كلارا » كما كان شللى ومارى يسميان طفلتهما .

وفى صباح اليوم التالى ، نقل شللى الجثمان الصغير ، فى جندول ، إلى الليدو . وحاولت مارى أن تطرح عنها شجنها وحزنها . فقد كان من مبادىء أبيها جودوين : « أن المخلوقات التى جبلت على الضعف والجبن ، هى وحدها ، دون سواها ، التى تستسلم للأحزان » . . وكانت البنت فى هذا على رأى أبيها . فنى غداة دفن صغيرتها « كا » ، عادت حياتها سيرتها الأولى . . وكتبت فى يومياتها :

« الأحد ـ ٢٧ سبتمبر ـ قرأت النشيد الرابع من ديوان شايلد هارولد . المطر يتساقط . ذهبت إلى « قصر الأدواج » ، وجسر التنهدات ، وغيرهما . . قصدت أكاديمية الفنون مع مستر هوبنر وزوجته ، ورأيت لوحات بديعة . . ثم زرت اللورد بيرون ، حيث وجدت عنده « لافورنارينا » . . . »

* * *

كانت « لافورنارينا » هذه ، هى آخر محظيات بيرون ، امرأة فلاحة ، وجهها مثال الحسن البندقى القديم . وكان بيرون قد ذكرها لشللى بقوله : « سوف ترى كم هى جميلة : عينان نجلاوان سوداوان ، وجسم ثعبانى ، وشعر متموج ، يتألق تحت ضوء القمر . . امرأة تذهب فى سبيل الهوى حتى الجحيم . . إنى أحبُ هذا النوع من الحيوان ، وأوثره على نساء العالم جميعاً ! . . »

* * *

حقاً ، إن زوجة الخبّاز الحسناء هذه ، كانت حيواناً غريباً ، لا يسلس له قياد . كانت متوحشة يرتاع منها الخدم إلى حد الهوس ، حتى « تيتا » العملاق جندولىُّ الشاعر . . كانت هذه المرأة غيوراً لا تطاق ، زائفة كالشيطان ، فضلا عن أنها أصبحت هزأة ، منذ أصرت على استبدال نقابها الشفاف وشالها الجميل بالفساتين الحديثة ، والقبعات التى يرفرف عليها ريش النعام ، تلك التى يلقى بها بيرون إلى النار بمجرد شرائها إياها ، فتذهب وتشترى سواها . ولكنه كان يغتفر حماقاتها ، لأنها تدخل على قلبه السرور . . فهو يحب منها : حيويتها ، ولهجتها

الڤينيسية ، وعنفها . كانت طبيعتها ، الفظة ، الغليظة ، البهيمية ، تريحه ، كما يتوهم ، أكثر من أى شىء آخر ، من الجهد العقلى . . وكان شعره يتقدم بفضلها تقدماً بديعاً مطرداً ، شبيهاً بلجب البحر الخضمّ ، وصبابة المرأة العاشقة . . .

وما كانت هـذه الحيوانة الجلفة ، إلاّ لتسوء شللى وزوجه ، وهما الحضارة كاملة ماثلة . فتبادلا النظرات المحزونة . وفى خلال بضعة الأيام التى قضوها فى البندقية ، وقف شللى على حياة بيرون عن كثب ، وحكم عليها حكماً صارماً . فالشاعر قد أباح لتهتكه العنان ، وأطلق بحّـارة جندوله يلتقطون له النساء من الشوارع . . ثم ازدرى نفسه ، فأعلن أن الإنسان مزدرى . . ولم تعد سخريته ، فى نظر شللى ، إلا قناعاً رقيقاً لحيوانيته .

٢٧ – مقبرة روما

وبعد مضى شهر آخر ، آن لبيرون أن يستعيد الڤيلا ، ويسترد ابنته أللجرا . وكان الجو البارد الماطر يدفع شللى نحو الجنوب . فقد كان بحاجة ، لكى يشعر بالهناء ، إلى الدفء واللطف والصفاء . . كانت الأجواء المجهولة لديه ، والمدن الجديدة عليه ، تخدع حزنه ، وتكشف كربه .

وكان طريق روما يتعاطف بين الكروم التى احمرت أعنابها . وفى كل خطوة يشهد المسافرون قطعاناً من ثيران بديعة بيضاء كالحليب . . فلما دخلوا المدينة ، حلّق صقر هائل بجناحيه فوق رؤوسهم . . . وراعهم من روما جلال الحزن المخيم على الأطلال . . .

قف بروما ، وشاهد الأمر ، واشهد أنه للملك خالقاً سبحانه ! . .

وقصدوا لزيارة المقبرة الإنجليزية ، فبدت لشللى أجمل وأهدأ مقبرة رآها فى حياته . كان الهواء يهمس فى أوراق الأشجار المشرقة على الأجداث ، التى كان

أكثرها أجداث نساء وأحداث . . فإذا لم يكن من الموت بد ، فهنا يتمنى المرء لو ينام . . .

وبعد سفر ثلاثة أسابيع ، وصلوا ناپولى ، واستأجروا مسكناً مشرفاً على الخليج الأزرق . . وكانوا يرون ، ليل نهار ، تصاعد الأبخرة الخفيفة من بركان ڤيزوف ، وألسنة اللهب وظلال الدخان تنعكس على مياه البحر . . وبرغم كل ما كان حولهم من مشاهد رائعة ، تؤلف بين الطبيعة والتاريخ ، لم يكونوا سعداء . لم يكونوا يعرفون أحداً . . وأصبحت وحدتهم الدائمة عبئاً ثقيلا ينوءون به . وتذكروا ، تحت هذه الشمس الجميلة ، بلادهم ، وحنّوا إلى : وندسور ، ومارلاو ، ولندن نفسها . فما هذه الجبال الشامخة ، وهذه السماء الصافية ، كلها ، بغير صديق ؟ ! إن مسرات المجتمع هي مبدأ الوجود ومنتهاه . . وكل هذه المناظر ، مهما تبد رائعة ، تتلاشى من صفحة الفؤاد ، كدخان تبدده الرياح ، إذا ما فكر المرء فى المشاهد المألوفة ، التى مهما تكن عادية ، أو تافهة ، فهى ممتزجة بألوان من المودة البهيجة . . .

ففى الطرقات ، كانوا ينظرون ويغبطون الناس الفقراء ، من عمال ، بل وشحاذين ، يقفون ليتبادلوا السلام ، والكلام . . وكان شللى ، وهو الذى يحس بجوانحه تفيض حناناً نحو الناس ، يدهش ، ويألم ، إذ يجد نفسه دائماً وحيداً منفرداً بينهم . وكانت مارى تشكو من أنها ، فى كل مكان ، تعدّ « الأجنبية » . وكانت فى مستهل حمل جديد . وأصبحت كلير عندها لا تطاق . ولقيت متاعب منزلية خطيرة . فإن خادمها الإيطالى ، پاولو ، قد غرر بالمربية السويسرية . فأرادت مارى أن ترغمه على الزواج منها ، وانتهى أخيراً بالقبول ، ليأخذ زوجته ، ويرحل لساعته عنهم ، مقسما على الانتقام منهم ! . ثم أصيبت كلير بمرض شديد خفى ، مرض غريب لم تفهمه مارى . . .

فبرموا بناپولى ، وتعبوا من عيشتها ، فقرروا العودة إلى روما . إن حاجة

دائمة للتغيير كانت تقلقهم ، وترهقهم من أمرهم عسرا ، كالمريض المستلقى فى سريره ، يبحث سدى فى الفراش عن موضع رطب ، ما دام ينقل معه الحمى حيثما تحرك أو تقلب . . والظاهر أن حرارة الربيع فى روما قد أتعبت وليم الصغير ، فأشار الطبيب بنقله سريعاً إلى الشمال . . فهمّوا بالسفر . . وإذا به يصاب فجأة بدوسنطاريا حادة . وظل شللى ، مدى ستين ساعة ، لايترك يد ولده الصغير الحبيب . فقد كان يزداد به تعلقاً . وكان صبياً ذكياً ، حنوناً ، حساساً . شعره أشقر كالحرير ، وبشرته شفافة كالورد ، وعيناه زرقاوان متألقتان كعينى شللى . وصار فى النزع ، وما زال الطبيب يأمل فى إنقاذه . فعاش ثلاثة أيام سوياً ، ثم قضى نحبه ، والشمس رأد الضحى . . .

ودفنوه فى المقبرة الإنجليزية ، التى كان أبوه عندما مر بروما قد أعجب برونقها وهدوئها . . وكان الهواء ما زال يهمس فى أوراق الشجر ، ويغنى . . ورأى شللى ولده يختفى تحت رقعة من الأرض ، زانها الزهر والعشب والشمس .

« فانى » . . « هاريت » . . « كلارا الصغيرة » . . « وليم » . . . لقد خيل إليه أنه محوط بجو موبوء وبيل ، يصيب كل الذين يحبهم ، واحداً بعد واحد . .

٭ ٭ ٭

لكأنى بهذين الزوجين الشابين ، كانا مسلاة للآلهة ، تضطهدهما وتلاحقهما بضربات عنيفة ، تحمّلاها ، حتى الآن ، بشجاعة ، وصبر جميل . . غير أن مارى ، فى هذه المرة ، خرّت صريعة ، وتخلت عن النضال . فأخذها شللى إلى الريف ، وأسكنها ڤيلا جميلة . . وكان قد استوى عندها كل شىء . . كانت تفكر دائماً ، وترى تينك القدمين الصغيرتين تجريان على رمال شواطىء نابولى ، وتسمع العبارات الساذجة الشائقة ، التى تعبر أجمل تعبير عن : الحب ، والعُجب ، والمرح . . وتجلس جامدة فى مكانها ، تحدق بعينيها فى الفضاء البعيد ، ذاهلة ، لاتخرج عن صمتها ، إلا لتزور قبر وحيدها . .

ولما بلغت جودوين أنباء حزنها ، كتب إليها معاتباً ، فالحزن غير خليق بخلقها . به تصبح عادية كأى من بنات جنسها . فماذا ينقصها ؟ . أو ليس لديها الرجل الذى اختاره قلبها ؟ وهى فى بسطة من العيش ؟ . .

[إذن ، فقد فقدت ولداً ، وكل ما بقى فى الكون ، كل ما هو طيب ، وجميل ، وجدير بعطفك ، قد صار لاشىء ، لأن ولداً عمره ثلاث سنوات ، قد مات ؟ !]

وكان شللى كذلك يشكو منها ، إليها ، ويألم . . ولم يصبه ما أصابها . . فقد كان « آريل » : (روح الهواء ، المحلّق فى سماواته) ينظم الشعر ، ويصف نضال الروح ضد المادة ، نضال الرجل الحر ضد المجتمع . وإذا ما هبت عليه أحزان مارى ، سأل الرياح : أن تجعل منه قيثارتها ، وتنفخ فيه من روحها . وسأل الرياح : أيكون الربيع ما زال بعيداً ، ونحن فى الشتاء ؟ . .

ولما آن لمارى أن تضع حملها ، قصدوا فلورنسا ، ليكونوا على مقربة من طبيب بارع . ولكن أبرع طبيب كان فلورنسا نفسها ، المدينة التى ليست للوحدة فيها وحشة . فيها اجتمعت أرواح الشعراء والفنانين : يعيش المرء فيها مع « دانتى » ، ويجلس إلى جانب « سافونارولا » ، ويرى « جيوتو » يعبر السبيل .

وكان شللى يحب الإشراف على المدينة من روابى سان منياسّو . والسقوف الحمراء تبدو كخطوط جلية مستقيمة . . ونهر الأرنو يموج بالأمطار ، ويطوى مياهه الصفراء بين البيوت القديمة ، التى كأنها جماهير من الناس قد هرعت إلى ضفافه ، واحتشدت على جسوره . . والوادى يرفل فى حلل ملونة بالزهور .

فى هذا الجو الروحى ، استردت مارى بعض مزاج الحياة . . واختلطت بعض الشىء ، فى النزل العائلى (البنسيون) ، بالسكان . وجاء الوضع سهلا سريعاً .

وعند ما رأت نفسها ، من جديد ، وعلى ذراعيها طفل ، تبسمت ، لأول مرة ، منذ مات وليم . .

ودعت ولدها : « برسى - فلورنس » . . .

٢٨ ـ أى عروس . . . لأى عريس !

كل شىء فى الحياة يجىء مسلسلا . صديق يجىء بآخر . مارى وپرسى ، اللذان طالما تألما من الوحدة ، وجدا نفسيهما بغتة ، دون أن يحركا ساكناً ، محور فريق رقيق مرح من الناس . . والصدفة هى التى أدت هذه المعجزة : كان شللى بدأ يشكو ألماً فى جنبه . فقد أثر فيه هواء جبال الأپنين ، الذى يهب بشدة فى الشتاء على فلورنسا . . ونصحه الطبيب بالسفر إلى بيزا . . وهناك ، لحق به أحد أبناء عمه : « توم مدوين » ، وهو ضابط سابق فى جيش الهند ، مفتون بالأدب ، خطر له أن ينشد عشرة الأديب الوحيد فى الأسرة ! . . وكان ، رغم شهامته ، مضجراً إلى حد يزهق الروح . . وقد عرّف شللى بزوجين ظريفين : إدوارد وليامز وقرينته . وكان وليامز هذا ، مثل مدوين ، ضابطاً قديماً فى فرقة الفرسان بالهند ، ثم اعتزل الخدمة ، بسبب صحته ، كما يقول . وكان شاباً غاية فى الصراحة والتبسط ، شديد التطلع للمعرفة . فأعجب به شللى ومارى ، وبدت لهما زوجته امرأة فاتنة ، آية فى الجمال ، ورقة الحاشية ، ودماثة الطبع . وكانت موسيقية بارعة . وأصبح البيتان ، فى الحال ، على ود عظيم . . وعرف شللى وزوجته ، أخيراً ، لذات : الزيارات بلا كلفة ، والإعجاب المشترك ، والثقة المتبادلة التى تكوّن متعة الصداقة الحقة .

وماتكاد توجد حلقة من الصحاب ، حتى تجتذب إليها النفوس المعتزلة . فجاءهم يسعى إيرلندى يدعى « الكونت تاف » . ويونانى هو الأمير « ماڤرو كورداتو » . أما ثالثة الأثافىّ فقسيس إيطالى شيطانى عجيب ، يدعى الأستاذ الأب الموقر « پاكيانى Pacciani » ، ويطلق عليه : « إبليس بيزا » : أسقف بلا دين ، وبروفسور بلا كرسىّ ، ومن كبار هواة النساء واللوحات والأنتيكات . وخبير ، ومثمن ،

وسمسار عالمي . . الرجل الذي يجد دائماً قصراً للإيجار ، ويقبض أتعابه من المستأجر ومن المالك ، ويوصي بمعلم للغة الإيطاليـة ، يقتسم وإياه أجر الدروس ؛ ويهمس في أذن السائح الإنجليزي المار بالبندقية ، بعنوان « المركيز » الذي يريد أن يبيع لوحة زيتية قيمة قديمة ! . . ثم هو الرجل الذي يرفع الكلفة ويصبح على ألفة وثيقة مع أي بيت ، بمجرد وضع قدمه فيه ! . .

وكان يطلق على كل من ماري وصاحبتها اسم : « الإنجليزية الجميلة » ، ويروّح عنهما بحكايات العائلات الكبيرة في بيزا ، وأسرار سيدات الطبقة الراقية ، اللواتي هو لهن الصديق الوديع ، يستودعنه خوالج ضعفهن ، وهو لهن الأب المحترم ، يفضين إليه باعترافهن ! . . .

* * *

وأثرت إحدى روايات القس پاكياني في شللي تأثيراً شديداً :

ــ الكونت ڤيڤياني من كبار أعيان فلورنسا ، تزوج ، للمرة الثانيـة ، من امرأة تصغره بكثير . . وكان له من زوجته الأولى فتاتان ، غارت الكونتس الجديدة من جمالها ، فأقنعت زوجها بإرسالها إلى بيزا ، وإدخال كل واحدة منهمـا في دير ، حتى تجـدا عريسين يقبلان البناء بهما بلا مهر . .

وكان البروفسور پاكياني ، الذي عرف الفتاتين منذ طفولتهما ، يتحدث بحماسة عن جمالها الرائع ، وروحهما الجذاب . . ونوه خاصة بالكبرى ، « إميليا » التي كانت نابغية . . قال :

ــ يا للمسكينة ! . . إنها هناك ، بين جدران الدير ، كأنها عصفور في قفص . . ترى شبابها يبلى بلا هوى ، هي التي خلقت للحب والجوى ! . . وبالأمس ، نضحت بالماء زهوراً في صومعتها ، قائلة لها : « أجل . . أنت ولدت لتنبتي ، وتورقي . . أما نحن ، المخلوقات المفكرة ، فقد جبلنا لنتحرك ، ونعمل ، لا لنذبل ونيبس » . . وهذا الدير ، دير سانت آن ، مكان فظيع ، ترتجف

نزيلاته الآن من البرد ، وليس لديهن من وسائل الدفء إلا الرماد . . فما أحراهن بالشفقة ! . .

هذه الرواية أيقظت فى شللى مشاعر الفارس الشارد المغوار ، التى كانت نائمة ، منذ بضع سنوات ، فى فىء الحياة الزوجية ، وظل راحتها الظليل .. فوجه ألف سؤال، وأظهر أشد الاشمئزاز من الكونت الشيخ ، وغاية الاهتمام بالشهيدة الجميلة . . .

لم يستطع باكيانى أن يقاوم لذة الجمع بينها وبين شللى . . تلك اللذة التى تصيب بدائها بعض العجائز ، فيحبون أن يروا كل الشباب الأحبة : اثنين اثنين . . فاقترح على شللى أن يأخذه إلى دير سانت آن . . .

وكان فعلا مكاناً شقياً قصياً ، يجتاز زوّاره بوابة خربة . . وذهب القس فى طلب إميليا . . ولم يلبث مفيستوفليس [1] أن عاد بمرجريت . . . ولم يكن قد بالغ فى وصف جمالها . . فهذا شعرها الأسود معقوص فى عقدة بسيطة ، كإحدى إلهات الإغريق الملهمات . . ومحيّاها كامل الحسن ، كأنه من صنع مثال مبدع . . وشحوب بشرتها ، الشبيه بالمرمر ، يزيد فى تألق عينيها النجلاوين . السوداوين ، المتلئتين بنعاس الاشتهاء . . ذاك الذى تفوق بعض الإيطاليات فيه الشرقيات ... .

وما كاد شللى يدخل قاعة الاستقبال الكئيبة ، حتى أحس أنه يحبها . ولم يكن الحب عنده اشتهاء بدنياً ، وإنما حاجة إلى التضحية ، والإعجاب . . إلى التضحية بالنفس لمن تعجب به . . فهو دائماً يحتفظ ، فى الواعية الخفية لحساسيته ، بتلك الصورة التى تمثل الجمال الجسدى الكامل ، متحداً مع الجمال الروحى . . تلك الأسطورة التى تمثل امرأة فاتنة مضطهدة ، يكون هو لها الفارس المنقذ . . أسطورة كانت فى الصميم من كل مشاعر الحب التى عاناها ، والتى حملته على خطف هارييت ، لينقذها من اضطهاد أبيها . . والتى جعلته يحب مارى لأنها كانت

(١) إشارة إلى الشيطان فى رواية فاوست .

تعسة . . مزيج من النسب ، التي يجهلها هو نفسه . . من الاشتهاء والشفقة . . من الخيال والرحمة . . عاطفة عرف كيف ينقيها ويرفعها ، وعرفت كيف تحرك وتثير كوامن قوته الخالقة للشعر ، إلى أقصى حدود الخلق والإبداع . . .

ولقد اعتقد دهراً طويلا أنه وجد فى مارى ذلك الحب الروحانى . . ولعلها كانت أول الأمر على نحو الصورة المثالية التائهة فى ضباب مخيلته . . ثم لم تلبث الحياة اليومية المشتركة بينهما ، أن جعلته يكتشف فيها تقاطيع لا يمكن أن تمت بسبب أو تنتسب إلى الرؤيا العلوية . مارى : ربة البيت ، وأم الأولاد ، كانت أشد جفوة وجدباً من تلك الفتاة الباسلة المتحمسة الحنون ، فتاة سكنر ستريت . . فلا غرو إذا ظهر فى هذا الجو العملى فتورها . . كما أن غيرتها كانت تذهب أحياناً إلى دركة واطئة من الضعة . .

أما هذه الحسناء الحبيسة الغامضة : « إميليا » ، فإن المعبودة الملهمة يمكن أن تتقمص له فيها ، لأنه لا يعلم من أمرها شيئاً . وها هو ذا قد لقى ، أخيراً ، فى هذا الدير الأجنبى ، الرؤيا البديعة ، العابرة ، الهاربة - التى كان يلاحقها منذ صباه ، وفى كل مرة يزعم أنه أمسك بها - تتلاشى ، وتختفى ، وتتركه لامرأة تجرح حساسيته ، لأنها امرأة من لحم ودم . . .

ولما دخلت إميليا قاعة الاستقبال ، اتجهت إلى عصفور هناك فى قفص ، ووجهت إليه خطاباً ، بدا لشللى أشعر ما فى الدنيا :

— « أيها الطائر الصغير المسكين ! أنت تموت من الضنى ! . . ولشد ما أشفق عليك ، وأرثى لك ! . لشد ما تشكو وتعانى ، إذ تسمع أترابك ، فى جماعات ، تناديك ، قبلما ترحل على بساط الريح إلى بلاد مجهولة ! . . أنت مثلى ، كُتب عليك أن تقضى هنا ، فى هذا السجن ، حظك الكئيب من الأيام . . أوّاه ! . . لماذا لا أستطيع إطلاقك ، وإخلاء سراحك ؟ ! . . »

ويجرى لسانها هكذا بالشعر المنثور ، لا ينقصه كم ولا كيف . . فرأى

فيها شللى امرأة نابغية. فتمنى عليها العودة إلى زيارتها ، مع زوجته ، وأخت زوجته ، فأذنت عن طيبة خاطر .

ولما قص هذه الزيارة على مارى ، لم يخف عنها العواطف التى خالجته ، وكانا كلاهما من قراء أفلاطون ومريديه ، فعرفت مارى فى هـذا الحب مجرد تأمل فى « الجمال الأعلى » . . وكانت مع ذلك تؤثر أن لو اتجه هذا التأمل إلى تمثال ، أو لو أن شللى فعل ما فعله « دانتى » ، لم يتح له قط أن يخاطب معبودته « بياتريس » . . على أنها ، وقد رجاها شللى أن تصحبه فى زيارة السجينة الجميلة ، ذهبت راضية . . .

وسلّمت مارى بجمال إميليا ، وأنها أشبه ما تكون بـ « تمثال إغريقى » ، وأنها ذات فصاحة تحير الألباب . . . ولـكنها ، فى صميمها ، أحست أنها تؤثر احتشام الإنجليزيات المتحفظ ، على هذا النبوغ الإيطالى الفيّاض . . ورأت أن إميليا تتكلم بصوت مرتفع ، وتقرن كلامها بإشارات مسرفة ، وأنها أحسن ما تكون إذا سكتت . . ولـكنها حرصت على إخفاء هذا الشعور ، بل أبدت لإميليا مودّتها الخالصة . . وكانت كلير أشد تأثراً ، فأحست نحو إميليا ما أحسه شللى . وبينا حملت مارى إلى السجينة هدايا صغيرة من الكتب ، وسلسلة من ذهب ، لم تجد كلير الفقيرة ما تقدمه ، إلا دروساً فى اللغة الإنجليزية ، تقبلتها إميليا بفرحة .

وبدأت مراسلات ، لا نهاية لها ، بين الدير ومدينة بيزا :

[أختاه ، العزيزة !] . . [مارى المحبوبة !] . . [برسى الرقيق !] . الخ الخ .

ومع ذلك كانت « الأخت العزيزة مارى » تبدى أحياناً بعض البرود . .

فيجىء الرد : [. . . ولكن زوجك يقول لى إن هذا البرود الظاهر ليس إلا رماداً يتأجج تحته قلب حنون] . .

والحق أن أعصاب الأخت العزيزة مارى بدأت تهتاج شيئاً ما . . أما شللى

فمشغول بأن يبنى حول إميليا عالماً من تلك العوالم الخيالية ، التى يحب الفرار إليها والالتجاء . . يضع لها قصيدة حب عظيمة ، على نهج أشعار داتى ، أو أناشيد شكسبير . . يجعل فيها من إميليا : صورة ، ليست إلا آلاء لجمال السجينة ، وتمجيداً لشخصها المعبود ، الذى يختلج إحساساً ونعمى ، ووراء الجدران ، اختلاج البدر وراء السحاب . . .

وبالرغم من أن مارى قد كررت لنفسها ، لتطمئن وتتعزى ، أن كل هذه الأشياء البديعة إنما هى موجهة إلى جوهر إميليا ، لا إلى عرَض فتاة فتانة ، ذات عينين نجلاوين ، وشعر أسود . . فقد تألمت إذ رأت شللى ينظم دائباً بكل هذه الحماسة والانجذاب . . ومن حسن الطالع أن النظم كان يشغله إلى حد لا يدع له وقتاً لزيارة بطلته . .

وبينا كان هذا العاشق الأفلاطونى يبنى عالماً بعد عالم من خيالاته ، تلقت إميليا من أبيها الكونت ڤيڤيانى رسالة ، يقول فيها إنه وجد زوجاً يرضى بها بلا « دوطة » . . ويسألها أن تحزم أمرها ، وتقنع بقدرها . ولم يكن فى هذا الزوج المدعو « بيوندى » ما يغرى به . . فهو يعيش فى قصر بعيد ، تكتنفه المستنقعات . لم تره قط ، وليس لها أن تراه قبل يوم الزفاف . وكانت هذه الخِطبة على الطريقة التركية القديمة ، مما تشمئز له إميليا . . ولكن ماباليد حيلة . . . وماذا تنتظر بعد من دهرها ؟ . . إن رب جنيات الماء والنار والهواء (شللى) متزوج من الحسناء الواقعية مارى ، فهو لا يستطيع بداهة أن يحررها من أسرها . فإذا تزوجت من « بيوندى » هذا ، فلعلها تستهل حياة أسعد وأهنأ ! . . وإذا لم يعجبها الرجل ، فسوف تلقى سواه وسواه . . وفى ميدان الهوى متسع . . ولا يمكن أن تقفر الأرض من الفرسان الشجعان الخدم ، ولو بين المستنقعات الآسنة ! . .

وقبلما يتم شللى قصيدته ، عرف أن إميليا قد تزوجت ! . .

٢٩ — الفارس الخادم

ظلت كلير ، خلال الأيام الأولى ، التى تلت سفرها من البندقية ، تتلقى أخبار ابنتها أللجرا بانتظام على يد هوبنر وزوجته . فعرفت أن الصغيرة تشكو البرد ، وقد أصبحت هادئة رزينة ، كما لو كانت امرأة كبيرة . وكان من رأى هوبنر نقلها من ڤنيس . ولكن كان من المستحيل مفاتحة أبيها فى أمر نافع ، وهو الذى يزداد استهتاراً واندفاعاً فى الدعارة .

ثم انقضت بضعة أشهر بلا خبر . فاشتد القلق بكلير ، وكتبت إلى هوبنر الرسائل تلو الرسائل ، دون أن تحصل من القنصل أو زوجه على رد . . ثم علمت بحدوث انقلاب كبير فى حياة بيرون ، بدأ بسبب مرض خطير ألزمه الفراش . واضطر دون چوان إلى طرد الفتيات المحتالات اللواتى أضنين حاله ، ونهبن ماله . . . ولم يكد يبل ، حتى شهدته ثانية محافل ڤنيس ومجتمعاتها ، التى كان قد هجرها طويلا ، ونسيها . وهناك لقى أجمل امرأة فى الموسم ، الكونتس الشابة تريزا جويتشيولى ، الحسناء ، الشقراء ، الشائقة ، ذات السبعة عشر ربيعاً . . التى تزوجت لعامها من كونت نبيل شاب قرناه . ووجدها بيرون بديعة التكوين ، يفتن اللب صدرها الناهد ، ويستأسر بالمشاعر . ومن اليوم الأول ، دس فى يدها ، وهو يحيى مستأذناً فى الانصراف ، ورقة ، تلقفتها ببراعة . كانت موعداً . فجاءت إلى موعده . وكان ذاك الذى قال بحبه إياها شاعراً عظيماً ، وفتيًّا جميلاً ، وغنيًّا نبيلا . . . وهكذا أحاطت بها كل العوامل التى تجعل للحياة طعماً ، فاستسلمت له ، بغير تمنّع . . .

وبعد بضعة أيام ، أخذ الكونت جويتشيولى زوجته إلى « راڤنّا » . فتوسلت إلى بيرون أن يلحق بها . . وكان رأيه : « أن الساحرة تنسى أنها تستطيع من قبل أن تصفّر لأى رجل ، فيتبعها إلى أى مكان . . أما بعد ! . . . »

كان لا يطيق فكرة الحب الهُوام، الثابت، الطويل المقام.. فلم يحرك ساكناً.. وكان برفضه فخوراً.

فكتبت إليه من راڤنّا بأنها مريضة جداً، فلم يخب النداء إلى الشفقة حيث خاب النداء إلى الحب. ولبى دون چوان النداء فى الحال.. وشد إليها الرحال.. وفى طريقه توقف، بالطبع، فى بلدة فاريرا، وغيرها من المدن، ليعاين ألوان الجمال المحليّة، ويتذوّقها.. وعلى ما كان يظهره من عدم اكتراث، كان يهرع إلى تريزا، والفرح يستخفه. إن الليبيات من النساء، كاللادى بيرون، أو كابر، سرعان ما يتعبنه ويضجرنه. كان يحتقر هذا الجنس احتقاراً شديداً، إلى حد لا يسأل معه خليلة له: أن تكون رفيقة فكر، أو خدينة روح. وكانت زوجات الخبازين، ونساء تجار البندقية، مع ذلك، من طبقة غير طبقته، ومن نوع دون نوعه بكثير.. لكن الكونتس جويتشيولى، وقد جمعت، بين البلاهة الحنون، ودماثة الأصل الكريم. أمسكت، دون عناء كبير، بتلابيب دون چوان، وعلّقت بحبالها جوّاب الآفاق.. وأصبح دون چوان ممرّضاً مخلصاً، ملازماً فراشها، يناولها الدواء، ويذوب من العطف والاشتهاء.. كتب يومئذ: «إذا أنا فقدتها، فقدت إنسانة جازفت بأشد الأخطار من أجلى، ولدىّ كل الأسباب التى تحملنى على حب... ولست أدرى ما أفعل إذا ماتت، إلا أن ألعب بالرصاص رأسى.. وأرجو أن أفعل...»

ولما اضطرت الغالبة المغلوبة أن تغادر راڤنا إلى بولونى، مع زوجها، تبعها.. لقد أصبح «الفارس الخادم» Cicesbeo التقليدى المقطور..:

«ولكننى لا أستطيع القول بأننى لا أشعر بهذا الانحطاط.. خير للمرء أن يكون زارعاً جاهلا، أو صياداً جباناً، أو أى شىء آخر، من أن يكون عازفاً للفارغات، أو حاملا لمراوح الفاتنات.. ومع هذا كله، فهاأنذا الفارس الخادم!.. Cavalier' sirvente.. إى وربى!.. إن هذا لهو العجب العجاب!...»

* * *

علمت كلير بهذه الحكاية كلها ، وأن بيرون قد أمر بإحضار أللجرا إلى بلدة بولونى . وراع كلير أن ترى بنتهـا تعيش فى بيت خليلة بيرون الجديدة ، امرأة لا داعى يدعوها إلى حب البنت ، وقد تـكون ثمة دواع لكى تـكرهها . . فـكتبت خطاباً محتداً ، تطالب فيه باسترداد بنتها . فجاء رد بيرون :

[إننى لا أوافق مطلقاً على طريقة تربية الأطفال فى بيت شللى ، إذ أعتقد أننى بارسال ابنتى إليك ، إنما أرسلها إلى مستشفى . . فاما أن تذهب البنت إلى انجلترا ، وإما أن أضعها فى دير . ولكنها لن تتركنى بعد الآن لتموت من الجوع ، أو من الفاكهة الفجة . . أو لتنشأ على الاعتقاد بان الله غير موجود]

ولما تلقت كلير هذا الخطاب ، دونت فى مذكراتها :

« خطاب من اللورد بيرون عن : الفاكهة غير الناضجة ، ووجود الله ! . . »

ثم انخرطت باكية . لقد استبشعت إرسال أللجرا إلى دير راهبات إيطاليات ، مجرد من كل أسباب النظافة ، ومن محبـة الأطفال . . فوجهت إلى بيرون رسائل يائسة ، لاذعة ، تـكاد تـكون مهينة مقذعة . . فـكتب إلى شللى يشكو هذا منها ، وينذر بألا يراسلها فى المستقبل . . فرد شللى عاتباً عليه تأثره بهذه السفاسف من كلير ، التى حملها شقاؤها ، وحرمانها من بنتها ، ورغبتها فى رؤيتها ، على كتابة السخف . . وأنها أولى بالعطف والصفح منها بالعقوبة والملام . .

وكان شللى ، نفسه ، فى حاجة إلى هذا الترفع فى وجهـة النظر ، ليتغلب على ما حوله من شجار النساء ، الذى ينغص عيشه ، ويعكر صفو بيته : مارى تزداد أعصابها هياجاً ، يوماً بعد يوم . جودوين يرهقه بمطالبه المالية ، حتى لقد اعتزم ألا يلبيها بعـد . فقد بلغ ما أعطاه نحو خمسة آلاف جنيه ، دون جدوى ، اللهم إلا استكشافه صَغار « صديقه الموقر » ، وضَعَـة نفسه . .

ولما كانت رسائل الملام والمطالبة بالمـال ، التى يوجهها جودوين إلى ابنته مارى ، تنكد عيشها ، فقد انبرى شللى ينذر هذا الفيلسوف العَجْر ، بأنه ، منذ الآن ،

سيحول دون تسلم ماري رسائل أبيها، إذا ما ظلت رسائله وقفاً على شؤون المال والسؤال:

[ليس لدى ماري مال تحت تصرفها، وما ينبغي لها . . ولو كان عندها، لما ترددت المسكينة في إعطائك كل مالها . . وأب مثلك، أعني عبقرياً مثلك، لا تنقصه الموضوعات التي يعالجها مع ابنة مثلها ... ولست في حاجة إلى أن أقول لك إن : إهمالك الكتابة إليها إطلاقاً، منذ أصبحت رسائلك لا تأتي إليك بنتم، لا يمكن أن يفسر إلا على وجه واحد . . .]

«آرييل» - روح الهواء - قد بدأ يحتد ويشتد، ويعالج شؤون الغبراء!..

* * *

أما ماري القلقة على أبيها، وكلير القلقة على بنتها، فقد زاد الاحتكاك بينهما في هياج أعصابهما . وكان إعجابهما المشترك برجل البيت الواحد حجر عثرة في طريقهما إلى التفاهم، بدلا من أن يكون منفذاً بينهما للتراحم، أو عاملا للتعاطف.

وعملت ماري كل ما يعمل لتشعر كلير بثقل مقامها . وانتهت هذه مرة أخرى بالتسليم . . ووجدت لها سيدة إنجليزية عجوز : وظيفة مربية في فلورنسا . . فرحلت.

وكتب إليها شلي رسائل عاطفية طويلة، لكنها بريشة . . لم يطلع ماري عليها، وربما كلير ألا تشير إليها، عند ما تكتب إلى أختها . وكان لهذا الإخفاء غضاضة وحزّة في نفسه . كان الحب عنده اشتراكا مشاعاً في الأفكار والأفعال، بحيث لا تكون ثمة حاجة بين المحبين إلى تفسير . . بيد أن الحياة علمته أن الكمال لا وجود له، وأن عليه قبول ما هو دون ذلك . . وعلمته أن الحقيقة النقية، الخالصة، الصميمة، هي بالنسبة لبعض النفوس سم زعاف . . وما كانت ماري لتستطيع تناولها إلا بجرعات مخففة، ممزوجة بالماء . . أي بالإخفاء ! . .

٣٠ ـ خطاب فاضح

من ر. ب. هوبنر ، الى اللورد بيرون

فنيس - ١٦ سبتمبر ١٨٢٠

[عزيزى اللورد

أراك مندهشاً ، وبحق ، من تغيير رأيى فى « شيلو »[١] . ولكن إذا انا كشفت لك عن السر الشنيع ، فذلك لاعتمادى على أنك ستخفى أمر الإحاطة به عن شللى وأهله ، إكراماً لزوجته التعسة ، ورعاية لى ولزوجتى . وإنى واثق من أنك ستجد هذا الرجاء معقولا ، عندما أكشف لك عن الحقيقة ، التى هى فى مصلحة كريمتك أللجرا . إذ سوف تتشدد فى تصميمك النبيل على ألا تعهد بها إلى أمها . . .

فاعلم ، إذن ، أنه عند ما كان آل شللى يقيمون هنا ، كانت كلير حاملا من شللى . فأنت تذكر ما سمعته من أنها كانت دائماً متوعكة ، وأن طبيباً يواصل السهر عليها . ولست من البر بها بحيث أظن أن ضروب الأدوية العديدة التى كانت تتجرعها إذ ذاك كانت لمجرد استرداد صحتها . . وكذلك نفهم إيثارها البقاء وحدها فى « فيلا داست » ، رغم خوفها المعروف من الأشباح واللصوص ، على البقاء هنا مع شللى وأختها . .

ومهما يكن من الأمر ، فقد رحلوا من هنا إلى نابولى ، حيث دعى شللى ، ذات ليلة ، إلى جوار كلير المريضة جداً . ووجدت زوجته بالطبع غرابة فى أن يدعى هو من دونها . وبالرغم من جهلها طبيعة علاقاتهما ، فقد كانت لديها أدلة كافية على عدم اكتراث شللى بها ، وحقد كلير عليها . . ولما كان شللى قد أرادها على البقاء لا تحرك ساكناً ، فإنها لم تجرؤ على التدخل . .

---

(١) كناية أطلقها بيرون على شللى .

وبعثوا فى طلب مولدة ، واضطر الشريكان الفاضلان ، اللذان لم يعدّا شيئاً لاستقبال المخلوق المنكود الذى كان سيولد فى الدنيا ، إلى مهر تلك المرأة مالا ، لتحمل الطفل إلى ملجأ اللقطاء ، حيث أُدخل بعد نصف ساعة من مولده . . واضطرا أيضاً إلى شراء صمت الطبيب بمبلغ جسيم .

وظلت مسز شللى ، خلال مرض كلير ، فى أشد القلق عليها ، دون أن تستطيع الدنو منها . فقد كان هذان الفظّان ، بدلا من شكرها على اهتمامها بأختها ، ولو ببعض كلمات طيبة ، لا يفتآن يسرفان فى كراهيتهما إياها ، ويعاملانها بغلظة شنيعة . . وعملت كلير ما لا يعمل لتحمل شللى على هجر زوجته . . .

وهذه المسكينة ، مسز شللى ، مهما يكن ساورها من الشكوك ، لم تعرف شيئاً من مغامرة نابولى . والخيرة فى جهلها ، لأن علمها بالأمر لا يعود عليها إلا بزيادة شقائها . وقد عرفنا هذه الحكاية كلها من المربية السويسرية ، « إليز » ، التى مرت بهذه المدينة ، صيفاً ، مع سيدة إنجليزية ، تثنى عليها ، راضية عنها . . وقد روت لنا ، فيما روت ، أن كلير لا تتردد فى أن تقول لمسز شللى إنها تتمنى موتها ، ولا فى أن تسأل شللى كيف يستطيع العيش مع مخلوقة مثلها !

أعتقد ، بعد هذه الرواية ، أنك لا تدهش من سوء ظنى بشللى . وإنى أعترف بكفايته ومواهبه . . لكنى ما كنت أتصور ـ كما تقول ـ أن يكون الرجل « مهووساً ضد الخلق » ، ويكون له شرف . . وقد سمعت كلاماً عن شرف اللصوص ، لكن هذا لا يعنى إلا مصلحتهم الذاتية . . كذلك مهما يكن من مصلحة شللى الظهور بمظهر محترم ، قدر الطاقة ، مع الآراء التى يبديها علانية ، فمن الجلىّ عندى أنه لا يستوحى الشرف فى أى فعل من فعاله . وإنى أخشى أن يكون هذا الخطاب محرراً بأسلوب غير منسق أو لائق . . ولكننى لا أرى ما يحملنى على معالجة هذا الموضوع المخزى مرة أخرى . راجياً أن تحمل نفسك على إدراكه كما هو . . .

وداعاً ، يا عزيزى اللورد ، وإنى لك الخادم المخلص . ر . ب . هوبنر]

من بيرون الى هوبنر

[عزيزى هوبنر
جاءتنى رسائلك وأوراقك متأخرة قليلا . حكاية « شيلو » صحيحة بكل تأكيد ، وإن كانت « إليز » ليست هنا إلا نوعاً من « شاهدة ملك » . . ولعلك تذكر شدة رغبتها فى العودة إلى العمل عنـدهم ، وهى الآن تتركهم ، وتسبّهم وتسلقهم بألسنة حداد . . أما عن الوقائع فلا يأتيها الباطل من أى جانب . وهذا هو نحوهم ومجرى حياتهم . ثق أننى سأستمع إلى نصحك . .
وإنى لك دائماً المخلص . . . بيرون]

٣١ – صمت اللورد بيرون

جاء شللى إلى رافنّا ، بدعوة من بيرون ، الذى دعاه ليحدثه فى شؤون هامة . فوجد دون چوان فى خير حال . . فالوجه الذى كان مضنى من الإسراف فى الموبقـات ، قد استرد نضرته . ذلك أن حكم الـكونتس تريزا جويتشيولى قد أنقذه من دعارة البندقية المشينة . حتى وصيفه الخاص « فلتشر » قد سمن وترعرع ، كما يتضخم الظل بنسبة الجسم الذى يبسطه .

وكان قصر جويتشيولى فخماً أنيقاً ، والعيش فيه رغداً ، كما لو كان قصراً ملـكياً . فرأى شللى ، على السلم المرمرى ، حيوانات من كل نوع ، تعيش كأنها فى حر بيوتها ! فهناك : ثمانية كلاب هائلة ، وثلاثة قرود ، وخمس قطط ، ونسر ، وببغاء ، وصـقر ، تتشاجر جميعاً وتتنـاحر ، ثم تصطلح ، وتسوى فيما بينها اختلافاتها العائلية ! . وكانت الإسطبلات عامرة بعشرة من الخيول الـكريمة .

واستقبله بيرون بترحاب وحفاوة حارة . وقضى الصديقان الليـل كله فى تلاوة أشعار بيرون ومناقشتها . وبدت لشللى أغاريد دون جوان الجديدة غاية فى الإبداع . وكان احتكاكه بعبقرية بيرون يحمله دائماً على القنوط . فقـد كانت

أشعاره ، بجانب أشعار بيرون الجزلة العامرة ، تبدو له سقيمة . فيقول لبيرون إنه يراه خليقاً بوضع ملحمة ، تكون لجيلنا هذا بمنزلة الإلياذة للإغريق . وبيرون يتظاهر باحتقار الأجيال القادمة ، وعدم الاهتمام بالشعر ، إلا إذا درّت عليه القصيدة ألفاً من الجنيهات !

واضطر شللى ، الناسك المتقشف ، إلى أن يعيش مرة أخرى على نهج بيرون ، السيد العظيم المترف : استيقاظ عند الظهر ، إفطار فى الساعة الثانية ، عمل إلى السادسة مساء ، ثم نزهة على الخيل من السادسة إلى الثامنة . . وعشاء . . ثم حديث حتى السادسة صباحاً ! . .

ولم يكن بيرون يتحدث إلا عن أشعاره . ومنذ أول يوم ، وبكل مظاهر الود الصادق ، روى لشللى حكايات الفضائح التى تجرى بين النزلاء الإنجليز فى إيطاليا . وعلى الرغم من وعده القاطع لهوبنر وزوجته ألا يكشف سرهما ، فقد أطلع شللى على الخطاب الذى يتضمن اتهامات المربية السويسرية إليز . وزاد على ذلك ، بالطبع ، تأكيده أنه لم يصدق قط شيئاً من تلك الحكاية السخيفة ! . .

ولكن مجرد تهافت هوبنر على تصديق هذه الاتهامات الشنيعة ، وترديدها لبيرون ، قد أضرم قلب شللى حزناً ، وقبض رجاءه من الخير فى الدنيا . فكتب من فوره إلى امرأته :

من شللى الى مارى شللى

[. . لقد أخبرنى لورد بيرون بحكاية توجدت لها لوعة ولذعة ، لأنها تدل على شرّة لا حدّ لوزرها ، ولا سبيل لى إلى تفسيرها . . وعند ما أسمع مثل هذه الأشياء ، أرى صبرى وحكمتى يعانيان تجربة قاسية مرّة ، ولا بد لى من التجلد والتماسك ، حتى لا أبحث عن معزل مجهول لا أرى فيه بعد إنسياً . . فالظاهر أن إليز (وهنا روى لمارى كل الاتهامات التى تضمنها خطاب هوبنر ، من أن كلير خليلته ، وقد حملت منه ، ووضعت ، فألقى بالولد إلى ملجأ اللقطاء) ! . . تصورى مدى

الألم الذى يحز فى طبيعة ضعيفة حساسة كطبيعتى ، لتمضى فى النضال ، فى هذه الأحوال ، فى هذا المجتمع الشيطانى من النساء والرجال . . . فعليكِ أن تكتبى إلى هوبنر رسالة تدحضين فيها هذا الاتهام ، وتبرهنين على كذبه ، بما لديك من أدلة ، إذا كنت فعلا واثقة ، عارفة ، قادرة على دحضه ، وإظهار بطلانه وكذبه . ولست بحاجة إلى أن أملى عليك ما ينبغى لك أن تقوليه ، لا ، ولا أن أوحى إليك محو هذا العار الذى لا يستطيع محوه سواك . . ابعثى إلىّ هنا بالخطاب ، لأرسله بنفسى إلى هوبنر]

من مارى شلى الى شلى

[عزيزى شللى

برغم الصدمة التى أصابتنى ، وهى فوق كل مقدر ، فقد كتبت فى الحال الخطاب المرفق : وإذا كان لا يروعك العبء الثقيل ، فرجائى نسخه لى . لأنى لا أستطيع . . ربّ ، الموتُ أحبُّ إلىّ . . وكذلك أرسل إليك بخطاب إليز الأخير لتضمه إليه ، أو لا تضمه ، كما يحلو لك . لقد كتبت إليك ليلة أمس بشعور مختلف أشد الاختلاف ، أيها الصديق الحبيب . حقاً ، إن سفينتنا تعصف بها الأنواء ، ولكن أحببنى كما فعلت دائماً ، والله يحفظ لى أولادى ، ويهبنا من القوة ما نجالد به أعداءنا . . .

وداعاً يا أعز الناس ! . . اعتن بنفسك ، وكل شىء سيكون ، بالرغم من هذا كله ، على ما نروم ونبغى . وقد انتهى أثر الصدمة بالنسبة لى ، وإنى لأحتقر هذه الفرية ، ولكن لا بد من نقضها ، وإنى لأشكر ، مخلصة ، لورد بيرون ، لأنه لم يصدقها .

ملاحظة : لا تحكم علىّ بعدم التبصر ، إذا كنت قد ذكرت مرضَ كلير فى نابولى . خير لنا مواجهة الحقائق : فهم بقدر خبثهم أشرار . وقد أعدت تلاوة خطابى الذى كتبته على عجل ، لكن الأَوْلى التعبير عن الشعور بقوته الأُولى . .]

من ماری الی مستر هوبنر

بزا فی ١٠ أغسطس ١٨٢١

[بعد صمت قرابة عامين ، أتوجه إليك من جديد ، وآسف أمرّ الأسف للظرف الذى أكتب إليك فيه . .

أكتب لأدفع أبشع الافتراءات عن ذاك الذى سعدت بالارتباط به ، والذى أحبه ، والذى أقدره ، وأعتبره فوق كل مخلوق على ظهر الأرض .

شللى فى هذه الآونة يزور اللورد بيرون فى راڤنّـا ، وقد تلقيت اليوم رسالة جعلت يدى ترتعش إلى حد لا أستطيع معه أن أمسك بالقلم . . « يقولون إن كلير كانت خليلة شللى ، وإن . . . » . . أقسم لكم بشرفى أننى لا أستطيع كتابة الكلمات . . فإليكم جانباً من خطاب شللى ، حتى تروا ما أدحضه . . ولكنى أموت ولا أنسخ شيئاً إلى هذا الحد : من الدناءة ، والشر ، والزيف . . إلى هذا الحد من الشناعة التى لا يتصورها إنسان .

أما أن يكون قد وسعكم تصديقه ! . . فيقف حبيبى شللى ، فى نظركم ، هذا الموقف المفترى عليه ، وهو أرق الرجال ، وأوفرهم إنسانية ؛ فشىء قد آلمنى إلى الغاية التى لا تبلغها الكلمات فى التعبير . . أأنا بحاجة إلى القول بأن وفاقى مع زوجى لم ينغصه قط منغص ؟ . . إن الحب سبب تهورنا الأول ، الحب الذى ضاعفه التقدير المتبادل ، والثقة التامة من الجانبين ، قد زاد على الأيام ، ولم يعد يعرف حداً . . .

والذين يعرفوننى يثقون بمجرد كلامى ، أما أنتم الذين سرعان ما صدقتم الفرية ، فإنى أقسم لكم بكل ما أقدسه فى السماء والأرض ، قسماً بحياة ولدى ، بحياة ولدى الحبيب الجريح ، أن هذه التهمة باطلة من أساسها .

أو لم أقل ما يكفى لإقناعكم ، أم أنكم ما زلتم غير مقتنعين ؟ . . أتوسل إليكم

أن تصلحوا الضر الذى ارتكبتموه ، والإساءة التى سببتموها ، بوضعكم ثقتكم فى مخلوقة خسيسة مثل إليز ، وأن تكتبوا إلىّ بأنكم تعدون روايتها المخزية هراء فى هراء . لقد كنتم معنا طيبين . . ولست أنسى قط عطفكم ، غير أنى أطلب عدلا وإنصافاً]

وأطلع شللى على هذا الخطاب بيرون ، وسأله عن عنوان هوبنر ، فرجاه هذا أن يدعه له ، ليتولى إرساله بنفسه ، قائلا :

ــ إن هوبنر وزوجته قد حصلا منى على وعد بألا أحدثك فى هذا الأمر ، ولا بد من مراعاة شىء من الذوق الشكلى فى الاعتراف لهما صراحة بأنى لم أحتفظ بوعدى . . لذلك أحب إرسال هذا الخطاب بنفسى . فضلا عن أن تعليقاتى عليه ستزيد فى وزنه .

فقبل شللى عن طيبة خاطر ، وسلم إليه الخطاب . ولم تتلق مارى عليه رداً قط[1] .

* * *

وكانت المسألة الهامة ، التى أراد بيرون أن يحدث شللى فى صددها ، هى مصير أللجرا ، فى حالة ما إذا غادر بيرون مدينة رافنا . فالكونتس جويتشيولى ترغب فى السفر إلى سويسرا ، وبيرون يفضل البقاء فى توسكانيا . . ورجا من شللى أن يكتب إلى الكونتس ، ليصور لها حياة فلورنسا وبيزا بطريقة جذابة ، لكى تقبل الذهاب إلى هذه أو تلك . .

وكان شللى لم يرقط خليلة صاحبه ، ولكنه اعتاد أن يُسأل التوسط فى شؤون معارفه ، فلم يتردد فى كتابة الخطاب المطلوب . وجاء خطابه من قوة التأثير بحيث فعل ، فى الحال ، فعله . فتقرر بغتة سفر بيرون وصاحبته إلى بيزا ، حيث

---

(١) بعد موت لورد بيرون ، وجد خطاب مارى بين أوراق الشاعر . . فقد حفظه ، واتبع بذلك أسلم الطرق ، ليحافظ على هدوء باله .

يعيش شللى وزوجه . أما فيما يتعلق بألجرا ، فقد قبل بيرون أخذها معه أيضاً ، ولم ير فى ذلك مانعاً ، ما دامت كلير ليست هناك .

وذهب شللى قبل مغادرته راڤنا لرؤية الطفلة فى دير « مانيا كاڤاللو » . فوجدها زادت : طولا ، ورقة ، وشحوباً . يتهدل شعرها الأسود الجميل فى حلقات على كتفيها . وبدت بين رفيقاتها كمخلوقة من جنس أرق وأنبل . . . وحل لون من الجد الساهم محل حيويتها السابقة . .

وكانت فى أول الزيارة حيية ، ولكنها لم تلبث أن أقبلت عليه ، بعد ما قدم إليها سلسلة ذهبية ، جاء بها من راڤنا . وسارت به فى حديقة الدير ، وهى تجرى و « تنط الحبل » فى سرعة ، حتى لم يكد يستطيع اللحاق بها . وأرته سريرها الصغير ، ومقعدها . . فسألها ماذا يقول لأمها .

— أن ترسل إلىّ قبلة وفستاناً جميلا . . .

— وكيف تريدين الفستان ؟

— كله من حرير وذهب ! . .

وسألها ماذا يقول لأبيها .

— أن يجىء إلىّ فى زيارة قصيرة ، وأن يجىء معه بأميمتى ! . .

رسالة يصعب تبليغها لأبيها النبيل . . وكانت الخلة البارزة فى البنت ، فى نظر شللى ، هى الغرور . كانت تربيتها ناقصة . لكنها تحفظ صلوات عديدة عن ظهر قلب ، وتتحدث عن الجنة ، وتحلم بها ، وتعرف قائمة لا نهاية لها بأسماء القديسين . . وكانت هذه هى التربية التى تروق لبيرون . .

٣٢ - الحب الروحيّ

أثار قرب تشريف اللورد الشهير ، فى نوادى بيزا ، ما تثيره عادة الرحلات الملكية . واستأجرت مارى ، كما رغب إليها شللى ، أجمل بيت خال فى البلد : « قصر لانفرانكى » ، وساعدها صديقاها وليامز وزوجته على إعداد هذا القصر القديم . ومالبثت أن بدت الطلائع ، فوصلت الكونتس جويتشيولى مع أبيها الكونت جامبا . . واستقبلهما شللى ومارى . فبهرتهما ، وطابت لهما ، هذه الحسناء الإيطالية الشابة ، الفياضة العاطفة ، الساذجة . . فقال شللى :

— إنها امرأة رائعة الجمال ، وإذا كنت أعرف شيئاً من طبيعة البشر ، ومن طبيعة صاحبى بيرون ، فلسوف تندم يوماً ، إن قريباً وإن بعيداً ، على طيشها . .

وأخيراً ، جاء دون چوان نفسه . فوقفت مدينة بيزا كلها فى النوافذ تتطلع ، لترى « الشيطان الإنجليزى » ماراً ، ووراءه معرض وحوشه . وكان الموكب حقيقاً بالمشاهدة : خمس مركبات ، سبعة خدم ، تسعة خيول ، كلاب ، قرود ، طواويس ، وطائفة من « أبى قردان » ! . . بعضها وراء بعض ! . .

وكان شللى وزوجه مشفقين من رأى بيرون فى القصر . ولكنه لحسن الحظ أعجبه . قال إنه يحب هذه القصور القديمة التى ترجع إلى القرون الوسطى . وكان فى الواقع من قصور القرن السادس عشر ، لكن اللورد النبيل كان دائماً يخلط طرز العمائر . حتى قاعاته السفلى الرطبة المظلمة بدت له مثيرة للخيال ، وأمر بإنزال الوسائد إليها ، وإعداد فراشه ، لينام فيها ! . . وأصبح ، بمجرد وصوله ، المحور الاجتماعى لفريق بيزا الصغير ، وظل شللى المحور المعنوى . . فكانوا يقصدون بيرون تطلعاً ، وإعجاباً . . ويقصدون شللى ميلا وعطفاً . وكان شللى ينهض فى ساعة مبكرة جداً ، ويقرأ حتى الظهر : « جيته » ، أو « سبينوزا » ، أو « كالدرون » . . ثم ينطلق إلى غابة الصنوبر ، يعمل فى هدوء تام حتى المساء .

فى حين ينهض بيرون من رقاده عند الظهر ، ويتناول فطوراً خفيفاً ، ويخرج للتنزه على حصانه . ويتمرن على إطلاق غدارته . وفى المساء يزور خليلته .. ثم يعود فى الساعة الحادية عشرة ، فيعكف على العمل : ويظل ينظم غالباً حتى الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً . وعندما يأوى إلى فراشه ، محموماً ، مهتاجاً ، ينام نوماً متقطعاً ، ويبقى فى السرير ضحوة النهار .

وهرعت إليه الجالية الإنجليزية فى بيزا ، لا يتمالك أشد المتزمتين أنفسهم من الشوق إلى هذا اللورد المطبوع الأصيل ، الذى يحمل إليهم ، فى أرض أجنبية ، لمحة شائقة من معرض الخيلاء البريطانى . أو لم تر إليه كيف لا يستطيع العيش دون صالون يزوره ، أو نساء يتحبب إليهن ، أو مآدب عشاء يحضرها ، أو يقيمها ؟ .. وكانوا معه من أشد المتسامحين .. أما وقد أراد فرض شللى عليهم فرضاً ، فقد لقى منهم مقاومة وعناداً .

كان شللى يتضجر من المجتمعات ، ولا يخفى ضجره وسآمته . وكان عندهم روحاً محلقاً فى أجواء علوية ، تنشد كمال البشرية !.. وهو أشد إيماناً بالفداء ، منه بالخطيئة الأصلية ، مما لا يكاد يغتفره المجتمع اللاهى ، أو يرتاح إليه ! ..

وكان أرقى النساء ينظرن إلى شللى وزوجه نظرتهن إلى المشبوهين المنبوذين ! ..

هذا ، فى حين أن شللى ساخر من ذلك كله ، يؤثر ، ألف مرة ، هواء الليل العليل ، على الجو الخانق فى قاعات اللعب والتدخين . ولكن مارى كانت تريد أن تُدعى ..

وكانت السيدة المرحة « مسز بيكت Beckett » ، تقيم حفلات راقصة ، لأنها ، كما يقول بيرون ، « مبتلاة بسبع فتيات ، كلهن فى السن التى لابد فيها لهذه الحيوانات من أن ترقص من أجل معاشها ! » ..

وتصر مارى على أن تشهد إحدى هذه الحفلات .. قائلة :

ــ إن كل الناس يذهبون إليها . .

فيشق هذا على شللى ، فيرفع يديه نحو السماء :

ــ كل الناس ! . .

ولكى تحظى برضاء « كل الناس » ، جازفت بالذهاب إلى الكنيسة الإنجليزية ، لسماع الوعظ . . غير أن القس البروتستانتى حمل على الملحدين ، ونظره لايفارقها ، بطريقة ظاهرة . . حتى إنها ، رغم رغبتها فى الامتثال ، أبت عليها كرامتها ، كزوجة ، أن تعود كرّة أخرى .

وكانت هذه الشواغل الاجتماعية ، والحفلات الراقصة ، والمآدب الحافلة ، تلوح لشللى مبتذلة إلى حد لا يتصوره عقله . . هذه الحياة الطائشة ، بدت له ، من قبل ، إجراماً ، وهو حدَث فى سن العشرين . وها هى ذى الآن تبدو له أشد نكراً ، وأدعى إلى الاحتقار . . وكان يهرب من عتب مارى السخيف ، وأسفها المرير ، بالالتجاء إلى دار « وليامز » ، حيث يحس أنه يعثر ثانية على الانسجام الروحى ، والجو الحنون ، الذى كان ألزم ما يكون له . كان إدوارد وليامز رجلا مرحاً ، كريماً ، ليس فيه من الصّغار ذرّة . أما زوجته چين ، فكانت رقتها ، ونعومتها ، وهدوء حركاتها ، وشجيّ صوتها ، مما ترتاح إليه النفس ، كما ترتاح إلى الحديقة الغناء . . ولو كان شللى يومئذ فى سن العشرين ، لما راقته بمقدار ما تروقه الآن ، إذ كان يحلم بعذراء متحمسة باسلة . . بيد أنه لا ينشد الآن فى المرأة الحماسة والجرأة ، وإنما نعمة الغفران والنسيان . .

كانت تغنى . . فيحمل صوتها الجميل شللى ، بعيداً عن ذكرياته الآسية ، وعيشته الزوجية الفاترة . . . حدث له ما حدث من قبل تماماً ، عند ما نالت منه هاريت ، وأسالت جراحه ، فقرأ فى عينى مارى كل العزاء ، وكل الهناء الموعود . . ها هو ذا قد أصابه الضنى والكلال من مارى ، التى أصبحت بدورها تشكو وتنقص . . فتحول إلى چين يتأملها ، ويرى فيها صورة خالدة لأنتيجون ، بنت « أوديب » ،

التي كان ، بلا ريب ، قد عرفها ، وأحبها ، في حياة قبل حياته هذه ، ووجود قبل هذا الوجود ! . .

والفارق الوحيد هو أنه لم يعد يرى ، كما كان يرى من قبل ، ضرورة الهدم لإعادة البناء ، ضرورة هجر ماري للفرار مع چين . . فهي متزوجة برجل فاضل ، يريد أن يبقى صديقاً له . . كذلك لا بد له من مراعاة أعصاب ماري المسكينة التعسة ! . . لقد أحب چين ، ولكنه حب روحي غير مادي ، حب بلا أمل ، ولا رجاء ، يكاد يكون بلا اشتهاء . . .

وكلفت هي أيضاً بهذه المهمة النفسانية ، الخيالية . . وأدتها ببراعة : تمر بيدها على جبين شللي ، تحاول جاهدة أن تشفيه من حزنه ، وتخفف عنه شجنه ، بتيارات جاذبيتها الساحرة . . .

كان هذان الزوجان الشابان ينبوعاً عجيباً للهناء والوداد ، يستطيع أن يلجأ إليه الشاعر المضنى ، المعنَّى ، ويطفىء عنده حرارة الحمى . . .

وكان إدوارد وچين زوجين متحابين سعيدين ، وكان لا بد لهما من شللي ، « آرييل » الوفي ، « روح الهواء » ، الذي يخفق ويحلّق ويدور حولهما . . فلا بأس من أن يحوم روح نقي ، أسير ، حزين ، كالحارس ، حول هناء المحبين . . .

* * *

وكثيراً ما تحدثا إلى شللي عن صديق لهما يدعى « تريلاوني » : رجل عجيب ، جوّاب بحار ، وقرصان . . بلغ من مغامراته أن قطع الأرض طولا وعرضاً ، رطباً ويابساً ، ولما يبلغ التاسعة والعشرين . وكان شديد الرغبة في اللحاق بجماعة بيزا ، يكتب إليهما :

[هل ، إذا جئت ، أستطيع التعرف بشللي ؟ ! . . وقبل كل شيء آخر ، هل أستطيع معرفة بيرون ؟ . . أفي الامكان الاقتراب من *دون جوان* ؟ . .]

فردا عليه : [سترى شللي حتما ، لأنه من أبسط الناس . . أما بيرون ، فهذا أمر يتوقف كله عليك . .]

ووصل تريلاونى إلى بيزا ، ذات مساء ، فى ساعة متأخرة ، وقصد توا لزيارة صديقيه وليامز وزوجته . وكانوا ثلاثتهم فى حوار حار ، عند ما لاحظ تريلاونى ، من الباب الموارب ، عينين تتألقان ، وتحدقان فى عينيه ، خلال الظلام . . فنهضت چين ، وقالت ضاحكة :

— ادخل يا شللى ، هذا صديقنا تريلاونى قد وصل . .

فتسلل شللى داخلا ، كالبنت خجلا ، وضغط بحرارة على يد البحّار . فنظر إليه تريلاونى مندهشاً ، لا يكاد يصدق أن هذا الوجه النسائى الناعم ، هو أيضاً وجه رجل نابغ ثائر ، يقذفه الناس فى انجلترا كأنه غول مخيف ، ويجرده كبير القضاة من حقوقه الأبوية . . . كذلك أعجب شللى ، من جانبه ، بهذا الرأس المتوحش الصلب ، وهذا الشارب الأسود ، وهذا الوجه الجميل الذى يكاد يكون عربياً . . وبلغ من دهشتهما معاً أن لم يجدا ما يقولانه . . وأرادت چين الخروج من هذا الصمت المحرج ، فسألت شللى عن الكتاب الذى بيده ، فقال :

— إنه Magico Prodigioso لكالدرون ، أترجم منه فقرات . .

فطلبت إليه أن يقرأ لهم ما ترجمه . . فارتاح شللى لتخلصه من واجبات التعرف التى تزعجه ، وكأنها تدور فى عالم غير حقيقى ، ففرح بالخلاص . . وطفق يترجم من الكتاب المفتوح ، بأسلوب عذب ، وعبارة جزلة ، بحيث لم يعد يخالج تريلاونى شك فى نبوغه وعبقريته . . وانتهت القراءة . . فرفع تريلاونى رأسه . . ولما لم ير القارىء . . سأل :

— ولكن . . أين هو ؟ . .

فقالت چين :

— من ؟ . . . شللى ؟ ! . . إيه ! . . إنه يجىء ، ويذهب كالروح . . روح الهواء . . لا يدرى أحد أين . . ولا يدرى أحد كيف . . .

وفى اليوم التالى ، أخذ شللى بنفسه تريلاونى لزيارة بيرون . وكان المحيط

مختلفاً كل الاختلاف : مدخل ضخم من المرمر، سلم هائل، خدم وحشم ، كلاب عابسة . . ورأى تريلاونى فى بيرون ما يراه الناس جميعاً : كل مظاهر العبقرية . . غير أن حديث الرجل العظيم قد راعه بتفاهته . . فكأنه كان يمثل دوراً ، دوراً عتيقاً : يروى حكايات ممثلين ، ومدمنين ، وملاكين ، وكيف أنه عبر « هلسبونت » سباحة . . وكان بهذا العبور جد فخور ! . .

وأعدت فى الساعة الثالثة الجياد ، امتطاها ثلاثتهم فى نزهة طويلة . . ووقفوا عند خان صغير . . وجاءهم خادم بغدّارات . . وغرست عصا فى الأرض ، وضعت فى شق بأعلاها قطعة من النقود . . وبدت براعة بيرون وشللى وتريلاونى جميعاً فى إطلاق النار على الهدف . وسرّ تريلاونى إذ رأى أن شللى ، رغم مظهره النسوى ، يمسك بغدّارته ويسددها كالرجال . .

وفى عودتهم تحدثوا فى الأدب ، ورووا الشعر . . وردد تريلاونى بيتين من ديوان « دون جوان » ، فظفر بتقدير بيرون ، الذى دار بحصانه ليسير إلى جانبه . . وقال :

ــ أعترف بأنك كنت تتوقع أن تجد فىّ : « تيمون » الحكيم الأثينى ، أو تيمورلنك الجبار التترى . . وأنك دهشت إذ وجدت رجل مجتمع ، لا يعرف الجد ، ويضحك من كل شىء . .

ثم ردد :

« الدنيا حُزمة من العلف ، والناس حمير تتجاذبها » !..

وعاد تريلاونى مع شللى ، ومارى . . فقال :

ــ ما أشد اختلاف بيرون عما يتوقعه الإنسان . . فليس يحوطه سرّ ولا خفاء . . وهو يتكلم بصراحة تامة . . ويقول ما لا يقال . . ويلوح عليه أنه غيور ، مندفع ، كالمرأة . . وربما كان أشد منها خطراً . .

فقال شللى :

— أرأيتِ ، يا مارى ، أن تريلاونى سرعان ما كشف بيرون ؟!..
ما أشد غباءنا ، نحن ، الذين لم ندرك هذا من زمن طويل !..

فقالت مارى :

— ذلك أن تريلاونى يعيش مع الأحياء ، ونعيش مع الموتى ...

٣٣ — تلاميذ مريدون

الملاّح الذى جاء بيزا ليعجب بالرجلين العظيمين ، سرعان ما ألفى نفسه محل إعجابهما . حقاً ، إن بيرون كان يقول فى غيبته : « آه لو أننا استطعنا أن نعلمه كيف يغسل يديه ، وكيف لا يكذب .. إذن لصنعنا منه چنتلمان !.» . ولكنه كان فى حضرته يعامله باحترام كبير . وكان بيرون وشللى ، مثل كل الفنانين ، يخلقان ويبدعان ، ليعزيا نفسيهما عن أنهما لايعيشان .. أما رجل الأفعال ، فهو يبدو لهذين الرجلين الخياليين ، مخلوقاً عجيباً شاذاً ، يستحق أن يغبطاه ، بله أن يحسداه .

وكان شللى يستشير تريلاونى فى اصطلاحات البحر ، ويرسم وإياه ، على رمال شاطىء الآرنو : المراكب وأشرعتها ، والخرط البحرية . ويقول : « لقد أخطأت استعدادى ، كان ينبغى لى أن أكون ملاحاً » .. فيرد عليه تريلاونى بقوله : « رجل لايدخن ، ولا يحلف ، لايمكن أن يكون ملاحاً ! » ..

وكان بيرون ، القرصان الخيالى ، يود لو تعلم من القرصان الحقيقى : عادات المهنة ، وتقاليدها .. ويبذل الجهد أمامه للظهور بمظهر الجرأة والمجازفة .

ولما أدرك تريلاونى تأثيره فى بيرون ، حاول الانتفاع بذلك ، ليخدم شللى . فانتهز ، يوماً ، فرصة ركوبهما الخيل معاً ، وقال له :

— أتعرف أنك تستطيع خيراً كثيراً لشللى ، بكلمة طيبة عنه ، فى أحد مؤلفاتك القادمة ، كما سبق لك أن فعلت مع كتّاب دونه كفاية ؟

ـــ لكل مهنة أسرارها ، ياتريلاونى . فإذا نحن مدحنا كاتباً محبوباً ، فإنه يرد إلينا ما دفعناه من نفس العملة : يرد رأس المال وأرباحه . أما شللى فهو استثمار سىء ؟ ! .. من ذا الذى يقرأ شللى ؟ . . فضلا عن أنه إذا عدل عن بحوثه المعمّاة ، فيما وراء الطبيعة ، والجدل فى الإلهيات ، فلن يعود بحاجة إلىّ . .

ـــ ولكن لماذا يعامله أصحابك بلا اعتبار ؟ وقلما قابلوه عندك ، وعنوا حتى بالالتفات إليه ، وهو مع ذلك من أصل كريم ، مثلهم ، لا يقل تربية عنهم . . . ففيم نفورهم منه ؟

فابتسم بيرون ، وهز رأسه ، وهمس فى أذن تريلاونى قائلا :

ـــ ليس شللى مسيحياً .

ـــ وأصدقاؤك ؟ وأنت ؟ . . تالله لو لقيت إبليس على مائدتك ، لعاملته كواحد من أصحابك ! . .

فحدجه بيرون بنظرة قاسية ، ليرى هل لكلامه وملامه خبىء . . ثم دفع بحصانه نحوه ، وانحنى قائلا بصوت منخفض ، ممثلا الخوف والاحترام خير تمثيل :

ـــ كان إبليس من الملائكة ، قبل أن يأبى ويستكبر ! . . .

* * *

وكان تريلاونى يستعرض هذه الحال ، مع وليامز وزوجته ، بصراحة .. قال :

ـــ كأنى ببيرون يغار من شللى . فى حين أن « مورى » ، ناشر كتب بيرون ، مضطر إلى الاستغاثة بالبوليس ، لحماية داره من ازدحام الجماهير ، فى كل مرة ينشر فيها نشيداً جديداً من « تشايلد هارولد » . . بينا شللى المسكين لايجد عشرة قراء .. بيرون ، له : الأصل الرفيع ، والمال الطائل ، والجمال ، والمجد ، والحب . .

فقال وليامز :

ـــ أجل . . لكن بيرون هو عبد رقيق لأهوائه ، ولأية امرأة تحزم أمرها

لامتلاكه . . بينما شللي يعرض نفسه لتيار النهر الجارف ، ويأبى على التيار أن يحرفه ! . . وله فكر ، وله مبدأ . أما بيرون ، فيعز عليه أن يكون له من ذلك شيء ، لساعتين متواليتين . . وهو يعرف ذلك من نفسه ، ولا يغفره لها . وهذا ما تشعر به من لهجة الظفر والشماتة التي يتحدث بها عن مصائب شللي . . .

فقالت چين :

ــ إن بيرون طفل مدلل . . ولكن لا هو ولا شللي يعرف الناس . . شللي يحبهم أكثر مما ينبغي . . وبيرون لايحبهم كفاء الحب . .

فقال تريلاوني :

ــ إن ما يروع في شللي : أن ليست له عند نفسه قيمة . . فقد حدث من أيام ، وأنا أعوم في نهر الأرنو أمامه ، أن عبر لي عن أسفه لعدم معرفته العوم . . فقلت له : « جرب . . واستلق على ظهرك ، فإنك تعوم . . » . . فخلع ملابسه ، وقفز إلى الماء بلا أقل تردد . . ولكنه هوى رأساً إلى أعماق النهر ، وظل بلا حراك . . ولولا أنني أسرعت بانتشاله ، لكان من المغرقين . . .

فتنهدت چين . . لأنها لم تكن تجهل أن فكرة الانتحار تخامر شللي . وهو كثيراً مايردد أن كل الذين أحبهم قد ماتوا غرقاً . . .

فلاحظ تريلاوني :

ــ ولكنه مع ذلك لايبدو شقياً . .

ــ لا ، لأنه يعيش في أحلامه . أما في الحياة الحقيقية ، فهل تظن أنه لا يألم من عجزه عن نشر آرائه ، ومؤلفاته ، على الناس ؟ ومن تعاسة حياته الزوجية ؟! إن الموت لا شك يبدو له كاليقظة من كابوس مزعج . . . وعنده أن « الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا . . . »[1]

ــ إنه يؤمن بحياة أخرى . . وكل الذين يصفونه بأنه ملحد لايعرفونه . .

---

(١) حديث شريف .

وقد سألته مرة فى هذا ، ولماذا يدعى أنه ملحد ، مع أن هذا الادعاء يجلب عليه السوء والبغضاء . فأجابنى : « هذه صورة الشيطان ، ألوّح بها ، لأخيف الحمق » .

* * *

وبينا كان هؤلاء التلاميذ المريدون يتحدثون عن الأستاذ الغائب ، كان هو يعمل فى غابة الصنوبر فى ضواحى بيزا . . ينسى ، فى أحلامه ، ساعة العشاء ، بل ذات وجوده .. ينظم الشعر فى تمجيد عروس روحه الجديدة : « جين » . . . الأشجار كتبه . . لا يحب وهو ينظم أن يرى أو أن يسمع أحداً . . وليس فى البيت الوحدة التى ينشُدها ، فالأبواب تفتح وتغلق ، والأجراس ترن ، فتهرب من رنينها أشباح الرؤى ، وعرائس الأحلام . . .

إنه يخلو إلى النهر ، وإلى الطير ، مطمئنة نفسه إلى ضجتها . النهر يجرى كما يجرى الزمان ، وأصوات الطبيعة الحنون تلطف مايتلظى به الفؤاد .. وليس غيرَ الإنسان حيوان يزعج صوته الشاعر ، على حين يستأنس الشاعر بعواء الذئاب . . .

يا ويلتنا مما نحن فيه ، لانكاد ندرك لماذا وجدنا على هذه الأرض : عذاب دائم لأنفسنا ، وهم مقيم لغيرنا ! . .

٣٤ ــ سأذهب إليها ! . .

بعد ما سبق من بيرون ، من وعد شللى بإحضار أللجرا إلى بيزا ، جاء من دونها . كما جاءت كلير من فلورنسا ، ترود المدينة ، لتتنسَّم ريح بنتها ، أو تلمحها . . وأوجست خيفة ، لما علمت ببقائها فى دير مانيا كافللو ، ذاك الذى صوره لها أصحابها الطليان فى صورة بشعة . فقد كان واقعاً بين بطاح رومانا ، فى أشد الأجواء رطوبة ، حيث لا تُعرف للصحة مبادىء ، والغذاء لا يذاق ، والتدفئة مجهولة . فلم تعد كلير ترى ناراً حتى تفكر فى صغيرتها الحبيبة ، المسكينة ، التى تعيش فى الصقيع بلا نار .

هذه المرأة المتكبرة ، قد حملها عذاب الأمومة على فدية تكاد تكون علوية :

فكتبت إلى بيرون بأنها تقبل ألا ترى أللجرا مدى حياتها ، إذا هو رضي بإدخالها مدرسة إنجليزية محترمة . قالت :

[... إنني لا أستطيع ، بعد ، مقاومة الشعور الداخلي المقلق ، الذي لا أعرف له تفسيراً ، والذي يلاحقني ، قائلا لي بأنني لن أعود فأراها . . .]

فلم يجب بيرون . ونصح بعض الأصدقاء كلير بخطف بنتها . ولكن شللي أشار عليها بالصبر . وهو وإن شاركها شعورها بقسوة بيرون ، لكنه ينهى عن كل شدة حمقاء : « لورد بيرون عنيد ، وأنت في قبضته . »

ثم سعى لدى بيرون . . غير أن بيرون لم يكد يسمع اسم كلير ، حتى هز كتفيه ضيقاً بذكرها : « أفٍ للنساء ، لا يستطعن العيش بغير هرج ولا مرج ! .. »

فأخبره شللي بما سمعته كلير عن الدير وسوء حاله . . فقال : « وما علي وأنا لم أذهب إليه قط ! . . . »

ثم لما وصف له قلق كلير ومخاوفها ، ارتسمت على وجهه ابتسامة شيطانية من الرضى والارتياح . . .

قال شللي ، وقد خرج من عنده ، وقصد دار « اللادي مونت كاشل » :

ـــ لقد تمالكت نفسي بجهد حتى لا أضربه . . ولكن فيم السخط ؟ وهو رجل لا يستطيع إلا أن يكون ما هو عليه ، مثل هذا الباب الذي لا يسعه إلا أن يكون باباً ؟. . .

فقال سيد إنجليزي عجوز ، كان حاضراً :

ـــ أنت مخطيء باستسلامك للقضاء والقدر . . فإن هذا الباب لو ضُرب بالسوط ، فسوف يظل باباً .. أما لورد بيرون ، فإذا أُلهب بالسوط ظهره ، فسوف يعود إنساناً ، لأنه الآن غير إنسان . . ولعمري إنه لضعف أصحابه ، الذي يجعل منه ما هو عليه : طاغية ، صلِفاً ، سفيهاً . .

ولما علمت كلير بفشل هذا المسعى ، بدا عليها من اليأس والقنوط ما حمل

شللى ، بل حمل مارى أيضاً ، على الحكم باستحالة التخلى عنها فى فلورنسا . وكانا قد اعتزما قضاء شهور الصيف على شاطىء البحر ، مع وليامز وزوجه . . فدعواها للذهاب معهما .

كان شللى يمنى النفس بمتعة كبرى فى هذا التصييف . وقد كلَّف وليامز صاحبهما تريلاونى ببناء سفينة فى چنوا ، بيد صديقه الكابتن روبرتس . وتسلّفا اسمألها : « دون جوان » ، تكريماً لبيرون ، الذى أوصى أيضاً بصنع يخت كبير ، اختار له اسم : « بوليفار » . . وكان شللى ووليامز يمنيان النفس بسيادة البحر الأبيض المتوسط ! . . وكانت الزوجتان دونهما حماسة . وبينا زوجاهما يرسمان على الرمل خطط الملاحة ، كانتا تتنزهان معاً ، وتتفلسفان ، وتقطفان أزاهير البنفسج ، على طول الطريق . . قالت مارى : « إننى أمقت هذا المركب ! » . . فأجابت چين : « وكذلك أنا !. . ولكن رأينا لن يجدى نفعا ، بل ينغص عليهما . . . »

وكان لا بد لتحقيق هذا المشروع من استئجار بيتين على شاطىء البحر ، بحث شللى ووليامز عنهما عبثاً . وكان بيرون ، الذى سيلحق بهما ، يريد قصراً منيفاً ، ثم اضطر إلى العدول عن مغالاته ، إذ لم تكن توجد حتى بيوت صيادين . وقرر وليامز وزوجه أن يقوما بجولة تفتيش نهائية ، وأخذا معهما كلير ليسلياها عن همومها . وما كادوا يغادرون بيزا ببضع ساعات ، حتى كتب لورد بيرون إلى شللى بأنه تلقى أنباء سيئة ، بأن وباء التيفوس قد تفشى فى رومانا ، ولم يكن لدى راهبات الدير وسائل للوقاية ، فأصيبت « أللجرا » بهذه الحمى ، على ما كان بها من سقم وضعف ، فماتت . . . وأضاف :

[. . . لا أرى فى مسلكى وجهاً للملامة . فانى واثق ، على أى حال ، من نياتى وعواطفى نحوها . ولكن قد تمر بنا لحظة نقول فيها : « آه ، لو فعلنا هذا أو ذاك ، لما وقع كذا وكذا » . . . ولكن كل يوم يجىء ، وكل ساعة تمر ، تدلنا على أنه لا بد مما ليس منه بد . وأرى أن الزمن سيفعل فعله ، كما أدى الموت ما عليه . .]

فذهب شللى ومارى لزيارته . وكان أشد شحوباً من ذى قبل ، وإن كان أيضاً أشد هدوءاً من عادته .

وبعد يومين ، عاد وليامز وزوجته وكلير من رحلتهم . وخشى شللى من كلير أن ترتكب عملا عنيفاً ، إذا علمت بمصيبتها وهى على مقربة من بيرون ، فقرر أن يكتم عنها الخبر . إلى ما بعد السفر . ولم يجد وليامز على الشاطئ كله إلا مسكناً واحداً خالياً ، يكاد يكون خرباً ، هو بيت كبير ، غير مفروش ، تناطحه الأمواج ، يطلقون عليه اسم : « كازامانى » . وكان شللى يريد إبعاد كلير ، مهما يكلفه ذلك ، فقرر استئجار البيت ، على أن تسكنه الأسرتان معاً . . فلا بأس بما يلقون من ضيق . . ولا بأس من نقل الأثاث من بيزا . . فى الحالات التى يستخدم فيها إرادته بجُمعها ، يصبح سيلا جارفاً لا يقف شىء فى سبيله : « سأمضى حتى يقف شىء ما فى طريقى . . ولكن ما من شىء يستطيع أن يقف » .

* * *

كان ذلك البيت الساحلى « كازامانى » ، ديراً قديماً من أديرة اليسوعيين ، أبيض ناصعاً ، يكاد يكون قائماً وسط الأمواج ، متكئاً على غابة ، مشرفاً على خليج « سپزيا » البديع . . وكان الطابق الأرضى لا يُسكن ، إذ تغمره مياه البحر عند ارتفاعها ، فيستخدم لمجرد وضع المجاذيف والحلب وأدوات الصيد . وكان الدور الوحيد فوق هذا مكوناً من قاعة كبيرة للطعام ، يؤدى أحد جوانبها إلى غرفة وليامز وزوجته ، والجانب الآخر إلى غرفتين صغيرتين ، إحداهما لشللى ، والأخرى لمارى وكلير . وكان ذلك كله غير كاف . وسادهم الهم والغم فى الليلة الأولى . وكانت الأمواج تموج تحتهم ، تناطح الصخور ، بصوت يقبض الصدور . . ولم يكونوا جميعاً ليفكروا إلا فى مصاب كلير . . وكانت هى ، الخالية الذهن ، تعزو كآبتهم إلى ضيقهم بوجودها ، فى منزل يضيق بهم وحدهم . وصارحتهم بذلك ، وعرضت عليهم عودتها إلى فلورنسا : فاحتجوا

وعارضوا جميعاً . وهمست چين فى أذن مارى بشىء ، ثم انسحبتا معاً إلى غرفة وليامز . ولحق بهما شللى . وبعد هنيهة اتجهت كلير نحوهم ، فرأتهم فى ركن يتحدثون باهتمام .. وقطعوا حديثهم حين لمحوها . . وعنـدئذ ، دون النطق بكلمة واحدة أمامها ، قالت :

ـــ أللجرا ماتت ؟ . . .

* * *

وفى اليوم التالى ، كتبت خطاباً فظيعاً إلى بيرون ، أعاده هذا إلى شللى شاكياً من خشونة كلير ، راجياً منه إخبارها بأنه على استعداد للسماح لها بعمل ما تراه لدفن ابنتهما . فأجابت بتهكم كئيب ، بأنها ، من الآن فصاعداً ، ستترك الأمر كله له ... وأن كل ما تسأله منها ، هو : خصلة شَعر وصورة . فأظهر بيرون طاعة مدهشة ، بأن بعث إليها ، على جناح السرعة ، بصورة صغيرة جميلة جداً ، وخصلة شعر شقراء . . فاستأذنت أصحابها ، وعادت إلى فلورنسا ، لتعيش بين الغرباء عنها ، لا يعرفون شيئاً عن حزنهـا ، فلا يجددونه لها . . .

وقرر اللورد الأمثل : أن تدفن ابنته فى انجلترا ، فى كنيسة هارو ، حيث كانت مدرسته ، وأن توضع على لوح قبرها المرمرى ، هذه الكلمات :

إلى ذكرى أللجرا

كريمة جورج جوردون : لورد بيرون

ماتت فى « مانيا ـ كافاللو » ، فى ٢٠ أبريل ١٨٢٢

وعمرها : خمس سنوات وستة أشهر :

سأذهب اليها ...

ولكنها لن تعود الىّ ...

غير أن عميد كلية هارو ، ومحافظ المدينة ، وأمناء الكنيسة ، رأوا مما لا يليق دفن طفلة غير شرعية فى كنيستهم ، ولا سيما أن لوح القبر يكشف عن اسم أبيها !

وذفنت أللجرا خارج الكنيسة ، دون أن يوضع على قبرها ما يدل عليها ! . .

وجاء اللورد بيرون ، بعد وقت طويل من موت أللجرا ، يزورها . . هو الذى لم يضع قدمه قط فى دير مانيا كاڤاللو ، عند ما كانت فيه ابنته ، على قيد الحياة ، جاء الآن يستوحى شعراً ، فى حياته ، وفى موتها ، من تأملاته على قبرها ! . . .

٣٥ – الملاذ . . .

فتن شللى ببيت البحر « لازامانى » . . أحب فيه : الوحدة الموحشة ، والغابة التى من خلفه ، والجون الصخرى الخشبى ، وقرى الصيادين ، وأكواخهم الحقيرة . .

أما مارى ، فتخبطت : حيرة ، وشقوة ، وتأففاً . . فهى حامل مرة أخرى ، منقبضة ، مشمئزة ، قلقة ، تؤثر لو عاشت فى مدينة ، على مقربة من طبيب . كانت كارهة كل ما حولها من خشونة سكان الشاطىء ، ولهجتهم غير المفهومة ، بقدر ما كانت راضية عن توسكانيا . . وضاقت ذرعاً بوجود چين وليامز . . كانت تعدها فى بيزا امرأة شائقة ، لكن اشتراك المرأتين فى بيت واحد كان تجربة مريرة ، أثار بينهما مشاجرات حمقاء ، بسبب الخدم والآنية والطهى ! . . وكان شللى يتحدث ، ويسرف فى الحديث بحماسة ، عن كمال چين ، ويسرف فى نظم « السريناد » من آيات الشعر ، عنها . . و . . لها . . .

وكان لا يرد على كل شكاوى امرأته ودمدمتها ، إلا بلطفه المعهود . كان يدللها ، ويداعبها ، برقة وحنو ، ويروّح عنها ، وإن كان يعلم أنه لن يغير ما بنفسها ، وأن حالة الحمل تفسر من ألوان تذمرها وتمرمرها الكثير . فتحملها بعطف صبور . وكان خاصة ما تعتبه عليه أن قواه العظيمة التى آتاه الله لا ينتفع بها لنفسه ، بل يسخّرها لمنفعة سواه . . كأن شخصه شخص أجنبى عنه ! . . ولا يشمل برّه وتفانيه الأقربين من صحبه ، بل الغرباء المجهولين . .

وكان يذهب كل شهر إلى ليڤورن ، يسحب مرتباته . ويعود بكيس مملوء

نقوداً ، يفرغه على البلاط . ويقسم النقود بمجراف الفحم : قسمين متساويين ، النصف لماري ، لأجرة البيت وتدبيره . ثم يقسم النصف الثاني أيضاً قسمين متساويين ، أحدهما تأخذه ماري كذلك ، لمصروفاتها الشخصية ، والثاني لشللي .. ولكن ماري تعلم المقصود من أنه «لشللي» .. فقد كان يذهب إلى أبيها جودوين (رغم كل الأيمان !) . . ولأختها كلير ، ولأسرة هنت ! . . .

وحدث يوماً أن كان في انتظار شللي على الغداء : الكابتن روبرتس وزوجه ، وبعض وجهاء الإنجليز الراغبين في معرفة الشاعر . . وجاءت ساعة الطعام ، ولم يحضر شللي . . فجلسوا إلى المائدة من دونه . ثم لم تلبث إحدى السيدات أن صرخت : « أوه ! . . ربّاه ! . . »

فالتفتت ماري ، فرأت شللي عارياً تماماً ، وهو يجتاز قاعة الطعام ، محاولا التستر ، وراء الخادمة . . فصاحت : « پرسي ! . . كيف تجرؤ ؟ ! . . »

وكان ذلك منها قصر نظر ، فإن شللي ، وقد أحس بأنه اتهم ظلماً ، تنحى عن الخادم التي تستره ، وجاء رأساً ، كما ولدته أمه ، نحو المائدة ، ليبرئ نفسه ! . . فحجبت السيدات وجوههن بأيديهن . . ومع ذلك كان فاتناً هكذا . . وكان شعره ممتلئاً بعشب الماء ، وجسده النحيل مبللا ، معطراً بملح البحر . . لكن بنت جودوين كانت ترتاع من مثل هذا . . .

* * *

كان شللي ووليامز ينتظران مركبهما بفروغ صبر الأطفال . . وكتب شللي ، بعد موت أللجرا ، إلى الكابتن روبرتس ليمحو عن المركب اسم « دون جوان » ويثبت بدله اسم : « آريل » . صار كل ما يذكره ببيرون عنده مرذولا . لذلك ما كان أشد دهشته وغضبه ، عند ما وصل المركب الصغير ، حاملا على شراعه ، بحروف هائلة : « دون جوان » ! . . وكان ذلك من عمل بيرون ، إذ عرف بالتغيير المقصود ، وتضايق منه ، وأمر الكابتن روبرتس بأن يضع ، رغم

كل شيء ، طابعه الشيطانيّ على المركب الأفلاطونى . . وراح شللى ووليامز يستخدمان الماء الدافىء والصابون والفرشاة فى محو العار عن شراع المركب المسكين ، فلم يفلحا . وحاولا إزالة الاسم بالتربنتين ، فلم ينفع . ولما استشارا فى ذلك العارفين ، نصحوهما بقص الاسم الممقوت ، ووضع قماش جديد يحاك عليه اسم : « آرييل » . . فلم يسترح شللى حتى فعل .

وقال القبطان الذى كلفوه من چنوا بإحضار المركب : إنه جيد ، سريع ، ولكنه متقلب ، يصعب توجيهه فى الأحوال الجوية السيئة . وكان وليامز وشللى ، هما اللذين فرضا ، بحماستهما وعدم تخصصهما ، شكل ذلك الفُلْك الملكى لرشاقته . وكان لابد له من طنين من الرصاص حتى يتزن . . فهو هكذا ، يظل قلقاً ، لا أمان له ، يعبث به النسيم ، ويلعب الهواء . .

وأراد صاحبا اليخت « آرييل » أن يسيراه وحدهما مع غلام ملاح . وكان وليامز ، وقد قضى ثلاث سنوات فى البحرية ، يدعى المعرفة . وكان شللى جاهلا بالبحر كالمرأة ، وإن كان ممتلئاً رغبة . فعقلت قدماه فى الحبال ، واستغرق فى قراءة « سوفوكليس » وهو ممسك بالدفة ، وكاد خلال أول رحلة يسقط مرات عديدة من ظهر المركب ! ومع ذلك لم يكن أسعد منه ولا أهنأ يومئذ . ولما رآه تريلاونى يقود السفينة ، أخذ بذراع وليامز ، ونصحه بأن يبحث عن ملاح ماهر ، خبير بهذا الخليج . فقد كان يزعم نفسه قبطاناً ، ويعد شللى ساعده الأيمن . . قال تريلاونى :

ــ شللى ؟ ! . . إنك لن تتخذ منه بحاراً نافعاً ، حتى تقص شَعْره المجنون ، الذى يغم على عينيه ، وتلقى بكتابه « شعراء الاغريق » فى الماء ، وتغمس ذراعيه حتى عنقه فى برميل من القطران ! . .

وكان يصعب رسو « آرييل » على رصيف « لارامالى » لشدة التيار .

فصنعوا زورقاً خفيفاً ليصلوا به .. فأصبح لعبة شللى الأثيرة عنده: يهيم بإطلاق نفسه ، تؤرجحه الأمواج ، فى هذه المحارة الخفيفة ..

وفى ذات مساء ، رأى ، على الشاطىء ، چين وطفليها ، فدعاها لركوب « فلوكته » ، قائلا : إن فيها متسعاً للجميع ! .. وساخت « الفلوكة » بهم ، حتى لم يعد بين حافتها وسطح الماء إلا قيد قبضة يد .. وكانت أقل هبة ريح ، أو أقل حركة من الولدين ، كفيلة بأن تقلبها ..

وحسبت چين أن شللى لا يريد إلا أن يمر بها إزاء البيت . ولكنه كان فخوراً بأن ترى امرأة حسناء مثلها : كيف يبحر ، وكيف يجذف . فأمسك بمجذافيه ، واندفع بزورقه . ولم يلبثوا أن خرجوا إلى مياه الخليج الزرقاء .. ثم توقف عن التجذيف ، واسترسل فى تأملاته العميقة ، وأحلامه البعيدة ..

وهنا لا تسل عما أصاب چين من الرعب والفزع ! .. فحاولت أن توجه إليه بلطف بضعة أسئلة . فلم يرد عليها . ثم رفع رأسه ، فجأة ، وكأنه أضاء وأشرق بفكرة مباغتة ، وقال بفرح :

ــ هيا بنا معاً نحل اللغز العظيم ! ..

فتراءى لها شبح الموت .. وتمالكت .. فلو أنها صرخت لأضاعت نفسها وولديها .. فإن أقل حركة من شللى كانت كافية لأن تذهب بهم جميعاً إلى القاع .. فتظاهرت بالبهجة والاستخفاف ، وأجابت :

ــ لا .. شكراً لك .. ليس الآن .. فأنا أريد أن أتعشى أولا وولداى .. ثم ها هو ذا إدوارد يعود مع تريلاونى .. فلا يلبثان أن يدهشا لخروجنا فى هذه الساعة ، ولا سيما أن زوجى يقول إن هذه « الفلوكة » غير مأمونة ..

فصاح شللى متبرما :

ــ غير مأمونة ؟ ! .. إنى أذهب بها إلى « ليڤورن » .. إنى أذهب بها إلى آخر البحر ! ...

فأحست چين أن ملَك الموت ، الذى ينتظر الشاعر دائماً على الشاطىء ، قد ضم جناحيه بعد نشرهما . . . فقالت بلا اكتراث :

ـــ إنك لم تكتب بعد كلمات اللحن الهندى . .

ـــ بلى . . ولكن أرجو أن تعزفيه لى مرة أخرى . .

وكان ، وهو يتكلم ، يقود الزورق نحو البيت . . وما كادت چين ترى قاع الماء ، حتى قفزت إليه مع طفلها ، فى سرعة انقلبت بسببها « الفلوكة » فوق الشاعر ، على الرمال ، فصارت له ظهراً ، وصار بها كالسلحفاة ! . .

وهرع زوجها لإخراج شللى . . صارخاً بها :

ـــ چين ! . . هل جننت ؟ . . أما تستطيعين الصبر لحظة ؟ . .

ـــ كلا ! . . فقد نجوت بجلدى من هذا التابوت المروع ! . . ولن أضع بعد فيه قدمىّ ! . . « نحلّ اللغز العظيم » ! . . إنه هو ، هذا الشاعر ، أعظم لغز ! فمن ذا الذى يتنبأ بما ينوى فعله ؟ . . . إنه ينشدُ ما نهرب منه . . ولست أريد بعد البقاء هنا . . فإنى سأظل لا تؤمن لى خيفة ، ولا يسكن لى روع ! . .

ولكن وجه الشاعر الطفل كان يتجلى كعادته بالبراءة .

وكان يحب الإقلاع مع صحبه هؤلاء فى « آريل » فى ضوء القمر : عند قدميه مارى جالسة ، مسندة رأسها إلى ركبتيه ، تتذكر : كيف أنها ، هكذا ، منذ عشر سنوات ، قد عبرت وإياه المانش الهائج فى جو عاصف . . . ما أكثر ما مرّ من حوادث فى هذه السنوات العشر ! . . وما أكثر ما تمخضت الحياة الخائنة بخدع ، وكشفت عن أشياء ، لم يكن كلاهما عندئذ يتصورها ! . . وفى آخر المركب : چين ، جالسة تغنى لحناً هندياً ، وتوقعه على القيثارة . . بينا هو يتأمل : سماء يونيه الصافية ، والسحب البيضاء تتقنّع دلالا بضوء القمر الساطع . . لم يكن يفكر . . كان يحس روحه تتحلل وتذوب تحت سنا النور النقى ، فى عطور الليل الدافئة . . إن شخصه ، الذى قُدَّ من لحم ودم ، قد تلاشى

فى انجذاب روحى لذيذ، فلم يعد إلا أثيراً، يموج فى الفضاء بخفة.. ونسجت له عطور السماء، وأضواء القمر، وغناء جِنّ، شباكاً خفية، يتأرجح فيها، كالطفل فى مهده، مصغياً إلى أنغام موسيقى باطنية ربانية.. غادر الأرض إلى عالم من الأشكال، أعظم صفاء، وأعظم نقاء.. ولحق بتلك الأشباح الجميلة: تلك القصور البلورية، وتلك الأبخرة العطرية السحرية، التى كانت له، دهراً طويلا، الحقيقة الواحدة.. هو اليوم يعرف أن هناك عالماً آخر، خشناً، صلباً، قاسياً.. لكنه يدعه ليحلّق فى: سماواته العُلى، سماواته النورانية، التى هيهات أن تتسامى إليها، أو تبلغها، تلك الأشياء الوضيعة: غيرة النساء، وشواغل المال، وخلافات السياسة.. وهيهات أن تنال من هنائه الوحشى، الشائق، الموقوف عليه...

لشد ما كان يود لو غُشِىَ عليه من فرط هناء الانجذاب، الذى يخلب الألباب.. قائلا مع فاوست:

— .... «الىّ!.. فما أجملك!..»

ثم يتوارى، ويلوذ بظل الرفيق الأعلى...

٣٦ — آرييل يُعتق..

كان شللى يرغب، من وقت طويل، فى دعوة صديقه الناقد هنت وأهله إلى إيطاليا، لأن الدائنين وأعداءه السياسيين قد جعلوا عيشهم فى انجلترا مرّاً. وكان مستعداً لدفع نفقات سفرهم. بيد أن موارده لم تكن لتمكّنه من إعالة زوجين وسبعة أولاد.. ومن كثرة ما حدّث بيرون فى شأنه، حصل منه على وعد بأن يؤسس مع هنت جريدة حرة، تطبع فى إيطاليا، وتخص بحق نشر جميع أعمال بيرون، قبل أى جريدة سواها.. وهو امتياز كافٍ لنجاح الجريدة

وذيوعها ، ويهيء لهنت ثروة لا يحلم بها . وكان ذلك عطاء كريماً جداً من جانب بيرون ، الذى لم يكن ليكسب شيئاً من وراء هذه الشركة مع هنت ، فى حين يخسر الكثير . بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك فى السخاء ، فرضى بأن ينزل لهنت عن الدور الأرضى فى قصره بمدينة بيزا . . وتعهد شللى ، بدوره ، بأن يؤثثه لهم . . . وهكذا تم ترتيب كل شىء ، وطفقت قافلة هنت تسير . . .

وبعد متاعب ومصاعب ، وصلوا إلى ليفورن ، فى أواخر يونيه ١٨٢٢ . وكان تريلاونى ينتظرهم على اليخت « بوليفار » . ووصل شللى ووليامز على « آرييل » مندفعاً إلى الميناء ببراعة فائقة . وبعد مظاهرات الفرح باللقاء ، اتجهت القافلة ، بقيادة شللى ، نحو بيزا . . بينا ظل وليامز فى ليفورن ، فى انتظار صديقه ، ليعودا فى المركب معاً .

ولسوء الطالع ، كان أول احتكاك بين هنت وبيرون بعيداً عن التوافق والقبول . ومع أن بيرون كان يحكم على أفكار هنت السياسية بالتطرف ، إلا أنه شعر نحوه ببعض الرعاية والميل ، باعتباره إياه كاتباً شريفاً ، وأباً كريماً ، وزوجاً فاضلا ، ورجلا طيباً . لكنه لم يستطع قط أن يهضم امرأته ماريان ، أو يحتملها ، ورأى أنها لا تعدل قحتها إلا غباوتها . فقد كانت ماريان هنت من دعاة المساواة ، الذين لا يستطيعون أن ينسوا عدم المساواة لحظة واحدة . ولكى تبرهن على عدم اعتدادها بما لبيرون من ثروة طائلة ، ومكانة رفيعة ، عاملته بوقاحة ، ما كان لأصغر الناس أن يتسامح فيها . واتخذت مع الرقيقة الظريفة ، الكونتس جويتشيولى ، هيئة ربة البيت البريطانية المتغطرسة . فظل بيرون مجاملا ، ولكن فى برود .

وبعد أربع وعشرين ساعة ، لم يعد يستطيع على هذا صبراً . سبعة من الأطفال يجرون فى البيت ، ويتلفون كل شىء ، وهم أقذر وأشق ما يكون عليه أطفال . فنظر بيرون باشمئزاز إلى تلك الديدان البشرية ، ووضع كلبه « البولدج »

الهائل جارساً على السلّم ، قائلا له : « حذار أن تدع صغيراً من صغار لندن هؤلاء يجيء ناحيتنا » . . وسرعان ما سئم الجريدة ، وعافتها نفسه ! . .

وكان على شللى أن يسافر ليومه . . إلا أنه لم يرد التخلى عن هنت قبلما يصلح شؤونه . فخفف عن بيرون ، ووعظ ماريان ، وشجّع صديقه المسكين هنت . وأخر سفره ، يوماً بعد يوم ، حتى تمت تسوية كل شيء . وكان تشبثه وعناده يظفران دائماً بفتور بيرون المتعالى . فحصل على وعد بنشر قصيدة The Vision of Judgment ، التى كان بيرون قد فرغ من نظمها ، فى العدد الأول من الجريدة .

وكان وليامز ، الذى ينتظر فى ليفورن ، قد نفد صبره ، وضاق صدره . وشكا ، وهو الذى لم يسبق له شكاية ، فراق زوجته طوال هذه الأيام كلها . فبعث إليه شللى بالرسالة تلو الرسالة ، ليفسر له تأخيره .

وكانت حرارة يوليه خانقة . وكفّ الفلاحون عن العمل فى الحقول من منتصف النهار . وشح الماء . وراحت مواكب القسس ، فى كل مكان ، تدور حاملة صور القديسين ، مبتهلة إلى السماء ، لتجود بالغيث . .

وفى صباح اليوم الثامن من ذلك الشهر ، وصل شللى مع تريلاونى ، وقصد البنك ، واشترى مؤونة لبيتهم . « لارامانى » . . ثم اتجه الأصدقاء الثلاثة صوب الميناء . وكان تريلاونى يريد أن يصحب المركب « آرييل » باليخت « بوليفار » . وأخذت السماء تربدّ شيئاً فشيئاً ، وتتلبد بالسحب ، وهبت ريح خفيفة . . وتنبأ الكابتن روبرتس بقرب هبوب العاصفة . فأكّد وليامز ، وكان يتعجل الرحيل ، أنهم سيصلون البيت فى سبع ساعات .

وعند الظهر ، كان شللى ووليامز وبحارهما الفتى على ظهر « آرييل » ، وتريلاونى على ظهر « بوليفار » يعد عدته أيضاً للرحيل . . ودنا منهم مركب حرس الميناء ، للتحقق من أوراقهم ، فسُمح لشللى ومركبه بالإبحار . أما

تريلاونى ، الذى لم تكن لديه شهادة صحية ، فقد حاول التملص . ، فهدده الضابط بالحجر الصحى خمسة عشر يوماً . فعرض على صاحبيه أن يذهب ليتمم أوراقه ويعود سريعاً ؛ ولكن وليامز كان لا يستقر على حال من القلق . ولم يكن لديهما وقت يضيعانه ، فقد كانت الساعة الثانية ، وكان الهواء قليلا ، فإذا جهدوا وصلوا عند دخول الليل .

وخرج « آرييل » من الميناء ، بين الثانية والثالثة ، فى نفس الوقت الذى خرجت فيه « فلوكتان » إيطاليتان . . وألقى تريلاونى « هلبه » غاضباً ، وطوى شراعه ، وظل يتابع ، بمنظار معظم ، مركب صاحبيه . فقال له ملاحه الجنوى :

ـــ كان عليهم أن يقلعوا هذا الصباح ، فى الساعة الثالثة أو الرابعة . . . بدلا من الثالثة مساء . . وهم يلازمون الشاطىء كثيراً ، فسوف يتمكن التيار منهم هناك.

ـــ إن هواء الأرض لا يلبث أن يساعدهم .

ـــ ربما زاد الهواء عما يعوزهم منه . . وهذه القلاع العدة ، على سفينة بلا سطح « دك » ، ولا ملاح ، هى الجنون يدور بها ! . . . انظر إلى هذه الخطوط السوداء هناك ، والخرق القذرة العابرة فوقها ، وذاك الدخان على الماء . . . إن الشيطان يدبّر أمراً . . .

كذلك ، من وراء رصيف الميناء ، كان الكابتن روبرتس يرقب « آرييل » . فلما غاب عن بصره ، صعد إلى الفنار ، فرأى العاصفة توشك أن تهب وتتجه نحو المركب الصغير . . ثم لم تلبث السحب المدلهمة أن حجبته تماماً عن الأنظار . .

وكان لجو الميناء وَقْدَة ، وقد انقلب خانقاً ، والهواء شواظاً من نار . وساد صمت ثقيل ، يقبض الصدور ، وينقض الظهور . ونزل تريلاونى إلى كابينه ، ونام إعياء ، رغماً منه . وبعد لحظات ، استيقظ على دوى السلاسل . فقد كان البحارة يلقون هلباً آخر . وعمت الميناء كله حركة الهرج والمرج التى تسبق هبوب العاصفة . وطووا القلاع ، وخفضوا الساريات ، وأخرجوا الحبال

الضخمة ، ولم يبق هلب إلا تشبث بالشاطىء ، يعض عليه بأنيابه الفولاذية . وساد الظلام التام . صار البحر كتلة واحدة ، صماء قائمة كالرصاص . الرياح تنفخ فيه ، والمطر المدرار يهطل من فوقه ، ولا ينفذ إليه . ولاذت زوارق الصيد بالشاطىء ، مسرعة ، متزاحمة ، لا تلوى على شيء . وكان يُسمع : صفير ، ونداءات ، وأوامر ، وصرخات . . ثم تغلّب على ضجة البشر ، فجأة ، هزيم الرعد ، مزق الحجب ، وزعزع الكائنات . .

وعند ما صحا الجو ، بعد بضع ساعات ، وراح تريلاونى وروبرتس يمسحان الخليج طويلا بالمنظار المعظم ، فى قلق ، أملا فى اكتشاف مركب شللى ، لم يجدا لأى مركب أثراً . .

* * *

وفى الجانب الآخر من الجون ، كانت الزوجتان تنتظران الأخبار . مارى قلقة مكتئبة . فهذا الصيف الشديد الحرارة يخيفها . وفى جو كهذا ، تستعر لوافحه ، قد مات ولدها وليامز . . فجعلت تنظر جزعاً إلى الطفل الذى على ذراعها . كان يبدو بخير . . لكنها ، وهى تشرف ببصرها على أجمل بقاع الدنيا ، لا تجد فى صدرها إلا ضيقاً وحزازة . فامتلأت عيناها ، بلا سبب ، دموعاً . . فقالت لنفسها : « وبعد ، فعند ما يعود ، حبيبى شللى ، سأكون سعيدة . . وأجد عنده السلوى . . وإذا مرض ولدى . . فسيشفيه ، ويشد أزرى » . .

وفى يوم الاثنين تلقت چين رسالة من زوجها ، مؤرخة فى يوم السبت . قال فيها إن شللى ما زال معوقاً فى بيزا :

[. . . فاذا لم يجىء إلى هنا يوم الاثنين ، فسأحضر وحدى فى « فلوكة » . فانتظرينى يوم الاثنين على أكثر تقدير] .

وكان ذلك الاثنين هو اليوم المقدّر ، يوم العاصفة . . .

ولما رأت مارى وچين هياج البحر ، لم يخطر لهما ، لحظة ، إمكان إبحار

« آريل » ، المركب الضئيل . وفى يوم الثلاثاء ، ظل المطر يتساقط ، طول النهار ، خفيفاً ، باستمرار ، على بحر هادىء . وفى يوم الأربعاء ، كان الهواء مؤاتياً من ليفورن . ووصلت « فلائك » عدة . قال صاحب إحداها : إن « آريل » قد سافر يوم الاثنين ، ولكن لم تصدقه مارى ولا چين . وكان الهواء ، فى يوم الخميس أيضاً طيباً . . فلم تبرح المرأتان شرفة البيت . . تزعمان فى كل دقيقة رؤية شراع المركب الصغير العالى مقبلا . . وفى منتصف الليل ، كانتا ما زالتا فى الشرفة . تتساءلان : أى مرض عاق زوجيهما فى ليفورن . وتزدادان قلقاً كلما تقدم الليل ، حتى إن چين قررت استئجار مركب فى الصباح . . بيد أن البحر هاج فى الصباح التالى ، وأبى البحارة المخاطرة بالسفر . ووصل البريد عند الظهر ، وفيه خطاب من هنت إلى شللى . . ففتحته مارى وهى ترتجف . . وكان فيه :

[. . . اكتب إلينا كيف وصلت ، لأن الطقس كان رديئاً بعد إبحارك يوم الاثنين ، ونحن فى قلق عليك . .]

فسقط الخطاب من يد مارى المرتعشة .. فالتقطته چين ، وقرأته .. ثم قالت :

— إذن فقد انتهى كل شىء ! . .

— كلا ، يا عزيزتى چين ، إن كل شىء لم ينته . . ولكن هذا الانتظار مريع . فتعالى معى . . لنذهب إلى ليفورن ، ونعرف مصيرنا . .

وكان طريقهما إلى ليفورن يمر ببيزا . . فوقفتا لحظة بدار اللورد بيرون ، تتنسمان خبراً ، وطرقتا الباب .. فصاحت خادم إيطالية : « من ؟ Chi è » ، لأن الساعة كانت متأخرة . ثم فتحت لهما . وكانت خادمة الكونتس جويتشيولى . . وكان بيرون نائماً . . ولكن الكونتس نزلت للقائهما وكلها ابتسام . . فلما رأت هيئة مارى المروعة ، ووجهها الشاحب كالمرمر ، وقفت مندهشة . . فسألتها مارى :

— أين هو ؟ . . أتعرفين أين شللى ؟ . .

ونزل بيرون ، وراء خليلته ، فقال إنه لا يعرف عن شللى إلا أنه غادر بيزا يوم الأحد ، وأنه أبحر يوم الاثنين ، والجو مكفهر . .

وبرغم انتصاف الليل ، أبتا البقاء ، ورحلتا إلى ليڤورن . فوصلتا فى الساعة الثانية صباحاً . فأخذهما الحوذى إلى خان لم تجدا فيه لا تريلاونى ولا الكابتن روبرتس . . فاستلقتا بثيابهما على الفراش ، فى انتظار النهار . . وفى الساعة السادسة من الصباح ، هرعتا إلى كل فنادق المدينة واحداً بعد واحد ، حتى وجدتا روبرتس نازلا إليهما ، مربداً وجهه من الغم . . فأخبرهما بكل ما جرى خلال هذا الأسبوع الشنيع ! . .

ومع ذلك كان لا يزال ثمة رجاء . . فقد تكون العاصفة دفعت بـ « آريل » إلى جزيرة كورسيكا ، أو جزيرة إلبا . فبعثتا برسول يدور فى الجون من بلد إلى بلد ، حتى نيس ، يسأل عن المركب من رآه . . وفى التاسعة صباحاً غادرتا ليڤورن إلى بيتهما « لازامانى » ، وصحبهما تريلاونى . ولما مروا بڤيارچيو ، قيل لهم : إنه وجد على الشاطىء قارب صغير وبرميل . . فذهب تريلاونى ، وعرف فيه القارب الملحق بـ « آريل » . . . ولكن ، لعل شللى ووليامز قد وجدا أن هذا القارب يعطل سيرهما فى الهبوب ، فألقيا به . .

ولما وصلت چين ومارى إلى « لازامانى » ، كانت القرية فى عيد . . فظل ضجيج الرقص والغناء ، سواد الليل ، لا يدع للنوم إليهما سبيلا .

* * *

وبعد خمسة أيام أو ستة ـ وكان تريلاونى قد وعد بجائزة من يستطيع من حراس السواحل أن يبعث إليه بنبأ ـ دعى إلى ڤيارچيو ، حيث ألقت مياه البحر بجثة على الشاطىء . . وكانت جثة مشوهة إلى حد تروع رؤيته ، لأن كل الأجزاء التى لا تحميها الثياب قد التهمتها الأسماك . لكن المحيا الضامر ، والقوام الأهيف ، والسترة ، ومجلد « سوفوكليس » فى جيب ، وديوان « كيتس » فى جيب

آخر ، مفتوحاً ، كما لو كان القارئ قد أرغمته العاصفة على طيّه هكذا ، ووضعه فى جيبه ! . . هذه كلها كانت معروفة مألوفة لدى تريلاونى ، إلى حد لايترك عنده مجالا للشك فى أن هذا الجسم المشوه لا يمكن أن يكون لأحد غير شللى . .

وفى نفس الوقت ، تقريباً ، دفع البحر إلى البر بجثتى وليامز والصبىّ الملاح ، غير بعيد من المكان نفسه ، وهما أشد تشويهاً ونُكْراً . فأمر تريلاونى بطمر الجثث مؤقتاً فى الرمل ، لحفظها من المد والجزر . وخف مسرعاً إلى « كازامانى » .

ووقف عند عتبة البيت . لم يكن يُرى أحد . . وفى الردهة مصباح يضىء . . ربما كانت الأرملتان ما زالتا تعللان بعضهما بأسباب الرجاء . .

وفكر تريلاونى فى زيارته الأخيرة : عند ما كانت الأسرتان مجتمعتين ، فى الڤيرندا ، المشرفة على البحر الهادئ الصافى ، بحيث تنعكس كل نجمة فى السماء على مرآة الماء . . ثم إذ أقلع وحده حتى اليخت « بوليڤار » ، كان يسمع ، من بعيد ، چين تغنى ، وتوقع غناءها على القيثارة . . ثم صوت شللى يعلو ضاحكاً فى هدوء الليل . . بينا هو يصغى طويلا ، هاتفاً بإصغائه ، إلى تلك الجماعة الطيبة من الناس ، تبدو أسعد ما تكون فى الدنيا . .

وصدرت صرخة قطعت عليه حلمه . . كانت المربية كاترينا قد لمحته على العتبة ، وهى تجتاز الردهة . . فصعد ، دون استئذان ، إلى الغرفة التى تجلس فيها مارى وچين ، تنتظران . . ولم يستطع النطق بكلمة . فحدقت فيه عينا مارى النجلاوان ، اللتان بلون البندق . واتسعت حدقتاهما اتساعاً مروعاً . . ثم صرخت :

ــ أو لم يعد ثمة أمل ؟ . .

فلم يجب تريلاونى ، وغادر الحجرة ، وأمر المربية بأن تأخذ الأطفال إلى الوالدتين التعستين . .

٣٧ - الحلقات الأخيرة

ودت مارى لو دفن شللى قرب ولده فى مقبرة روما ، تلك التى رآها جميلة جداً .. لكن اللوائح الصحية لا تسمح بنقل جثث الغرقى . فاقترح تريلاونى أن تحرق الجثتان على الشاطىء ، على طريقة الإغريق القدماء . ولما تحدد يوم لهذه الشعائر ، أحاط به بيرون وهنت . وقدمت السلطات التوسكانية شرذمة من الجند مزودين بالفؤوس والمعاول . ونبش على جثمان وليامز أولا . ووقف أصحابه على الرمل المحرق ، ينظرون إلى الجنود يعملون ، متطلعين ، بمزيج من الحزن والرعب ، إلى ظهور الرفات البشرى .. وظهر أولا طرف منديل من الحرير الأسود ، ثم ياقة ، ثم الجسد فى حالة من الانحلال ، بحيث كانت الأعضاء تتساقط بمجرد ما يلمسها الجند ..

فنظر بيرون إلى تلك الكتلة المختلطة من اللحم والعظم ، وقال : « أهذه إذن رفات إنسان ؟ ! .. كأنى بها هيكل حيوان ! » .. وبلغ به التأثر ، فحاول أن يخفيه ، إذ عده غير جدير بالرجال .. وفى اللحظة التى رفع فيها الجنود الجمجمة ، قال : « قفوا لحظة ! .. حتى أرى الفكّ .. » .. ثم أضاف : « إنى أستطيع أن أعرف من الأسنان كل من خاطبته يوماً .. إنى أنظر دائماً إلى الفم ، فهو يقول ما تحاول أن تخفيه العيون .. »

وأعدت كومة كبيرة من حطب الصنوبر ، أشعل فيها تريلاونى النار .. فلم تلبث أن تأججت ، وهى تلتهم العظم واللحم ، وتلظّت بسرعة حامية ، حتى تراجع المشاهدون .. واستعرت النار بشراهة وحشية ، ثم تألقت صافية ، لامعة ، فضية .. ولما خبا قليلا أوارها ، اقترب منها بيرون وهَنْت ، وألقيا على هذا الفراش الجنائزىّ المتوقّد : لباناً ، ومِلحاً ، وخمراً ..

وقال بيرون بغتة :

ـــ هلموا .. ولنجرب قوانا مع هذه المياه التي أغرقت صديقينا .. ما مدى بعد مركبهما عن الشاطىء عند ما غرق ؟ ..

وقفز إلى الماء عائماً .. وتبعه تريلاوني وهنت .. ولما عادوا فالتفتوا وراءهم ، كانت محرقة الموت على الشاطىء لم تعد إلا ذبالة تضىء وتخبو ..

* * *

وفي اليوم التالي ، جاء دور شللي ، الذي كان مطموراً قرب ڤيارچيو ، بين البحر وغابة الصنوبر .

وكان الجو صحواً جميلا : رمال صفراء ، ومياه زرقاء ، تؤلف ، تحت أشعة الشمس الساطعة ، لوحة رائعة . ومن وراء الأشجار ، تبدو قمم جبال الأپنين المتوجة بالثلوج البيضاء ، في السماء الموشّاة بالسحب المرمرية الهاربة ، التي طالما أعجب بها شللي ...

واحتشد أطفال البلد يتفرجون على هذا المشهد النادر .. ولكنهم لزموا الصمت خاشعين .. وكان بيرون نفسه قد توزّعته الفِكَر والغموم :

ـــ آه ! .. أيتها الإرادة الحديد ! .. أهذا إذن كل ما بقي من شجاعتك ، ومضائك ، وعزيمتك ؟ ! .. لقد تحديت الآلهة ... وها أنت ذي ! .. لا عاصم اليوم من أمر الله ! ...

وظل الجنود يحفرون نحو الساعة ، ولا يجدون الجثة . ثم فجأة ، سمع صوت ضربة جامدة جوفاء ، أنذرتهم بأن فأساً قد ضربت جمجمة الرأس .. فارتجف بيرون . ومرت بذهنه كالبرق صورة شللي ، يوم تلك العاصفة ، على بحيرة جنيف ، عند ما كانا معاً ، وقد شبك شللي ذراعيه على صدره ، ببسالة وعجز معاً ! .. فبدا لبيرون أن تينك الذراعين كانتا رمزاً صادقاً لهذه الحياة الجميلة :

ـــ لشد ما كان الناس قساة غلاة في الحكم عليه ظلماً وعدواناً .. فهو خير

الرجال بلا استثناء ، وأقل من عرفت منهم أثرة وأنانية ... ثم أى چنتلمان !..
الرجل الكامل .. لم يعبر قط صالوناً رجل أكمل منه ! ..

كانت الجثة مغطاة بالجير الذى أتى عليها ، لم يدعها إلا فحماً . فنُثر من جديد بخور اللبان والزيت والملح على اللهب ، وصُب النبيذ مدراراً على شللى ميتاً ، أكثر مما تجرع منه حياً ..

وضاق الجو ، وتكهرب بالحرارة الهائلة .. وبعد ثلاث ساعات كان القلب ، وهو على حجم كبير غير عادى ، لم يذب بعد .. فانتشله تريلاونى من الأتون المشتعل ، مجازفاً بإحراق يده .. وكانت الجمجمة التى شجّها معول جندى قد انفتحت ، وظل المخ يغلى فيها طويلا .. كما لو كان فى بوتقة ..

فلم يعد بيرون يستطيع احتمال هذا المشهد . ففعل ما فعل بالأمس : ألقى بنفسه متجرداً إلى البحر ، وسبح حتى يخته « بوليفار » ، الذى كان راسياً فى الجون .. وجمع تريلاونى بقايا العظام المنتثرة ورماد الرفات ، ووضعها فى صندوق كان قد جاء به ، مصنوع من خشب البلوط ، ومبطن بقطيفة سوداء ..

أما غلمان القرية ، الذين كانوا يحدقون بكل عيونهم ويعجبون ، فقد روى بعضهم لبعض : أن هذه العظام النخرة ، إذا ما عادت إلى وطنها ، عاد الميت فولد من رماده ، وهبّ من رقاده ! ..

* * *

والآن ، قد آن لنا أن نأتى على ما أصاب بقية ممثلى القصة ...

فالسير تيموثى شللى : عاش إلى سن الحادية والتسعين ، ومات فى عام ١٨٤٤ . وقد أجرى على مارى معاشاً صغيراً ، على شريطة أن تعتد بألا تنشر أشعار زوجها ، أو أى تاريخ لحياته ، مادام أبوه البارون العجوز حياً . ولما مات ، ورث ابن مارى ، « برسى فلورنس شللى » : اللقب ، والثروة .. لأن ابن هارييت كان قد مات فى الحادية عشرة من عمره .

وجمع الشقاء بين الأرملتين : ماري وچين . فسكنتا طويلا معاً ، في إيطاليا ، ثم في لندن . وبلغ من إخلاص أصدقاء قرينيهما أن طلب تريلاوني يد ماري ، وأن طلب هج ، المتشكك ، بعد قليل ، يد چين . . أما ماري فرفضت ، قائلة : إن اسم « ماري شللي » في عينيها ، من الجمال بحيث لا تريد سواه اسماً يحفر على لوح قبرها . . وأما چين فقبلت ، ولكنها اعترفت بأنها لم تكن زوجة وليامز الشرعية ، إذ كان لها زوج ، في جهة ما بالهند . . ولم يكن ذلك ليزعج هج ، وأعفاهما كليهما من كل الطقوس . . ولم يفترقا قط ، وعاشا عيشاً طيباً ، ولو أن هج ، رغم دقته وجهده ، لم يبرز في عالم المحاماة ، لقلة ما في مرافعاته من بلاغة وحرارة . . وفي أواخر حياته ، أصبح شيخاً حيياً ، خاب خياله ، وتبددت أحلامه ، يقرأ اليونانية واللاتينية ، ليهز بعض ما انتابه من ضجر وسآمة . . .

وبقيت كلير بعيدة عن انجلترا ، وعملت مربية في روسيا ، حتى مات السير تيموثي ، فورثت الاثني عشر ألف جنيه ، التي كان شللي قد أوصى بها لها ، فتحررت من الفاقة . .

وكان هؤلاء النسوة الثلاث ، كلما تقدمت بهن السن ، وقيّدهن الكِبَرُ ، يتخاصمن ، ويتشاجرن . چين تدعي أن شللي كان ، في شهوره الأخيرة ، في بيزا ، ثم في « لانماني » ، لا يحب أحداً سواها . . . وحُملت دعواها هذه إلى ماري ، التي تمرمرت منها ، وتنمّرت ، فكفت عن مخالطتها . . وتحوّلت چين ، شيئاً فشيئاً ، إلى امرأة عجوز ، وهن العظم منها ، وصم السمع ، وإن ظلت رقيقة ، تضيء عيناها ، كلما جرت ذكرى الشاعر على لسانها . .

وظلت كلير ، سنين طويلة ، تعد كتاباً عن : نفسها ، وشللي ، وبيرون . . والحب ! . . لكن أعصابها اختلت ، فكفت ، واستراحت . . وقضت ما بقي من عمرها في فلورنسا ، حيث ارتدت إلى الكثلكة ، وزوّدت أيامها الأخيرة بالبر والتقوى . .

* * *

وفى ذات يوم من ربيع ١٨٧٨ ، جاء شاب يسعى فى طلب وثائق لرسالة عن بيرون وشللى ، يسألها عن ذكرياتها . . فما كاد ينطق أمامها بهذين الاسمين ، حتى ارتسمت على تجاعيد تلك السيدة العجوز ابتسامة من ابتسامات الصبا الملأى ، على ما بها من خجل ، بالوعود . . تلك الابتسامة التى جعلتها ، فى سن العشرين ، فتنة للناظرين . . قالت :

— وبعد ، فلعلك تفترض ما يفترضه سواك من الناس ، فتزعم أننى أحببت بيرون ! . .

فلما نظر إليها مندهشاً ، قالت :

— ياصديقى الفتى ، سيأتى يوم تعرف فيه ، خيراً من هذا ، قلوب النساء . . إنى بُهرت ببيرون ، لكن لم يكن ذاك حبًّا . . ربما كان يمكن أن يتحول إلى حب . . غير أنه لم يتحول ! . .

ثم سادت فترة سكوت . . . وتردد الزائر قليلا ، ثم جازف بسؤالها :

— أو لم تحبى إذن أحداً ، ياسيدتى ؟ . .

فمرت حمرة خفيفة بالوجنتين الضامرتين ، ولم تجب . . وأطرقت ، تحدّق فى الأرض . . .

فهمس بصوت خافت ، لايكاد يُسمع :

— شللى ؟ . .

فأجابت بحرارة ، دون أن ترفع عينيها :

— بكل مجامع قلبى ، وكل جوارح نفسى ! . .

ثم ضربت على خده ، فى دلال شائق ، بطرَف مروحتها . . .

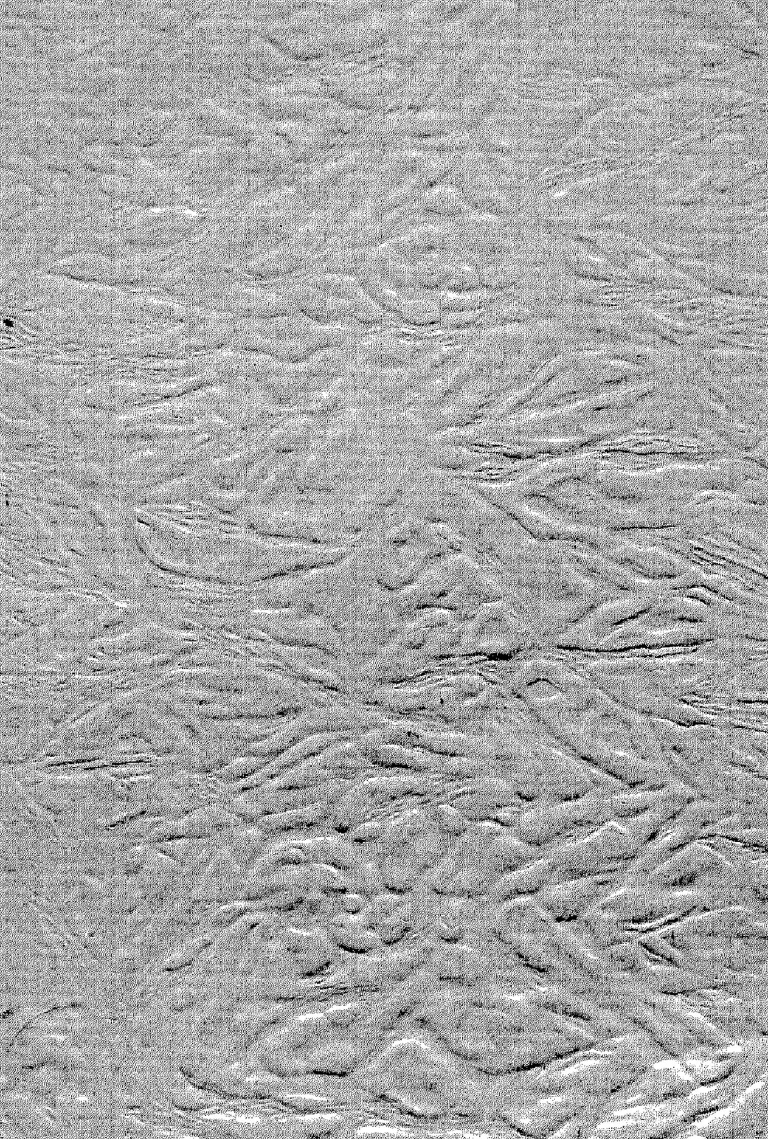
فهرس

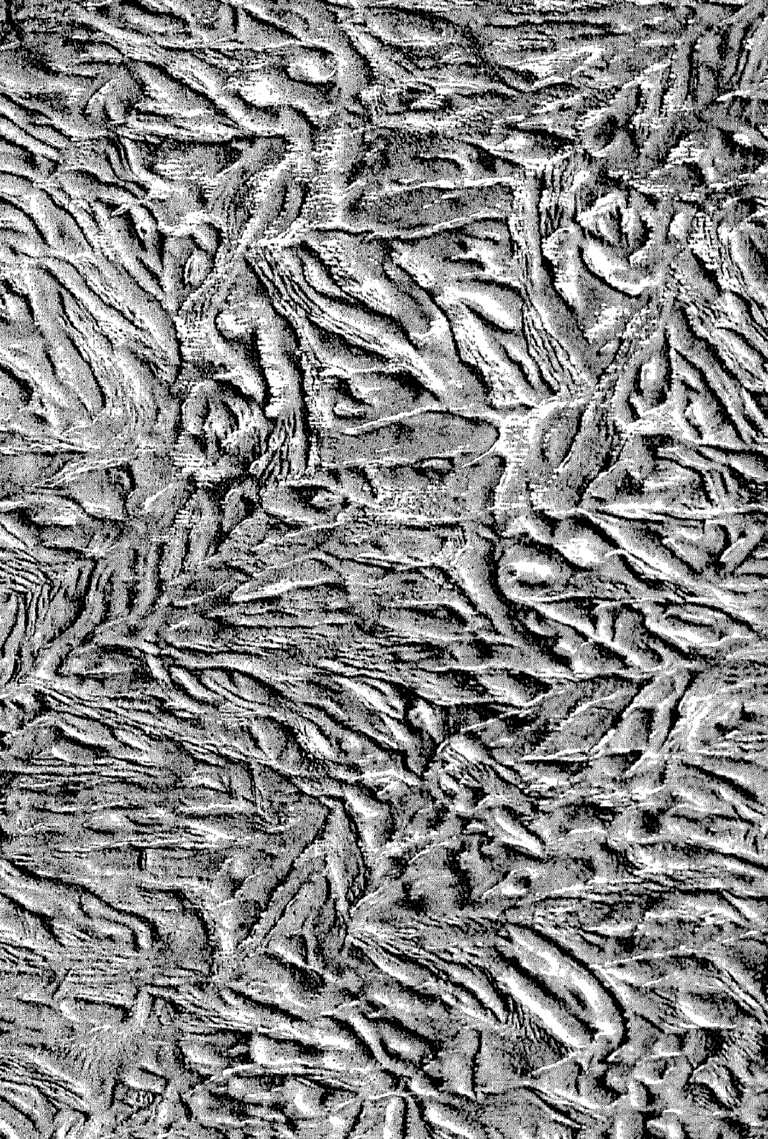
الجزء الأول

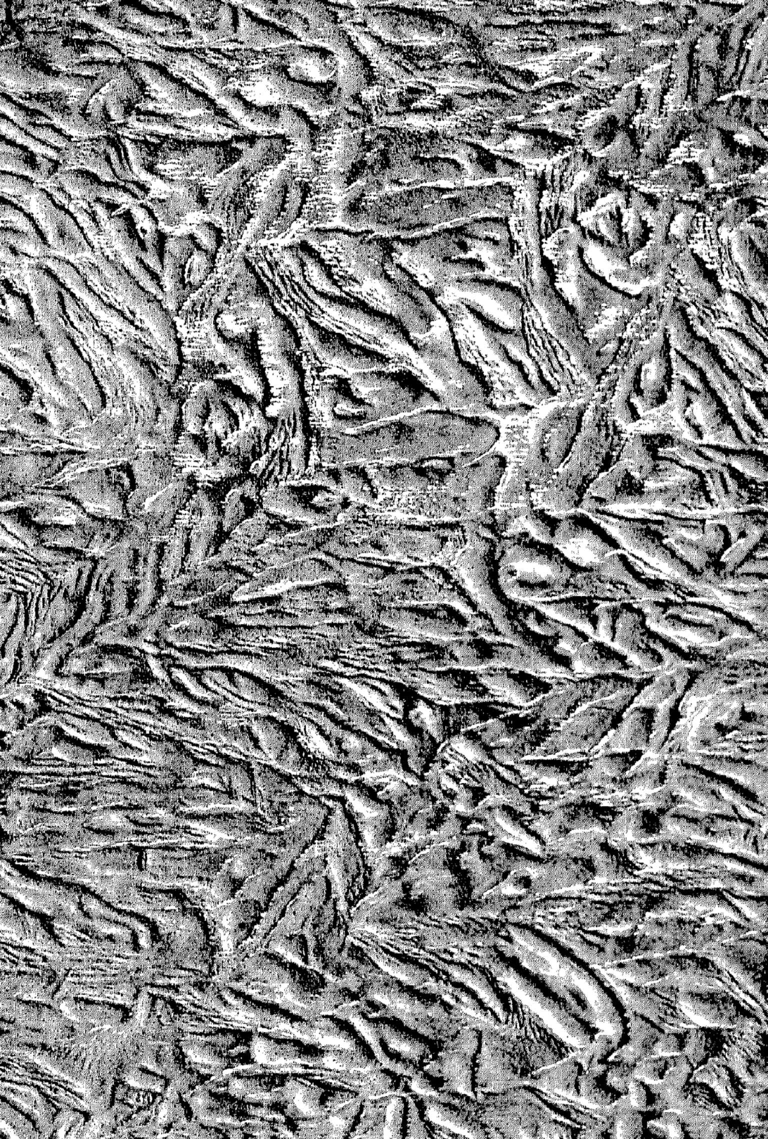
الجزء الثاني

شركة فن الطباعة
صندوق بوسته ٤ شبرا مصر - تليفون ٥٨١٤٩










Bibliotheca Alexandrina
05737732